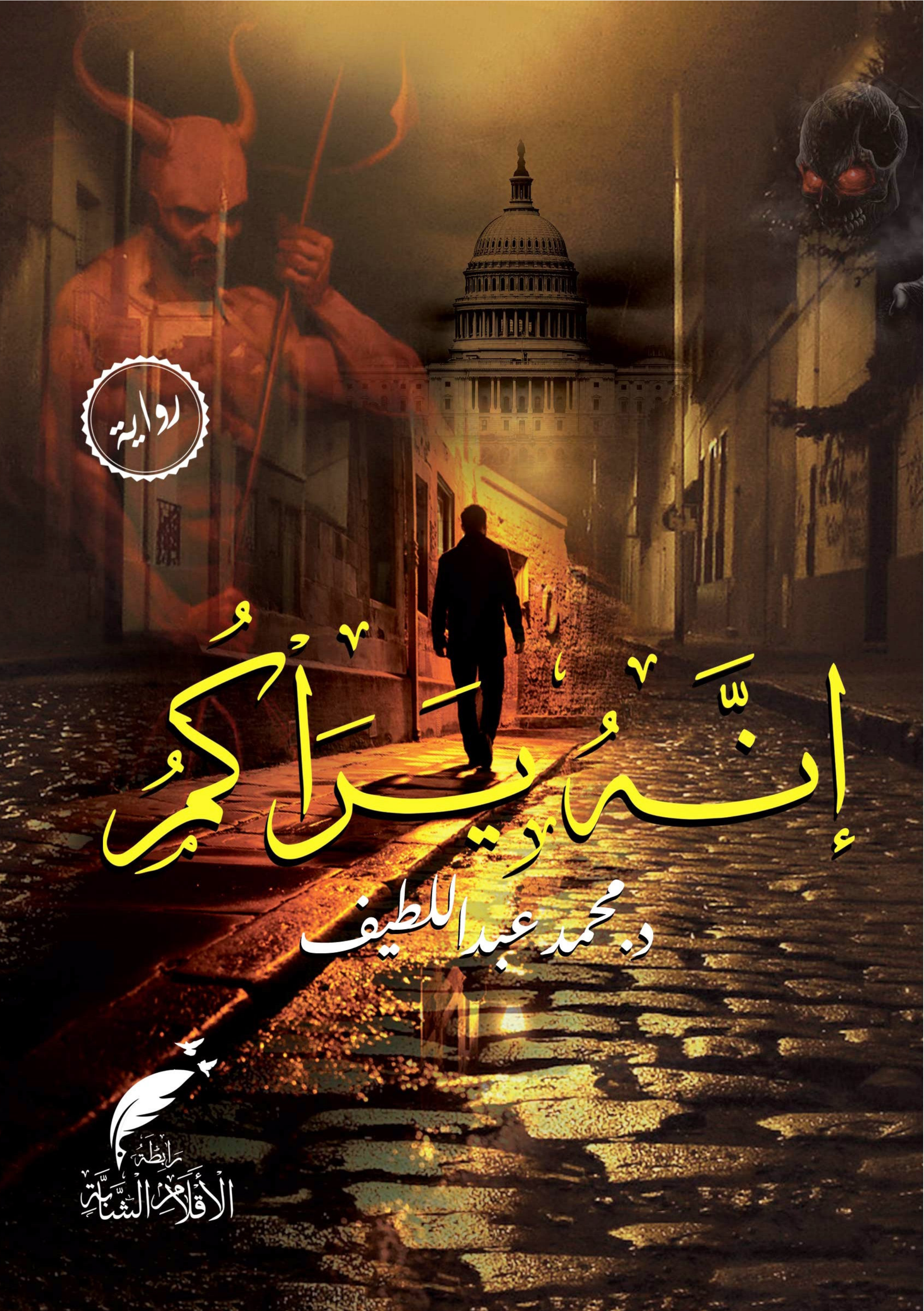

رواية
إِنَّهُ يَرَاكُمْ
د. محمد عبد اللطيف
رابطة
الأقلام الشابة

إنَّهُ يَرَاكُمْ

إنَّ الشمس التي تَغْرُبُ في تلك البلاد لا تعود لتُشْرقَ عليها.. فما الجدوى من الشروق إنْ لَمْ يحمل معه أملًا جديدًا وتَقويمًا سعيدًا.. ليسَ ثمَّةَ فائدة من تتابعِ الأيام ومرور الليالي وأهل البلاد قابعون في دياجير الظلم.. يُمَرّغون وجوههم وأنوفهم في التراب.. ليس تُرابًا كالذي خُلقُوا منه، بل تُرَابٌ خُلقَ من ذلَّة وَهوان.. ترابٌ اختلط بدمائهم وعظامهم، فتَشكّلوا بطينته مَن جديدٍ.. خلقًا جديدًا.. عبيدًا.. ولكن يبدو أنّ بطلًا من أنفسهم كان له رأيٌ آخر، فنفَضَ عنه عباءة الذُلّ ووضع عن كاهليه دعاوَى الضعف والدّعة، وأخذ بزمام أمتِه إلى النصر بأكثر الطرق تطرُّفًا في تاريخ عالم الإنسِ..

د. محمد عبد اللطيف

إنَّهُ يرَاكُم



إِنَّهُ يرَاكُم

د. محمد عبد اللطيف

رابطة الأقلام الشابة

مساحة ١٤.٨ × ٢١ سم

عدد الصفحات: ٢٦٨ صفحة

رقم الإيداع: ١١٠١/ ١٤٤١/ ٦/ ٢٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



للتواصل والاقتراحات

mo.a.latif@yandex.com

رواية

إنَّــهُ يَرَاكُــم

د. محمد عبد اللطيف



إهــداء..

إلى كلِّ مَنْ يتُوقُ إلى نسماتِ الحُرِّيَّة والانعِتَاقِ...

إلى كُلِّ مَن كان شاهدًا على أمَّةٍ في طريقها إلى الزَّوَال...

إلَى كلِّ مُنَاضِلٍ في سبيل الحقِّ.. سبيل الله...

إلى كلِّ مَن قضَى ولَمْ يَرَ مِن الدُّنْيَا سِوَى قسوَتِها...

إلى كلِّ مَن لا يزال.. يحلُم بيَومٍ تشرُقُ فيه شمسُ العِزَّة...

مملكة العبيد

أشرقت شمس يوم قائظ خانق.. أشرقت لا لكي تُعِير الدنيا قَبَسًا من نورها، ولا لكي تلفَّ الأرجاء بدِثار من الدفء، ولا حتى إيذانًا منها ببدء يوم جديد وتقويم سعيد.. فإشراقها على تلك البلاد وأهلها لم يعرف قطُّ تلك المعاني، ولم يقصد وجهَ الأرض يومًا بتلك اللمسات الحانية، التي يستدِلُّ بها المؤمنُ على رحمة الله لخلْقه، وديمومة إلهيته لهم، ولزوم توليه إياهم.

فالشمس تعرف أهل تلك البلاد، وتعرف أنهم ليسوا كغيرهم، والمسافات التي تفصل بينهم وبين خلق الله شاسعة، قاحلة من جهتهم، عامرة مما لا يليهم، فلا ينبغي للشمس ولا لغيرها أنْ تُسَوِّيَ بين العباد في العَطِيَّة، فإنَّ هذا فضل الله، يُعطيه من يشاء. وكان أهل تلك البلاد ممن شاء الله أن يذيقَهم مرارة الحرمان، وشَظَفَ العيش، وحرقة البأس واليأس، لا لأنهم لم يكونوا من الموحدين، فقد كانوا، بل كان شعبًا «ديِّنًا بطبعه»، ولكنهم كانوا دائمًا عبيدًا لغيره، كانوا يخافون غير الله كخيفتهم إيَّاه، ويخشونهم كخشيته، بل أشد خشية، كانوا يقَدِّمون القناعة والرضا لكل ذي سوطٍ ما لم يقَدِّموا مثيلَه لخالقهم.

كان إشراق شمس ذلك اليوم إيذَانًا ببدء معاناة يوم جديد، على أعمال العباد شهيد، كما كان شاهدًا على نكوصهم عما أوجبه الله عليهم، فما أكثر تخلُّفهم عن أمره وما أقل وقوفهم عند نهيه وزجره.. لم يكن البلاء الذي يتقلبون فيه على جنوبهم ليل نهار يومًا ظلمًا لأمثالهم، بل إنَّ ذوي البصائر منهم يعرفون نِعَمَ الله عليهم، التي لم يسلبها إيَّاهم بعد، كما يعرفون أبناءهم.. وأصحاب القسط وأهل العدل والاستقامة منهم يعرفون أنَّ القادمَ أكثرُ مقتًا وسوداويةً مما مضى..

أشرقت الشمس كما أشرقت بالأمس، القريب والبعيد، فأحرقت الوجوه وظلَّلتها بسوادٍ كئيب وسُمْرة مُعَذَّبَةٍ، لا يمُتُّ بصلَةٍ إلى ذاك السَّمار الأخَّاذ الذي تتسابق إليه الصبايا الجميلات على شُطْآن المرح ورمال الحياة.. بل اختلط هذا السمار بسيول من العرق الخانق الذي يُحَطُّ من أعلى الرأس إلى أُخمص القدم.. فيجرف في طريقه كل أمارات الكرامة والعِزَّة، فيُمسي المرء بعد أن كان يظن بنفسه كرامةً على الله، بعد أن يُغْمَس غمسة في هذا العرق كأنَّه لم يرَ خيرًا قَطّ..

أشرقت الشمس على تجاعيد الوجوه، فصيَّرَتْها أخاديد قاحلةً.. لا تُبْقِي الماء فيُنْبِت ولا تحفظه في باطنها فتُسْقَي منه الروح والجسد..

أشرقت الشمس على خصلات الشَّعر وضفائره.. فلم تلمع أيُّها تحت أشعتها الحارقة.. بل التصق الشَّعر بالوجوه والأقفية، وزاد من الضجَر والسخط.. فصار الشعر نقمة بعد نعمة.. وأصبح القوم يقولون.. من كان له شَعر فليحلقه.. لا أن يكرمه..

ولا تظنَّنَّ أن من حُرِمَ نقمة الشَّعر قد حرم نعمة الأذى.. فإنَّ الشمس الحارقة لمْ تنسَ هؤلاء من قُبْلَة قاسية طبعتها على أمِّ رؤوسهم، التي لم تشفع لها إضاءتُها كمصباح قد شارف على الاحتراق من فرط إعمال الشمس في الرؤوس..

أشرقت الشمس لتُذَكِّر الجميع أنَّهم في العذاب باقون.. وفي دار المهانة مقيمون.. وفي سخط من الله يُمْسُون كما يصبحون.. أشرقت لتذكرهم بانقضاء الأمس وأوَّله وببقاء اليومِ وقادمِه.. وكيف أنَّها باقية رُغم الأنوف، لتمارس ما أُمِرَت به على وجوههم وأقفيتهم.. تمامًا كما يبقى الذلُّ الذي يعيشون فيه كامنًا في نفوسهم، ذابحًا لنحورهم وآكلًا لأجسامهم..

كان الناس الذين يسكنون في «مملكة العبيد»، نعم هذا هو اسمها، لم يكن هذا هو الاسم الذي أطلقه عليها أهلها من قديم بالطبع، ولكن تتابع السنين أنسى الناس اسم بلادهم، وغلب عليها ذلك الاسم «مملكة العبيد»،

فلا يكاد أحد يذكر الاسم القديم لذلك البلد، وكأنَّه قطُّ لم يكن، فهم آيةٌ في العبادة والتَّبعية، ورمزٌ من رموز الخنوع والاستسلام، وعلامة من علامات الدهر على القناعة المُقَنَّعة، فقد كانوا بحقٍّ غثاءً كغثاء السيل، أتباع كلِّ ناعق، مستضعفين، لا زَبَرَ لهم، لا يبغون مالًا ولا ولَدًا.. كان هؤلاء القوم يُمْسُون على ما أصبحوا عليه من شظف العيش وقلة الرزق وانعدام الحيلة، تتوالى عليهم الآفات والأزمات، ويُصَبُّ على رؤوسهم حميم البلاء والغلاء، ويتمتعون بأنواعٍ شتَّى من الأمراض التي أصبح حقيرُها عصِيًّا على الدواء وأحجبة الأطباء.

كان أهل «مملكة العبيد» يُسَامُون سوء العذاب، وهم بعدُ لم يُسَاقُوا إلى جهَّنم، وإنْ منهم إلَّا واردها، إلَّا من تجاوزَ الله عنه، حتى أنَّ الموت أصبح موطنًا من مواطن الكرامة والرخاء، فمن أُحْكِمَتْ عليهم قبضة مَلَك الموت فقد أُرْخِيَت عنهم قبضة الدنيا بما فيها، ولكنهم مع ذلك لم يطلبوا الموت، لا بحقٍّ ولا بباطلٍ، فإذا كانت العزَّة والكرامة في الموت فلا أهلًا به ولا سهلًا، ومرحبًا بحياة مِلؤُها الذلُّ والمهانة إلى أبدِ الآبدِين..

وقد تسَلَّطَ على أهل «مملكة العبيد» أراذل الخلق وأسافلهم ومن لا خلاق لهم، أُنَاس لا يرْقُبون في مؤمن إلَّا ولا ذمَّة، قوم لا دين لهم وإن زعموا خلاف ذلك، يستترون تارةً خلف قيمةٍ هم عنها عرايا، وتارة خلف

آيةٍ في كتاب الله يلوون بها ألسنتهم، وتارة خلف مُحْكَمٍ يُحَرِّفُون فيه الكَلِمَ عن مواضعه. وقد يستترون خلف رابطة عنق قد غُزِلَت خيوطها من حبال المشانق وسياط الجلادين.. ويستترون خلف ابتسامة باهتة باردة مِلؤُها الاستهانة والاستخفاف والشماتة.. يستترون خلف حقوق يزعمونها حقوقًا، وهي على خلاف ذلك، تشهد بها ألسنتهم وتكفر بها قلوبهم.. قد يستترون خلف جميع ذلك أو بعضه..

لطالما استتروا خلف تلك الحُجُبِ والضباب، حتَّى نالوا من ديانة الخلق وأخلاقهم وحريَّاتهم وثقافتهم وتاريخهم وحاضرهم ومستقبلهم وتعليمهم وصحَّتهم وأموالهم وأحلامهم...

إلَّا أنَّ الله أبَى إلَّا أن يفضحهم ويزيل مَكْرَهم، وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، فكانت تلك الحُجُبُ هباءً منثورًا إذا ما شاء اللهُ لها أن تصطدم بنور البصيرة والفِطَرِ السويَّة التي وهبها لبعض أولائك الذين لا يخافون فيه لومة لائم..

وفي مواجهة أولياء الله هؤلاء فإن جميع تلك الحُجُب على تنوع مشاربها ومصارفها لم تكن لتصمد، فيُزهَق باطلهم ويُدْمَغ، ولا يجِد له على أرض الحقِّ موطئًا.. فإذا كان الحال كذلك عاد أهل الباطل للاستتار خلف ستارٍ

جديد مهيبٍ، ستار القوَّة والقسوَة والسُّلطة، ستار القوَّة الغاشمة وفصائل الأمن المجرمة، فتُعْمِلُ قبضتها قتلًا وتشريدًا وسجنًا في من تُسَوِّل له نفسه من أهل الحقِّ أن يكون كذلك.. فضاقت السجون بسجنائها، وأَنَّتِ القبور من كثرة ساكنيها.. وضاقت بأهل الحقِّ الأرضُ بما رَحُبَت، وزُلْزِلُوا زلزالًا شديدًا، وظَنَّ البعض منهم بالله الظُّنُونَا، وتسَاءَلُوا فيما بينهم «متى نصر الله؟»!!.



كلَّ يومٍ هو في ذات الشأن

نهض «نضال» من نومه متثاقلًا، بجسد أثقلته الهموم وأرهقته الرزايا، وأتعبه النوم، نعم، فإنَّ النوم في «مملكة العبيد» لم يكن قطُّ من وسائل الراحة والدَّعَة، بل كان صنفًا آخر من صنوف العذاب، الذي ينتقل فيه المرء من ميدان التعذيب الجسدي إلى فضاء التعذيب النفسي، الذي لم يكن أقل وَحْشَةً ووحشيَّة من ذلك النوع الذي يُمَارَس على أجساد الضحايا في ساعات اليقظة..

نهض وكل جزء من جسده يئنُّ مستغيثًا برمضاء آتية لا ريب في قدومها، من نارٍ لا تزال ألسنتها تُعْمِلُ في ما تبقى من روحه حرقًا وتشويهًا.. نهض وهو يُحَوْقِلُ، فهو يدري أيَّ الأيَّام ينتظره، فاليوم الذي يستهلُّه سيكون تمامًا كاليوم الذي استدبره.. وإذا لم تكن تلك لعنة فلا أحد يدري كيف تكون اللعناتُ إذًا.

نهض «نضال» نافضًا عن نفسه ما يظنُّه من معوقات النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، من كسل وسخط وتريُّثٍ في غير محلِّهِ، ومن ثَمَّ توضَّأ ليزيح عن جسده ما تبقى من آثار الحريق الذي نشب في نفسه أثناء نومه، ثُمَّ صلَّى الضُّحى، وقبَّل أطفاله النائمين كصغار الثعالب، واستودَع زوجَه ومضى في

طريقه إلى العمل.

كـان «نـضال» طبيبًـا بيطريًّـا، يعـالج الحيوانـات فتـبرأ بـإذن خالقهـا، أو يعالجها فيقتلها بإذن مُفْنِيها.. لـم يكـن «نـضال» بيطريًّا ساذجًا أو غير ذي مهارة، بل كان دائمًا طموحًا محبًّا لمجال عمله، لا لعمله، ولكنَّه شاء أم أبَى أحد مواطني «مملكة العبيد»، فلمْ يتلقَّ قطُّ تعليمًا محترمًا مؤهِّلًا في أيِّ عامٍ دراسيٍّ كانَ، من المرحلة الابتدائيَّة إلى الجامعيَّة، لذا فإنَّه يمكننا القول بأنَّ جُلَّ ما حازه «نضال» من مهارة ومؤهلات وأمنيات كان محض توفيق من الله ثُمَّ سعيٍ منه، ولم يكن للقائمين على شؤون العباد في «مملكة العبيد» من ذلك النجاح نصيب يُذْكَر..

وكـان مـن الأسـباب التـي جعلـت «نـضال» يحـب عملـه كثيـرًا في عـلاج الحيوانات هو الحيوانات نفسها، فلها سرائر نقيَّة وفِطَر سويَّة وقلوب بيضاء صافية، فهي لا تعرف الغلَّ والحسد، ولا تأذن لنفسها في التردِّي في متاهات الجريمة وطلَب الانتقام.. تحيى حياةً سهلة ميسورة، لا ألغاز فيها، شريعتها شريعة الغاب، نعم.. إنَّها قاسية كثيرًا، ولكنَّها عادلَة كذلك، فالله هو من أنشأ شريعة الغاب لها، وهي تجري وُفْقَ ما قدَّرَه الله، فكيف لا تكون شريعة الغاب عادلةً إذًا؟!!.

وعلى قَدْر ما أحبَّ «نضال» مجال عمله، كَرِه مكان عمله ورفاق عمله ووقت عمله، فكلَّما ابتعدتَ عن تلك النفوس الحيوانية البريئة البسيطة، ازدادت الحياة تعقيدًا، وازدادت خطورةً، فكما أنَّك قد تجد فيها الخير والوُدَّ والتعاوُنَ والصَّلَاح والإيثارَ، فإنَّكَ أيْضًا قد تجد أضدادَ ذلك.. وفي «مملكة العبيد» سادت الأضدادُ وانزوت تلك السمات التي ميَّزَت الإنسانية في وقت من الأوقات..

ولطالما كان وقت الذهاب إلى العمل والإياب منه من أحبِّ ساعات اليوم إليه، فبعد أن يتخلص «نضال» من معاناة الاستيقاظ صباحًا والتفلُّت من البرزخ الفاصل بين جحيم النوم وجحيم اليوم، يقضي قرابة الساعة ونصف الساعة حالمًا في عالم من الخيال والمثالية، فيمضي كلَّ يومٍ إلى عمله راجلًا، وبإمكانه أن يستقل أحد وسائل تعذيب المواطنين من سيارة أجرة أو قطار أو حافلة شعبيَّة، غير أنَّه يُؤثِر أن يسير إلى العمل لكي يُغْرِق نفسه في بحرٍ لُجِّيٍّ من الأماني والأحلام الخدَّاعات، وعلى الرغم من أنَّه يعلم أنَّها محض خيالٍ إلَّا أنَّه يحياها وكأنَّها حقيقة، بل ويُؤْثِرُها على واقعه المؤلم، فلطالما كانت تلك الحياة الموازية مصدرَ إلهام لكثير من الشعراء والأدباء والفلاسفة والأولياء، بل والمناضلين.. وهو يُمْعِن في إيلاج نفسه في تلك الحالة الذهنية الحالمة رجاءَ أن يصبح من ذاك الصِّنف الأخير..

نعم.. هذا أنا «نضال».. وهذه قصَّتي التي لم أستطع يومًا أن أكتبها.. ولا أدري كيف وصلت إليكم.. ولا كيف أقرأها أنا الآن على مسامعكم.. ولعلَّ هذا آخر ما يشغل فِكْري.. فقط أنصتوا عسى أن تكونوا خيرًا منِّي.. كي لا تتقطَّع بكم السُّبُل كما تقطَّعَتْ بي مِن قبلِكم..



كيف السبيل إلى الخلاص؟

كنت أهيم كلَّ يوم في طريقي إلى العمل، فأتمَثَّلُ لنفسي بطلًا من أبطال الأمَّة، الذين طالمَا ملأتُ أُذُنيَّ وعينيَّ من مطالعة سِيَرِهم والتفكر في أحوالهم.. فكنت دائمًا أتصوَّر نفسي وقد آل أمر البلاد والعباد إليَّ، وكيف أنَّ عليَّ أن أحارب الفسادَ وأهلَه وأسبابَه بكل ما أوتيتُ من قوَّةٍ، وأنَا الذي أقف وحيدًا وسط ضباع جائعةٍ تَتُوق إلى نهش لحمي وعظمي حيًّا..

كنت أرى نفسي أَصُول وأجول في جولات ونزالات شتَّى، فأمْكُر تارة ويمكرون تارات، وعلى قَدْرِ ما يكون إخلاصي لقضيَّتي يكون توفيق الله ومكره لي، فتكون الجولة لي بإذن الله، وتكون الدائرة على الظالمين..

كان طريقي إلى العمل هو الوقت الوحيد - إلى جانب الوقت الذي أُقَبِّلُ فيه ثعالبي الصغار وهم نائمون- الذي أشعر فيه بنشوة الانتصار وبهجة الحياة، قبل أن تُسْحَقَ تلك الروح تحت وطأة الواقع القاتل. فكنت أحرص كلَّ يوم على الإفادة من كلِّ لحظة في طريقي، فأتشبَّثُ بالدقائق والثواني وأجزائها، ولا أدعها تتفلَّت منِّي إلَّا بعد أن تكاد عجلة الزمن أن تتكسر جرَّاء القوَّة الجبرية لدوران الأرض حول محورها. فكلُّ لحظة أحياها في خيالي تزيد في عمري، وربما في عملي وصحيفتي كذلك، وكل خطوة

أخطوها إلى عملي تنتقص من عمري وكذلك من عملي وصحيفتي!!.

كنت أعشق تلك اللحظات التي أنتصر فيها على أحد رموز الفساد في معركة حاسمة بين الحقِّ والباطل، فأكيل لهم الضربات، وأشجُّ الرؤوس وأكسر الهامات، وأقطع عن الخلق أذاهم، وأجردهم من سلاحهم الذي به يحاربون الله ويفسدون في الأرض ويجتالون الناس، فينقلونهم من النور إلى الظلمات، ومن عبادة الله إلى عبادة العباد.

ولا أزعم كثيرًا أنَّني لم أفِد من مسيري هذا غير تلك اللحظات الحالمة، بل قد أفدْتُ منها في تطوير فكري ومنطقي واستِراتيجيَّة المواجهة عندي، حتَّى أصبح لديَّ منهجًا متكاملَ الأركان - أو يكاد- في ضروريات الصراع ومواجهة أهل الباطل.. أمَّا عن نقل مثل تلك النظريات الثورية للتطبيق على أرض الواقع، فهذا أمرٌ آخر، ولا أكاد أجد لمثله سبيلًا ولا منفذًا.

وأذكر ذات مَرَّةٍ أنَّني قصصتُ على أخي ما يجول في خاطري وما يدور بعقلي، وكيف أقضي تلك اللحظات الثورية السعيدة أثناء ذهابي إلى العمل.. وأخذتُ أقصُّ على مسامعه من بطولاتي وصولاتي وجولاتي في جميع المجالات الدينية والأَمْنِية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والصحية وغيرها.. وكان أخي يستمع إليَّ بإنصات وباهتمام..

حتى إذا ما انتهيتُ من سَرْدِ سِيرَتِي الصباحيَّة إذا به يقول لي:

- أنا أعرف ما هو الحل الناجع بالنسبة لك.

- وما هو؟

- أنت بعد كدة متمشيش.. اركب!!!.



إنَّ المســاجد لله

انتهيـتُ مـن صـلاة العـصر في المـسجد الـصغير المجـاور لمنزلـي، ثُـمَّ انتحيتُ بنفسي جانبًا، وأسندتُ ظهري إلى أحد جدران المسجد، عسى أن تنتقلَ بعض الهموم مني إليه، فتصعد منه إلى بارئها شاكيةً إليه حالي وما ألاقيه ويلاقيه المؤمنون في هذه الدنيا من نكبات تترا..

لا أدري لِمَ ظللتُ أحافظ على الصلاة في المسجد.. لقد فَقَدَ المسجدُ دورَه القياديَّ منذ زمنٍ بعيد، فلا يكاد أحدٌ يَذْكُرُ متى كان للمسجد هذا الدور الريادي.. قد يقرأ البعض – وهم قليلٌ– عن ذلك الدور الأسطوري الذي كان المسجد يقوم به في تلك الأزمان السحيقة.. حتى تلك الكتب التي تروي لنا تلك الحكايا قد أمسى ورقها مهترئًا مصفرًّا من فَرط القِدَمِ..

قد عَلِمَ بعضُنا ممن يعيش في «مملكة العبيد»، وممن يعيشون في بلاد مماثلة، أنَّ المسجد قديمًا كان بمثابة صرحٍ حضاريٍّ وعلميٍّ وعسكريٍّ واقتصاديٍّ واجتماعيٍّ وتربوي.. كان الناس يُهْرَعُون إليه في كل نازلة، ويحتمون بجدرانه من كل قاصمة، وفيه يرفعون أَكُفَّ الضراعة إلى خالقهم موقنين بالإجابة..

أتذكَّرُ قديمًا – وأنا دون العاشرة– حلقات الذكر وحفظ القرآن مع

الصبية في الحيِّ، وكيف كان شغفنا بذلك البناء القديم المتهالك، الذي لا يمُتُّ لتلك القلاع الحصينة، أو إن شئتَ فقُلْ بتلك **السجون المنيعة** التي يُسمُّونها اليومَ «مساجد» بصلَةٍ.. كان للمساجد على بساطتها وفقرها هيبة في قلوب الجميع، ومنزلة لا تضاهيها قصور كسرى وقيصر، ولا **بيت أبيض** ولا **قصر أحمر**.. إنَّها ببساطة شديدة.. بيوت الله..

أمَّا اليوم فقد طُمِسَتْ تلك المعالم، وتوارتْ تلك الهالات النورانية خلف **جُدُرٍ عازلة** من المدنية المزعومة والتكافل النفاقي.. فقد فُرِضَت القيودُ على قولة الحق، وكُمِّمَتْ أفواه المُخلصين من أبناء الأمة.. وأمستْ تلك المنابر لا يعتليها إلَّا من أوْغَلَ في طريق الضلالة والنفاق.. تلك المنابر التي لا يُكَادُ يُرَى مُعْتَلِيها من فرط بعدها عن الناس - وما هي بقريبة من الله- لا يَطَأُ ظهورها إلَّا من وُطِأَ ظهرُهُ ورَقَّ دينه وذَبَحَ ديانَة الخلق على محراب الكفر والنفاق.. وقدَّمَ شريعة الإلَهِ ذبيحة لكُلِّ خائنٍ وفاسقٍ لعين..

تلك المساجد التي خرج منها ذات يومٍ العلماءُ الربَّانيون والغزاةُ المجاهدون والمناضلون المدافعون والخطباء المُفَوَّهون، أمستِ اليومَ **ضِرَارًا** لا تُخرِجُ إلَّا نكِدًا.. ترى القوم يخرجون من المساجد بعد انقضاء الصلاة صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.. غثاء تضيق بهم الأرض وتئنُّ من كثرتهم النسمات، فإذا هبَتْ ريح الابتلاء في الله رأيتَ أعينهم تدور في

المَحَاجر كالذي يُغْشَى عليه مِن الموت، فلا يكاد يثبتُ منهم أحدٌ، وكأنهم غيث اسْتَدْبَرَتْه الريحُ أو كرَمَادٍ اشْتَدَّتْ به الريحُ في يومٍ عاصفٍ.. فيتسابقون إلى الزلَّات ومواطن النقصِ والنذالة وكأنهم يُسَاقون إلى جنَّةٍ عرضها السماوات والأرض.. أُعِدَّتْ لـ «**الخوالف الناكصين**»!!..

إنَّ الصلاة في مثل تلك المساجد التي لم تُأَسَّسْ على التقوى، أو لعلَّها كانت في أوَّل أمرها، ومن ثَمَّ آلَ أمرُهَا إلى أن أصبحت مفارز أمنيَّة تحيط المريدين بسياج شائك من العبوديَّة الزائفة والتبعيَّة المهينة، تعمل في مجال الوعظ والإرشاد الديني كما يعمل نظام التعليم في مجال التلقين البهيمي، تعمل لإخراج قوالب جامدة لا حياة فيها، بقلوب كقلب «**الخساية**» وعقول كعقول العصافير، بل **أضَلُّ**.. إنَّ الصلاة في مثل تلك المساجد لهو نوع من أنواع جهاد النفس.. والمواظبة عليها تُمِيتُ القلبَ..

لا أدري حقيقةً لِمَ أحافظُ على الصلاة في هذا النوع - الوحيد- من المساجد الأمنية، قد يكون الرجاء هو ما يدفعني إلى هذا الصنيع المريع، رجاءَ أنْ تتبدَّل الأحوال وتصير إلى خيرٍ مما هي عليه لعقود.. ولكن متى أحال الرجاءُ الخنزير الأجرب إلى بُرَاقٍ أهلَب؟!! ليست تجري المقادير على تلك الشاكلة..

أو قد أُكْثِرُ الخَطْوَ إلى المساجد علِّي ألقَى مغفَّلًا مثلي يبحث بين الأعمدة والأسورة والمنابر عمَّن لم تكتمل «قَوْلَبَتُهُ» ليتخرَّج من أقبية المساجد عبدًا لغير الله، كما يريد القائمون على البلاد لنا أن نكون.. فيَأْنَسُ بمثله وتتبدَّدُ بعض الوحشة القاتلة في قلبه.. عسى أن يكون أحدُهم للآخر عونًا على البِرِّ والتقوى..

أو قد أكون من زوَّار المساجد الأمنية – وليس ثَمَّ سواها– حتى لا تسقط هيبة مساجد التقوى من قلب ولديَ الصغير، وهو بعدُ لم يشبَّ عن الطَّوق، ولم يلمس الصراع الدائر بين أهل الباطل المتَسَلِّطين وأهل الحقِّ القِلَّة المُسْتَضْعَفِين، حينما يرى والدَه عزوفًا عن الصلاة في المسجد – وهو بعدُ لَمْ يَرَ منه جانبه الأمني **المُخَطَّط**– فيشِبُّ مُنْكِرًا لدور المسجد القيادي والتربوي، مفْتَقِدًا لقيمته، مُسْتَهِينًا بمكانته، مُتَنَكِّرًا له.. فيفسدُ قلب ولدي وهو في طَوْرِ الصلاح يافعٌ..

أسندتُ ظهري إلى حائطٍ في المسجد إلى يمين القِبلة، فشعرتُ وكأنَّ الحائطَ يتشَرَّبُ الهُمُومَ التي طالما أنقضَتْ ظهري، فشعرتُ بخِفَّة تسري في جسدي المُنْهَك، فارتسمتْ ابتسامة وليدة على مُحَيَّايَ، واستبشرتُ بها خيرًا، وقلتُ في نفسي: لعلَّ الرجاء يأتي بخيرٍ..

- مالَكَ عبوسًا كمن فقدَ صاعًا من الليمون؟

التفتُّ إلى صاحب الصوت الذي تآكَلَتْ حروفُه من الكِبَر، وتكسَّرَتْ مخارجُهُ تحت مِطرقة السنين، فرأيتُ الحاجَّ «ياسين» ينظرُ إليَّ من خلف تجاعيدَ يَحَارُ علماء الجيولوجيا في معرفة طريقة تكوينها، وفي أيِّ حقبة زمنيَّة ترسبَّتْ تلك الخلايا، بعضها فوق بعض..

وتعجبْتُ من ملاحظته لعبوسي إذْ كنتُ أبتسم حينها، فإذا كان تبسُّمِي يبدو عبوسًا، فكيف يبدو عبوسي إذًا؟!! تعوَّذتُ بالله في خاطري، وعزمتُ أن أنظر في المرآة حال عبوسي وتبسُّمِي حتَّى أدركَ الفارق بيني في الحالتين، وقد خشيتُ أن يكون تبسُّمِي في وجه أخي إثمًا في تلك الحالة!!..

نفضتُ عن نفسي تلك الخواطر الهزليَّة، وتجاوزت إشارته إلى مصيبة الليمون الذي صار لا يقدر على شرائه إلَّا الموسرون وكبار المنتفعين، وقلتُ:

- قد علِمنا أنَّ «صلاح الدين» قال: كيف أضحك والقدس أسير؟ فكيف بنا والمُحَرَّرُ من بلادنا نذْرٌ يسير؟!!

تنهد الشيخ وتهادى حتى بَلَغَ حذائي، وأسند يده المرتعشة على الحائط وسقط إلى جانبي كجلمود عظمٍ حطَّهُ السيل.. ونظر إليَّ نظرة مِلؤُها اليأس

وقال:

- يابُنَيّ، لا ينبغي لك مثل هذا القنوط، فرحمة الله واسعة، وتلك مقادير الله يُجْرِيها كيف شاء، وما علينا إلَّا الرِّضَا بها والتسليم لهَا، ولنا في الله رجَاء..

- لا يا والدي، بل لا ينبغي لنا مثل هذا القعود عن نصرة الحق ورفع الظلم عن المظلومين والأخذ على أيدي الظالمين المتجبرين، وإنَّما **الرضا الذي ذكرتَ لا يكون إلَّا بعد الأخذ بالأسباب واستفراغ الوُسْع**.. أمَّا الرضا هكذا عن قعود فليس إلَّا ثَمَّ استسلامٌ وخذلانٌ ونكوصٌ..

أطرقَ الشيخُ برأسه إلى الأرض، فقد كان مدركًا كم كنتُ محِقًّا فيما نطقت به، فقد تربَّيْنا كما تَرَبَّى أسلافنا على الرضا بمقادير الله، خيرها وشرها، غير أنَّ مفهوم الرضَا قد تغير في تلك الأزمان المتأخرة، وانحرفت العقول عن إدراك حقيقته.. **وأمسى الرضا عذرًا يلهج بذِكْرِه كلُّ من جَبُنَ أو اسْتُضْعِفَ أو نكَص على عقبيه**.. أمسى الرضا سببًا للقعود ولحجز الألسنة عن قول الحقِّ وكفِّ الأيدي عن طلبه..

أمسينا نسمع كثيرًا في تلك الأزمان المتأخرة من ينصح أخاه إذا ما نزلت به مصيبة قائلًا: «قل: الحمد لله»، وكثيرًا ما يكون هذا الأخير المُبْتَلَى من

أهل التفريط والقعود، لم يأخذ يومًا بسببٍ ولا استحقَّ يومًا نُصْرَةً ومعِيَّةً، ثُمَّ تراهُ يلهج بأسَفٍ وتأثُّر «الحمد لله.. رضيت بقضائكَ يا ربِّي».. ولا يدري ذلك المسكين المخذول أنَّ هذا ليس مقام الرضَّا.. بل هو مقام التوبة وأخذ العبرة والعزم على الأخذ بالأسباب؛ حتى إذا كانت المقادير على غير ما يُحِبُّ المرء كان رضاه خالصًا وفي مَحِلِّهِ..

نظرتُ للشيخ «ياسين» الذي كان لا يزال مُطْرِقًا إلى الأرض، وقلت:

- نحن لم نأخذ بعدُ بالأسباب يا والدي، بل نزداد كلَّ يوم بُعْدًا عنها وتفريطًا، ويزداد الناس كلَّ يومٍ بعدًا عن السبيل المُوَصِّلَة إلى النجاة والخلاص.. وليس هذا مقام رضا.. هناك الكثير لنقوم به بعد.. قد يكون صعبًا وقد يظنه البعض مُحَالًا، غيرَ أنَّ **من يصدُقِ اللهَ يصْدُقْهُ**، ويهديه إلى تلك السبيل..



مَدَدٌ استثنـائيّ

كـان الأمـر عـسيرًا بالفعـل، ولـم يعُـدِ الأمـر علـى مـا كـان عليـه لقـرون متطاولة، بل أصبح العالمُ أكثر تعقيدًا، وأصبح غزوُهُ كما كان في السابق أمرًا مستحيلًا، في جميع المجالات.. فقد رُسِمَت الحدود بين الدول، ووُضِعَت الجيـوش لحمايـة تلـك الحـدود، ومُنِـعَ النـاس مـن التجـوال في أرض الله الواسـعة، وأصبـح كـلُّ شـيء يُبَـاع ويُشْتَرى.. حتَّـى الهـواء!! نعـم فإنَّـك إذا أرَدْتَ أن تتـنفس هـواءً نقيًّـا خاليًـا مـن الأدخنـة والغـازات الـسامَّة وعـوادم المركبات فعليك أن تبتاع قصرًا في مكـانٍ مَّـا بـآلاف الآلاف مـن الـدراهم أو الـدولارات، حتَّـى لا تـشارك الفقـراء والمستـضعفين الهـواءَ الفاسـد الـذي أدمنوا استنشاقه ونبذتْ رئاتُهم غيرَه..

أمـست - ولا نقـول أصـبحت؛ فالـصباح أمـلٌ ونحـن نقبـع في الظُّلمـة والظلمات- الدولُ دُولَ مؤسسات، لكلٍّ منها قوانينها وأعرافها، تسيطر كـلُّ مؤسـسة علـى الخلـق فيمـا تختصُّ بـه، فتلـك مؤسـسة أمنيـة تراقـب النـاس وتقيدهم وتُبقي رؤوسهم منكفأة على صدورهم مـن فـرط الـذلِّ والخـوف، ومن استشرفَ برأسه فقدَهُ، أو غُيِّبَ في ظُلُمَاتِ السِّجن، ليلاقي مـن صـنوف العـذاب مـا لـم يكُـنْ يتـصوره إلَّا في وَادٍ سـحيقٍ مـن وديـان جهـنَّم.. وتلـك مؤسسة اقتصادية يبذل القائمون عليها وسعهم في الإبقاء على جيوب الناس

خاوية، وعلى ملابسهم بالية، جوعى عرايا، لا يملكون من قوت يومهم إلا القليل، حتى يظلون هكذا يدورون حول أنفسهم كما يدور الثور في ساقية لا ترفع ماءً..

وتلك مؤسسة تجهيلية - تعليمية- تمارس إجرامها في القضاء على ما تبقَّى من إدراك الأجيال الصاعدة، التي لم تعُد بحالٍ واعدة، فتحشُوَ رؤوسَهم بما لا يفيد، وتُفَرِّغ مناهج التعليم من كلِّ ما ينفع في الدنيا والآخرة، فتخرج الأجيال من السجون التعليمية بعقول جامدة وأفهام راكدة وأخلاق فاسدة..

وهذه مؤسسة طبِيَّة، تحفظ الأمراض من الفناء، وتبقي عليها حيَّةً منتشرةً بين الناس، فكيف لنا أن نعيش بلا أمراض، هذا لا ينبغي لمثل من قضى الله عليه قضاءً مُبْرَمًا بالعيش في «مملكة العبيد».. تلك الأمراض التي لا آخر لها، ولا علاج لها، تحفظ تجارة خسيسة من الركود، تجارة العقاقير وتجارة الوهم.

وقُلْ مثلَ ذلك عن المؤسسة الدينية التي لا تألُوَ جهدًا في سبيل تشويه ديانة الخلق، وتعبيدهم لحُكَّامهم، وإضفاء قدسيَّة لا تجوز إلَّا لله على هؤلاء الحكَّام.. فتعمل تلك المؤسسة على إذكاء مفاهيم الإرجاء والقدريَّة

في نفوس الناس؛ حتى يظلوا راضين بالظلم والقهر والذل والتبعية.. في سبيل الله!!!.

ثُمَّ يأتي دور مؤسسة الأحكام والأعراف، التي تقضي بين الناس فيما هم فيه مختلفون، فتحكم بينهم بقوانين قد وُضِعَت على هوى أُنَاس يحسبون أنفسهم آلهة، يُشَرِّعون للناس من دون الله، وقد ظنُّوا بأنفسهم حكمةً ورُشدًا.. فيُحِلُّون ما حرَّم الله ويُحَرِّمون ما أحَلَّ الله، ضاربين بشِرعَتِه ومنهاجه عرض الحائط..

وجميع ما سبق يتم عرضه وفرضه على الخلق من خلال مؤسستين باقيتين، أولاهما مؤسسة السحرة، الذين يخرجون على الناس في وسائل الإعلام والتواصل، فيبولون ويتغوطون في عقول الناس الفارغة حتى يملؤونها بتلك التُّرَّاهات ويحملونها على الإيمان بتلك القناعات والمفاهيم الشيطانية، التي لا تزيدهم إلَّا فقرًا وقهرًا ومرضًا..

والمؤسسة الأخيرة والتي تدعم كلَّ تلك المؤسسات السابقة والتي تعمل على قصم ظهر كلَّ من رفض الاستكانة والاستعباد والخضوع لسطوة وسلطة تلك المؤسسات المجرمة، هي المؤسسة الأميرية، التي تضم جيشًا كبيرًا وأسلحة فتاكة لا تُوَجَّه إلَّا لصدور أبناء الأمَّة، وتحْمِلهم حملًا على

التبعية لكل مستشرق ومستغرب.. **فمن لم يَنْحَنِ ظهرُه ذُلًّا وخضوعًا وتسليمًا نتيجة إعمال أيٍّ من مؤسسات «مملكة العبيد»، أحنَتِ المؤسسة الأميرية رأسه ورأس أهله وقطعته..**

ولا تظُنَّنَّ أن القائمين على تلك المؤسسات إنَّما هم من الأشرار والخونة والمجرمين، بل هم جميعًا بدءًا من رأس النظام إلى ذيله من أهل الفضل والصلاح والديانة.. أو هكذا تصفهم المؤسسة الدينية وتوكد عليها مؤسسة السحرة!!!.

كانت تلك هي معادلة القوى في «مملكة العبيد»، وهذا هو حال النظام والقائمين عليه، وذاك هو حال أهل البلاد من العامَّة والأتباع.. مثل هذه الحال الاستثنائيَّة يلزمها حلول استثنائيَّة كذلك.. فليس ثَمَّة أذرع اقتصادية أو تعليمية أو دينية أو إعلامية أو أميرية باستطاعتها أن تواجه كلَّ هذا القدر من الضَّلال..

لا بدَّ من استحداث أو استقدام حلٍّ جديد.. من خارج الصندوق.. أو ربَّمَا من خارج عالم البشر...



يعُوذون برِجال مِن الجِنِّ

فقدتُ الشيخَ «ياسين» لعدَّة أيام بعد لقائي إيَاه بجُمْعَتَيْن، فعرَّجْتُ على داره بعد صلاة العشاء لأطمئنَّ عليه، وطرقتُ بابه ذا الخشب المتهالك الذي سقط طلاؤه منذ عقود.. وسمعتُ حفيفه يقترب وكأنَّه حيَّة تسعى..

- أنا قادم.. من بالباب؟

- إنَّه أنا يا والدي.. «نضال بن أحمد الكيَّال».

فُتِحَ الباب، ورأيتُه قائمًا خلفه ينظر إليَّ بقَدِّهِ الأحدب وقد حجب النورُ القادمُ من خلفه ملامحَ وجهه عني.. فبدا جسدًا مظلمًا أسود يرتدي معطفًا قاتمًا.. فتذكرتُ كيف كان يبدو مصاصو الدماء في الأفلام الرخيصة.. أجفلتُ لوهلة، وقُلْتُ في نفسي كم يبلغ هذا الرجل من العمر، إنَّني أعرفه منذ أكثر من ثلاثين عامًا وهو على تلك الحال وذلك الوصف منذئذ، أتُرَاهُ يستطيع أن ينقضَّ عليَّ وينشب أنيابه في رقبتي ليمتصَّ جالونًا أو أكثر من دَمِي؟!! انتزعني صوته من أفكاري الدموية، وقال:

- تفضَّل يا ولدي.. ادخل.. إنَّنِي أعيش وحيدًا كثعبان عجوز كما تعلم..

عليك اللعنة أيها الشيخ الحبيب.. أتَتَقَصَّدُ إخافتي.. أم أنَّنِي من يتلمس مواطن الظلام والرهبة في كلِّ ظِلٍّ يَمُرُّ بي؟!!..

- كيف حالك يا والدي؟ فقدتكَ أيامًا، فقلت لأطمئن عليك.

- بارك الله فيك.. أنا بخير والحمد لله.. ليس بي بأس كما ترى.

- إذًا، ففيمَ كانت غيبتك؟ عسى أن يكون خيرًا قد حجزك عن صحبتنا.

- سافرتُ إلى بلدتي لأطمئن على أقارب لي، كانوا هم آخر من تمَّ طردهم من ديارهم إلى حدود البلدة القصوى مما يلي الجبل.

- وفيمَ كان ذلك؟

- بلدتنا كما تعلم هي بلدة صغيرة ذات جوٍّ ساحر أخَّاذ، وموقعها رائع على نهر الحياة، فأبَى الظَّلَمَةُ القائمون على شؤون البلاد إلَّا أن يغصبوها من أهلها، فقاموا ببناء عدة دور كئيبة المنظر، تجلب على ساكنيها البلاء والمرض والسخط على أطراف البلدة تحت سفح الجبل؛ توطئةً لطردهم من ديارهم وأموالهم؛ ليقيموا مكان الديار دورًا وقصورًا لأبنائهم وأزواجهم وأهليهم.

- ألا لعنة الله على القوم الظالمين.. وكيف هو حال أهلنا في دارهم الجديدة؟

- تركتُهم يصِلُون الأرض بالسماء بالدعاء على الطغاة وأعوانهم، ولا يملكون من أسباب النصر إلا ذاك.. وإنَّك لتعجب أن جميع من أُخْرِجُوا من ديارهم وأموالهم إنما هم من أهل الديانة والنقاء.. ولم يبق في محِلِّه القديم

من أهل البلدة إلَّا الأشقياء والسارقون ممن أعانوا النظام الفاسد على السيطرة على حقوق الناس.. وهم من سيتولون حماية الدور والقصور الجديدة ببلطجتهم وإجرامهم المعهود من بَعد.

تنهَدْتُ أسفًا وأطرقتُ حزنًا وقلتُ:

– هكذا هو الحال في جميع ديار أهل الإيمان.. إنَّ لسان حال أهل الشرِّ يقول: أخرجوهم من قريتكم إنَّهم أُنَاسٌ يتطهَرون!!.

نهض العجوز ليقوم بواجب الضيافة، فاستوقفته بإشارة من يدي، وقلتُ:

– لا داعي يا والدي، إنَّما جئتُ لأطمئنَ عليك ولأسألك عن أمرٍ مَّا، عسى أن يكون لديك منه علم.

– سَلْ عمَّا بدَا لَك يَا ولدي.

– ماذا تعرف عن طلب العون من الجنِّ؟ أجائزٌ هو في شريعتنا كما كان على عهد نبيِّ الله «سليمان» عليه السلام؟

اتَّسعتْ عينا العجوز وضاقتا في ذات اللحظة، ولا أدري كيف كان ذلك، في محاولة منه للتأكد مما سمعه للتوِّ، وقد بدا مظهره عجيبًا؛ إذ زادت التجاعيد في وجهه كثرة ووعورة، حتى أمسى الأنف والشفتان من التضاريس الخفيَّة في وجهه، وكأنَّه أجاب بتلك التضاريس على سؤالي بأنَّهُ

أحد عوامر الجنِّ الذين يسكنون بيننا، وأنَّه ما عليَّ إلَّا أن أسأله العون!!.

– جمهور العلماء يا ولدي على منع ذلك، وفيه تشديد ووعيد، ولا يأتي ذلك بخير، بل جُلُّه شرٌّ، وفيه إثم عظيم.

– ولكن لا إجماع بين أهل العلم في تلك المسألة يا والدي، فقد قضيتُ وقتًا طويلًا أبحث عن أقوال العلماء على مرِّ العصور فما رأيتُ من يزعم الإجماع على تحريم وتجريم مثل ذلك.

– أوليسَ قول الجمهور يكفيك؟ أإذا لم يكن هناك إجماعٌ حول أمرٍ مَّا سوَّغْتَ لنفسك الخروج عن قول الجمهور من أهل العلم والديانة في الأمة؟!.

– أستغفر الله، ليس الأمر كذلك يا والدي بالطبع، وإنَّما إذا كان الأمر محلُّ خلاف، والحال كما ترى في أمتنا اليوم، وأحوال الضرورة قد دهمتنا من كل اتجاه، وأمسى الناس يأتون الكثير من المحظورات الثابتة تحت وطأة الضرورات المتعاقبة، فلا بأس إذًا في الإتيان بمحظور مظنون لا إجماع فيه..

تنهَّدَ الشيخ في ملل؛ فهو يدري أنَّهُ لن يخْلُص من الجدال معي، فإنَّ الأحوال الاستثنائيَّة التي تمرُّ بها أمتنا اليوم لم تترك مجالًا عقلانيًّا وسبيلًا منطقيًّا للخلاص مما تعانيه ويعانيه المنتسبون إليها، فقد سبق للكثيرين من

المجاهدين والمناضلين الوقوف في وجه تلك الأنظمة الفاسدة العميلة في أكثر من بلد من بلاد أمتنا، وتنوعت وسائل مقاومتهم، واختلفت طرائقهم، ولم يظفروا بشيء.. حاول الكثيرون من أهل العلم والدعاة أن يستنهضوا الناس لحماية بلادهم ومقدَّراتهم ودينهم من الهجمات الغاشمة التي تشنها السلطات العميلة في مختلف بلاد المؤمنين، ولكن ما أيسر تكميم الأفواه اليوم.. أين هؤلاء الدعاة؟!! لا أحد يدري.. أيزالون على قيد الحياة أم غيَّبَتْهُم الحُفَرُ في صحاري قصِيَّة، أم أنَّ أجسادهم تُرِكَت لتقتاتَ عليها السباع والضواري..

حاولَتْ جماعاتٌ ممن سبَقَ منابذة الطغاة بالقوة، ولكن هيهات، هؤلاء طائفة مؤمنة لا تمتلك من وسائل النصر العينية الماديِّة شيئًا يُذْكَر.. يواجهون بأيديهم الخاوية وصدورهم العارية جحافل من جنود الأنظمة المدججة بالأسلحة الخفيفة والثقيلة والظاهرة والخفية.. وهؤلاء الأخيرون لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمَّة.. فهم لا يتورعون عن دكِّ المدائن على رؤوس ساكنيها من أجل القضاء على أيَّة بادرة للتحرير..

آخرون من أهل الديانة والغيرة حاولوا الدخول تحت عباءة تلك الأنظمة سرًّا، ومن ثَمَّ الانقلاب عليها، ولكن ما بال تلك الوسيلة لا تُفْلِحُ أبدًا ولا تؤتي أُكُلَها..إنَّما تصلحُ في عملية محدودة التأثير، محدودة

الإمكانات، محدودة الآمال والطموحات.. أمَّا من أجل إحقاق الحقِّ ونصرة أهله وإبطال الباطل ومحق أهله، فلم يكن لها ثَمَّ أثر يُذْكَر؛ **فإنَّ المعركة الفاصلة بين أهل الحق وأهل الباطل لا ينبغي أن تقوم إلَّا في ساحة كاشفة، يُعْرَفُ فيها أهل الحقِّ بحقِّهِم كما يُعْرَفُ فيها أهل الباطل بباطلهم.**

ثُمَّ قام آخرون بمشاركة الأنظمة العميلة في نشاطاتهم وممارساتهم السياسية؛ عسى أن يتمكنوا يومًا من الارتقاء في مراكز القوة حتَّى يصلوا إلى رأس النظام، ومن ثَمَّ يبدأون عملية التغيير السلمِيِّ الناعم، بأقلِّ كُلْفَة ممكنة، هكذَا من غير دفع ثمنٍ ولا حمل سلاحٍ ولا قول حقٍّ ولا هدايةٍ وتبصيرٍ للخلقِ!!!.

والحقُّ أنَّ مجموعات من تلك الأخيرة قد نجحت في كثير مما خطَّطَت إليه في كثير من بلدان الأمة، وقد تحقَّق لها ما أرادت بعد جهود كبيرة انقَضَتْ فيها أعمارٌ وقَضَت فيها أجيالٌ.. غير أنَّ الحال التِّي انتهوا إليها كانت على غير الحال التي بدأوا بها، ولم تكن أجيالهم الأخيرة كتلك الأولى.. فقد كانت رموزهم وأفرادهم الأُوَل من ذوي الاستقامة والإخلاص والتضحية، خاضوا معارك شتَّى في غير ساحة، كانت رسالتهم واضحة لا غبار عليها.. ولكن تبدَّلت الأحوال مع تعاقب السنين.. فأصابهم الوهن ونكصوا عن السبيل وودُّوا أنَّ غير ذات الشوكة تكون لهم..

فخرجت من تحت عباءتهم أجيال تقبل وجودَ الباطل وتتعايش معه وتتصل به، واختفت دعوة الحق في تنظيراتهم، ولم يبقَ من دعوتهم الأولى غير شعارات فارغة لا حقيقة لها.. حتى أصبحوا في نظر كثير من الناس مجرد مجموعة انتهازية منافقة يقولون ما لا يفعلون!!.

وفي يوم من الأيام خرجت جموع الشباب غاضبة في شوارع وميادين «مملكة العبيد» تبحث عن كرامتها المفقودة وعزتها التي سلبهم إيَّاها المجرمون وأبدلوهم بها ذلًّا ومهانة وضيق حال.. لم يتحقق للشباب الذين نفضوا عن أنفسهم غبار المذلة ما أرادوه حقًّا؛ فلم تزل «مملكة العبيد» ملأى عن آخرها بالعبيد، وهؤلاء لا يستحقون نعمة الكرامة والعزة والحريَّة لمجرد تضحية بضعة آلاف من الشباب بأرواحهم، بينما يجلس العبيد في دورهم وداخل حيطان منازلهم في خشوع ورهبة وخوف من انقطاع السبل والأرزاق من جرَّاء هذه الثورة التي اندلعت في سبيل البحث عن الحريَّة والكرامة.. ألا فلتتنزَّلُ لعنات الله على الحرية والكرامة إذا ما نقص من خبزنا مقدار قمحة مسرطِنة!!!.

ولكن على كلِّ حال فقد اضطربت الأحوال قليلًا في «مملكة العبيد»، واستطاعت أحد تلك الجماعات التي لم تكن نهاياتها كبداياتها الوصولَ إلى سدَّةِ الحكم في البلاد، وأخذت تمارس ما تُحْسِن من عملية الإصلاح

الترقيعيّ في ثوبٍ بالَتْ عليه الشياطين، وأصبح يكشف أكثر مما يستر.. غير أنَّ حجم الفساد في خاصَّة الناس كبير لا يصلح معه ترقيع، وحجم العبودية لغير الله في العامَّة كثير فلا يستحقون معه أن تتبدَّل بهم الأحوال إلى خيرٍ مما هي عليه..

لذا، فما لبثت الشياطين أن تغلَّبَت واستعادت ما سُلِبَتْهُ بالأمس، وأخذت بمقاليد الأمور في البلاد مجدَّدًا، وصيَّرَتْهَا إلى اسوأ مما كانت عليه، وأحكمت قبضتها على البلاد، وازداد القمع والقتل والسجن والاختطاف لكلِّ من تسول له نفسُه رفعَ رأسه، وقَدَّمَت عامَّةُ العبيد فروضَ الولاء والطاعة لسيدهم الجديد، وعبدوه كما عبدوا سابقيه إلى أوَّل عهدهم بأنظمة الحكم.

نعم.. قد حاول الكثيرون ممن كانوا قبلي، ولم يُفْلِح منهم أحدٌ، وطالما أنَّ حال البلاد والعباد إنَّمَا هي حال استثنائيَّة فلا بدَّ وأن يكون الحلُّ والخلاص استثنائيًّا كذلك.. أيحِلُّ للمرء أن يأكلَ لحم الميْتَةِ لكي ينقذ روحه التي بين جنبيه من الهلاك ولا ينبغي له أن يستعين إخوانَه من الجنِّ المؤمن لإنقاذ أُمَّتَه من التردِّي في ظلمات العبودية والتبعية والهوان؟!!!!.

إنْ كان ثَمَّ أحد يحسِبُ أنَّ هذا الحل إنَّمَا يُعَدُّ مجنونًا أو غريبًا أو حالمًا

أو سوداويًّا أو مرعبًا أو يائسًا، فلن يكون قطُّ أكثر جنونًا أو غرابة أو كابوسيّةً أو سوداويَّةً أو رعبًا أو يأسًا من تلك الأيَّام القاتمة التي يعيشها المؤمنون في أمتنا اليوم..

وعلى كلٍّ فلا بدَّ وأن يطرِقَ أحدٌ مَّا هذا الباب.. فإذا جاء بالفرج فبِهَا ونِعْمَت.. وإن كانت الأخرى فإنَّ الأُمة لم تخسر إذًا من رصيدها المكنوز شيئًا، من العزة والمهانة على السواء.. فقط عبدٌ آخر في «مملكة العبيد» لم تستطع شمس الغد أن تَطِأَهُ بأشعتها المُهْلِكَة..



دَعْ عنك أمر العامَّة.. فإنَّ من ورائكم أيَّام الصبر

- إنَّه أحد أولياء الله.. أحد الأتقياء الأنقياء الأخفياء.. رجل مباركٌ وعبد صالح.. إنَّه عارفٌ بالله بحق..

خرجت بنا سيارة الأجرة عن الطريق السريع المُعَبَّد - إلى حين حتى يقرر القائمون على النظام حاجته إلى إعادة ترميمه لنهب «سبوبة» جديدة من حقوق الشعب- وبدأت عجلاتها تدور على طريق ترابيٍّ لم ولن يُعَبَّدَ قطُّ، مُتَّجِهةً إلى أطراف قرية الشيخ «ياسين» مما يلي الجبل..

- تعرفُ يا حاج «ياسين» أنني أُبْغِض الدراويش، المنقطعين عن عالم الأسباب، الذين يعلقون قلوبهم وعقولهم وما لمُرِيدِهم بعالم آخر من التخاريف والإرجاء.. وأنا لم أرَ قطُّ أحدًا قد وُصِفَ بأنَّه عارف لله إلَّا وكان من هذا الصنف الخبيث.. الذين يتدثرون برداءٍ بالٍ من الصوفية الكاذبة.. وإنَّما هم أحذية للرافضة والقدرية والمرجئة اعتقادًا.. وأحذية للأنظمة المجرمة التي تحكم بلدان الأمة اليوم سياسةً، وأحذية تُمْلَأُ إلى كعوبها ونعالها مالًا، إغداقًا من المريدين الجاهلين الذين يلتمسون عندهم الوسيلة ويزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله زُلفَى..

- أعرفُ ما تقصِدُ.. اطمئنْ.. ليس هو من هؤلاء.. إنَّما هو من أهل

العلم والعدل.. وسترى بنفسك.. هانَت.

بدأت الطريق تزداد وعورة، وأخذت السيارة تتقافز كالمجنونة، وكأننا في ملاهٍ..

- توقَّفْ هنا يا أخي.. سنكمل الطريق راجلين من هنا..

ترجَّلْنَا من السيارة التي غادرت مسرعةً حتى غابت عن أنظارنا.. لمْ يحرك أحدٌ منا ساكنًا لدقائق.. حاول كلانا خلالها أن يستعيد قدرته على التحكم في أطرافه مجددًا، بعد أن استقل كلُّ عضو من أجسادنا بنفسه وبدأ في الاعتماد على ذاته.. حتى نجحنا في إقناع تلك الأطراف والأعضاء أنها لا تزال جسدًا واحدًا لا يصلح أن يستقلَّ أحدٌ منهم بنفسه، وإلَّا عانت الأمَّة - أعني الجسد- من الاضطراب والتمزُّق والتشرذم والضعف.

- هيا بنا يا ولدي.. من هنا.

بدأ العجوز يتهادى ميممًا وجهه شطر المجهول.. وقد استدْبَرْنا مجموعة من المنازل التي تبعُدُ عنا بضع مئات من الأمتار.. كانت تلك هي المنازل التي خصصها النظام لأولئك الذين أُخْرِجُوا من ديارهم وأموالهم.. وكما هي العادة فقد صُمِّمَتْ لتكون مميزة في شكلها وتنسيقها عمَّا يُمْكِن أن يكون حولها، فبإمكانك أن تعرفَ البيوت الشَّعبِية من بين آلاف المنشآت

والمباني.. فإنَّ أول ما تختبره حالَ رؤيتها هو انقباض في الصدر.. تَحَارُ في البحث عن سبب له، ثُمَّ إنَّك إذا نظرتَ لم ترَ عينُك ثَمَّ مظهر من مظاهر الجمال أو الإبداع في تلك الأبنية، مجرد صناديق صامتة كأنَّها توابيت، تخلو من البهرجة والزخرفة.. بل والحياة.

- ألا يقطنُ هذا الوليُّ مع من طُرِدَ من بيته في تلك المنازل الشَّعبِية؟

- لا يا ولدي.. لقد ترك الشيخ «عياض بن مالك» صحبة الخلق من قديم.. فلم يعُدْ يخالط أحدًا بعد أن غلبت على أكثر الناس شَقْوَتُهم.. فتخَيَّر لنفسه ملجأً في الجبل يأوي إليه.

- ولِمَ ترك دعوةَ الناس إلى الحقِّ حتى صاروا إلى ما نرى؟ أَلَمْ يكن من الأولَى له أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر معذرةً إلى الله؟ أليس هذا هو دور علمائنا؟

نظر الشيخ نحوي نظرة ملؤها اللوم والعَجَب، وقد امتزجا، فعرفتُ في وجهه الإنكارَ، ثُمَّ قالَ:

- كأنَّك لست أنتَ الذي تحدثُني.. منذ متى رأيتَ الناس تستجيبُ لدعوات الحقِ.. فوالذي نفسي بيده لو أنَّ من بينهم من يستجيب لدعوة الحق حدَّ الكفاية لكانَ ذهابُك إلى إمامنا لطلب عون الجنِّ منه باطلًا

واعتداءً وكفرًا بعالم الأسباب.

أطرقتُ آسفًا.. فلَكَمْ وددت لو أنَّ الناس استجابت لتلك الدعوات الصادقات.. ولا أنها ألجأتنا لمثل هذا التطرف في طلب النصر.. ولكن الغشاوة التي ختم الله بها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم أشدُّ كثافة من أن تُزَال بدعوات رقيقة مجردة عن القوة والإرغام.. فقد كثُر الخَبَثُ في النفوس وتملَّكَ الكِبْرُ من القلوب والعقول وأمسى كلُّ أحدٍ - حقيرًا كان أو عظيمًا- معجبًا برأيه مُعَظِّمًا له، مُحَقِّرًا لرأي غيره وإن قال «قال الله وقال رسوله».. فلم يكن من أكثر أهل العلم والتقوى إلَّا أن وَدَعُوا عنهم أمر العامَّة.. فإنَّنا وإيَّاهم في أيام الصبر..



أصحاب الكهف

بعد مسيرة كذا وكذا وصنا إلى الجانب الشرقي من الجبل من الجهة التي لا تُشْرِفُ على البيوت الشَّعبِية، حيثُ لا دليل على وجود حياة مَّا، جبل مرتفع شديد الانحدار، ومن أمامه صحراء صفراء تسرُّ الناظرين ممن يبحثون عن عالم من العُزْلةِ والانقطاع عن عالم البشر، تنبت فيها بعض الشجيرات والأعشاب المتفرقة المُبَعْثَرة هنا وهناك..

كان المشهدُ آسِرًا على الرغم من قسوته وخُلُوِّه من علامات الأُنْسِ التي قد يأنس بها من ينتمي إلى عالم الإنسِ.. ولكنَّني تذكرتُ كيف يمكن أن يكون خير مال الرجل غنمٌ يتبع بها شَعَفَ الجبال ومواقع القطر.. يفِرُّ بدينه من الفِتَن..

- لا تُطِلِ الوقوف.. فالصحراءُ ليست لِسُكْنَى الإنسِ.. لا يُصِيبَنَّك من أهلِها أذًى..

انتزعني قول الشيخ «ياسين» من شرودي الطويل، وقد سَرَت قشعريرة باردة في جسدي المُنْهَك.. فالتفتُّ إليه عائدًا، وتبعتُه وهو يرتقي كثيبًا رمليًّا مرتفعًا يؤدِّي إلى سفح الجبل.. وبعد أن وصلنَا إلى أعلى الكثيب رأينا فتحة في الجبل لا تُرَى إلَّا بعد ارتقاء ذلك المُرْتَفَع الرَّملِيّ.. فأوجستُ في نفسي

خيفةً، وتمهَّلْتُ لأرى ما يصنعُ الشيخ «ياسين»، أيَدْلُفُ إلى داخلِ الكهف مباشرةً أم يرفع عقيرته بالنداء على «شيءٍ» ما، أم يمدُّ يده لجرسٍ خفيٍّ في جدار الكهف ليطلب الإذن في الدخول؟!!.

دخل الشيخ «ياسين» بقدمه اليمنى مسمِّيًا، فتبعته مستعيذًا، وبعد بضع خطوات رفع صوته:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. هل أنت بالداخل سيدي الإمام؟

انتظرتُ والشيخ «ياسين» بُرهةً حتى نظر إليَّ نظرةً خاوية من التعابير.. فلا ندري ما قد نستقبل بالداخل.. حتى خَشِيَ وخشيتُ أن يكون الشيخ «عياض» قد قَضى منذ زمنٍ لا يدري أحدٌ متى كانَ.. غير أنَّنا لم نلبَثْ غير بعيد حتى سمعنا صوتًا يُجِيبُ من الداخل:

- وعليكم السلام والرحمة.. فلتتفضل بالدخول أخي الكريم..

سَرَتْ في جسدي على إثْرِ هذا الصوت قشعريرة شديدة لمْ يسبق لي أن اختبرتَها قطُّ، حتى في أكثر أقبية الأمن الملكي الداخلي إجرامًا حينما كانوا يصِلون الأقطاب الكهربائيَّة إلى جسدي وأجساد إخواننا من المناضلين، فلا يُنْجِينَا من أيدي الزبانية إلَّا انقطاع التيار الكهربائي، ولا أحسَبُهُ كان ينقطع إلَّا من فَرْط إحساس هذا التيار بالظلم الذي نتعرَّضُ له والإثم الذي يتلبَّثُ

به من جرَّاء تعذيبنا..

تتبَّعْنا أَثَرَ الصوت العميق الذي جاءنا من الداخل وكأنَّه آتٍ من وادٍ سحيق، أوْ كأنَّه خرج من فَمِ ماردٍ إلى بوقٍ من قرنِ شيطانٍ مريدٍ.. لم يكنْ هناك ما يثير الدهشة أو الفزع في الكهف.. فقد كان كهفًا عاديًا كأيِّ كهف قد تدخله في حياتك.. جدرانٌ صخرية صماء ذات نتوءات حجرية صغيرة.. سقفٌ غير مرتفع ولا تتدلى منه أيُّ شوكات صخرية أو وطاويط شرسة تتحيَن الفرصة تلو الأخرى لتُنْشِبَ أنيابها في رقاب الداخلين من السُّذَّجِ الأغرار، وتُطْبِقَ أجنحتها الجلدية المرعبة على أعيُنهم لتحرمهم نعمة البصر في لحظاتٍ قد تكون الأخيرة في حياة ما قبل البرزخ..

لا.. لمْ يكُنْ ثَمَّ شيء من هذا.. فقط كان كهفًا عاديًا مثل الكهف الذي قد تجده في الجبل المجاور لمنزلك..

انتهى بنا الكهف بعد ممر غير طويل إلى حجرتين، واحدة رئيسية إلى جهة اليمين، وأخرى صغيرة وكأنها حفرة في الجدار إلى جهة اليسار.. أدَرْتُ نظري في تلك التي إلى يمين الداخل - على فرضِ أنَّ أحدًا قد دخلَ قبلَنا قطُّ- فوجدتُها غرفة بسيطة، بها القليل من الأغراض، أريكة تستند إلى الحائط الأيمنِ، عليها بعض الأسمال البالية لِتَقِيَ الجالس فوقها قسوة

الخشب، وإنْ كان الساكن بمثل هذا الكهف لا يبالي من كثرة ما تعَوَّدَ عليه من قسوة الصخر.. ويقع أسفل الجدار الأيسر فراشٌ بسيط لا يزيدُ رفاهيةً عن ذلك الذي يغطي الأريكة..

كانت الحجرة مُضَاءةً بواسطة مصباحٍ زيتيٍّ مُعَلَّقٍ في صدر الكهف، في أعلى مُنتَصف الجدار المُواجه لمن يدخل الحجرة، وكانت شعلته تتراقص يَمْنَةً ويَسْرَةً تحت تأثير نسماتٍ خفيفة خفِيَّةٍ لا أدري من أين تأتي وإلى أين تذهب.. وقد تراقَصَتْ على جدران الحجرة الصخرية من الداخل خيالاتٌ وظلالٌ لأجسامٍ غير مرئيَّةٍ لا تكفي تلك النار المشتعلة لتكوينها إذا لم تتمثَّلْ أمامها مُعْتَرِضَةً أشعتها الحمراء.. ويقع أسفل ذلك المصباح الزيتي مكتبة نحاسية عتيقة كتلك التي توجد في المساجد الكبرى.. لم تكن تلك المكتبة كبيرة.. ولكنها حَوَتْ الكثير من الكتب التي اعتنى صاحبها بترتيبها جيِّدًا والحفاظ عليها نظيفةً من الأتربة وعوامل التآكل..

دَلَفْتُ إلى الحجرة وقد سبقني الشيخ «ياسين»، فمضيتُ إلى المكتبة لأتبيَّنَ ماهِيَّةَ الكتب التي يحتفظ بها الشيخ «عياض»، بعدما لم أجِدْ ما يستأهل إطالةَ النظر والتفكر في الغرفة، ما عدا تلك الأطياف الراقصة على الجدران هنا وهناك.. تَرَبَّعَ على رأس تلك الكُتُب نسخة عجيبة من القرآن الكريم.. كانت مطبوعةً في ورق من القطْعِ الكبير، ولكن حروفَه لم تكن

منقوطة ولا مشكولة، ولم تكن طباعته أشبه بتلك التي نراها في نُسَخ المصحف الشريف الأخرى أو في أي كتابٍ آخر.. بل كانت وكأنها كُتِبَت بخطِّ اليدِ، بحِبْرٍ أسودَ فيه حُمْرَةٌ، وكان الورقُ مُصْفَرًّا من فَرْطِ القِدَمِ وكثرة التعاهُدِ..

ثُمَّ استقرَّتْ فيما دون ذلك من رفوف نُسَخٌ قديمة لصحيحيّ البخاري ومسلم وعدد من كتب السُّنَن والتفاسير، يعود تاريخ طباعة أكثرها إلى ما يزيد على مائة عامٍ في أحد مطابعِ الشَّامِ..

هَمَمْتُ بتناول تلك النسخة العجيبة للقرآن الكريم لأتصفَّحَها، إلَّا أنَّ صوتًا من خلفِي استوقَفَنِي قائِلًا:

- لا تفعلْ.. لن تَوَدَّ أنْ تفعلَ ذلك.

التفَتُّ إلى مصدر الصوت لأرى رجلًا جسيمًا، مستقيم القَدِّ، تبدو عليه أمارات القوَّة، على الرغم من أعوام عمره التي جاوزت الثمانين.. كان يرتدي جلبابًا أبيضَ نظيفًا لم يعلَقْ به شيءٌ من الأتربة التي تملأ كل أركان الكهف، وعلى رأسه قَلَنسُوة بيضاء كذلك.. كانت له لحيةٌ بيضاء نقيَّة، تملأ ما بين جنبيه، لم تكُنْ بَطْنُهُ عظيمةً تَسْبِقُهُ بأميالٍ أينما يَمَّمَ وجهَه كما اعتَدْتُ أن أرى بطونَ «العارفين بالله».. وأنَّى لرجُلٍ مثله يعيش في كهف مُنْعَزِلٍ أن

يربِّيَ أحدَ تلك البطون العظيمة التي يربيها هؤلاء «العارفون بالله» كما يُرَبِّي أحدُنَا فَلُوَّهُ، الذين يتمرَّغُون كما تَمَرَّغُ الدابة بعد كل وجبة دسمة من «الفتَّةِ واللحم»..

استقبل الشيخُ «عياض» رفيقَ دربه القديم بحفاوة كبيرة، وعانقا بعضهما بعضًا لفترة طويلة، أزالا فيها كل ما حالَ بينهما طوال تلك السنوات من الفراق والبعد.. ثُمَّ استدار إليَّ قائلًا بلهجة فيها شيءٌ من اللُّطفِ والترحيب:

- كيف حالك يا بُنَيَّ؟

- الحمدُ لله يا والدي، بخير حالٍ.

أجلسَنا الشيخُ على الأريكة المتهالكة.. ولم يعتَذِر قطُّ عن بساطة مسكنه كما اعتدنا نحن أن نفعل حين يأتينا أضيافٌ لم نكُن ننتظرُهم؛ فمنْ لمْ يُوَطِّنْ نفسه قَبْلًا على بساطة حياة من يعيش وحيدًا في كهفٍ مُنْعزل، لا يخلو من سوء أدَبٍ وسذاجة فكر على كلِّ حال..

ظلَّ الشيخان يتحادثان فيما بينهما لنصف ساعة وأنا أتفرَّس في ملامح الشيخ «عياض» الذي بدا هادئًا ومسالمًا ومتصالحًا مع كلِّ شيءٍ حوله، على الرغم من هيئته القوية وحياته القاسية ووحدته الدائمة.. ولعل تلك

الوداعة وذلك البِشر الباديَ على وجهه هو أحد آثار العلـم والمعرفـة الحقَّـة بالله، والرضا بأقداره وقضائه النافذ.. فإنَّ العادة قد جَرَتْ على أنَّ من اعتزل الناس زاد قلبهُ قسوة، وزاد هو جفوة وغلظة..

- هـذا الفتـى الهُمـام أراد أن يجـوزَ القنطـرة بيننـا وبـين الأطيـاف طلبًـا للنصرة والعون..

قالها الشيخ «ياسين» وهو ينظرُ إليَّ في شفقة، بينما ارتسمَتْ على شـفتيّ الشيخ «عياض» ابتسامة هادئة، ولـمْ يَبْدُ عليه التأثُرُ أو الدهشة بعد أن أفصحَ الشيخُ «ياسين» عن مرامينا من تلك الزيارة.

قال الـشيخ «عيـاض» في هـدوء، ومـن غيـر أن تـزول تلـك الابتـسامة عـن شفتيه:

- وما الذي تظنُّهُ يدفعُكَ إلى مثل تلك السبُل لطلبِ النُّصْرَة؟

أخذتُ نفسًا عميقًـا، وشـرعْتُ في التنظيـر لمـا أراه واقعًـا وحـالًا بالأمـة، ورُحْتُ أعرِضُ طُرُقَ النجاة وما يعوقها، وما خَلُصْتُ إليه في بحثي عن طلبِ العـون مـن إخواننـا مـن الجـنِّ المـؤمن وخـلاف العلمـاء في ذلـك، وإن كـان الجمهور على المنع...

كنتُ قد رتَّبْتُ لهذا اللقاء كثيرًا، وأعـدَدْتُ لـه عُدَّتَـه، فاسـتفرغتُ الوُسـع

قَبْلًا في البحث والتدقيق والتحرير، ورتَّبْتُ الكلمات والجُمَلَ وأضْفَيْتُ عليها رونَقًا بلاغيًّا، في محاولة يائسة منِّي لجعل ما يلهجُ به لساني ذا منطقٍ مقبول بأسلوب مُقْنِعٍ ذي سطوةٍ على العقل والقلب.. وأعَدْتُ تلك المقالة في رأسي مِرَارًا، حتَّى حفظتُها عن ظهر قلبٍ.. وها أنا ذا قد أدَّيْتُها كما حفظتُها، أو هكذا حَسِبْتُ..

لمْ يَبْدُ ثَمَّ أثرٌ لكلماتي تلك على وجه الرجل، فلمْ يزَلْ مُذْ بدأتُ في الحديث ينظرُ بتفَرُّسٍ في وجهي، ولا تفارق وجهَهُ تلك الابتسامةُ الهادئة، التي كاد هدوئي معها أن يزول..

ساد الصمتُ برهةً بعد أن انتهيتُ، حتى قطعه الشيخ «ياسين» بقوله وهو ينظر إلى الشيخ «عياض»:

- ها، ما قولُك سيدي فيما سمعتَ؟

- أرى أنَّ الأمر قد تملَّكَكَ يا بُنَي، ولكن عليكَ أن تحسم أمرَك، فتلك الطريق لمْ يرجِعْ منها أحدٌ..

- وهل سألَكَ أحدٌ مثلَ هذا من قبل؟

- هُمْ كُثُر.. ولا تحسِبْ أنني سأساعدك لأنني أوافقك.. فأنا على يقينٍ ممَّا أنتَ مُقْبل عليه، وأنا على رأي الجمهور.. فمن أنا لكي أنفرد دونهم بقول شاذٍّ أو فتوَى مبتورةٍ..

تجاوزت تلميحَه بعدم قبوله لما ذهَبتُ إليه، وسألتُهُ متلهفًا:

- إذًا لا بدَّ من سبب قويٍّ يجعلك تساعدني في ذلك..

- نعم.. إنَّ جوازَ القنطرة إلى العالم الآخر لا يُوَطِّنُ المرءُ عليه نفسَه إلَّا تمَلَّكَتْه الفكرةُ وذهبَتْ برُشْدِه، ولا يزالُ عليها مُقِيمًا يطلُبُها بالحقِّ والباطل حتَّى يُوَاقعَها.. ولا يكادُ أحدٌ يطلبها بحقِّهَا أو يُصَيِّرُها إلى ما به تصيرُ حقًّا.. وأنا إلَّمْ أَجِبْكَ إيَّاهَا بالحقِّ سألتَها بالباطلِ.. فتهلِك في الدنيا والآخرة، وإنْ أجبتُكَ إيَّاها بالحقِّ هَلَكتَ في الدنيا دون الآخرة..

سَرَتْ قُشعريرة باردةٌ في جسدي حتى ظننتُ أنَّهما رَأيَا ذلك الفزع الذي تملكني، وشعرا بتلك الرعشة التي انتفض كياني لها.. فما معنى أنني سأفقد دنيايَ سواء طلبتُ عون الجِنِّ بحقٍّ أو بباطلٍ؟ أتُرَى الهلاك مُحَقَّقًا أم أنَّهُ مظنونٌ نسبيٌّ كأيِّ قَدَرٍ في علم الغَيْبِ؟! أحقًّا لا عَوْدَةَ من مثل هذا الطريق؟ ألا يوجدُ ثَمَّ نصرٌ ونُصرَةٌ فيه؟ أتكونُ تلك اللحظه هي المُثلَى لأتراجعَ عمَّا ظلَلْتُ أحدثُ به نفسي لأزمانٍ تطاولَتْ لا أذكُرُ متى كان مبدؤُها؟..

مئات الأسئلة غَزَتْ عقلي وشغلت فكري على حينِ غُرَّةٍ مِنِّي، فأعمَلَتْ في خلَايا عقلي التخريب والتدمير، وسلبَتْ قلبي البقَيَّةَ المُشَتَّتَة فيه من السلام والحِلْمِ.. فصارَ جسدي غُلالة رقيقة تحتها جيشٌ تَترِيٌّ يُمعِنُ القتل

والحرق والتدمير والسلب في ضحاياه الذين لا حول لهم ولا قوَّةً..

حاولْتُ أن أبدوَ متماسكًا، وجمعتُ شَتات نفسي للحظة، وفكَّرْتُ أنَّ هذه هي «**اللحظة الفارقة**»، فإمَّا أن أمضِيَ إلى ما عقَدْتُ العزمَ عليه، أو أنْ أعود أدراجي إلى عالمي الحالم اليائس لأعانقَ تلكَ الأحلام مُجَدَّدًا في طريقي إلى عملي كلَّ صباح..

وخَشِيتُ أنْ يطُولَ فِكري أو أن أنكُصَ على عقبَيّ، فبادرتُ نفسي بالحديث، وسألْتُ:

– وما حدثَ لهؤلاء الذين سألوكم العون من قبلُ؟

– أكثرهم فَقَد عقله، وصار يقطع الأرض مع المجاذيب وأصحاب الأعذار.. وبعضهم اغتالتْه المَرَدَةُ والغيلان بعد أن تخَلَّتِ الحَفَظَةُ عن حمايته لِمَا رَأَتْ منه من خيانة لعهوده وتَحَوُّلٍ لحاله إلى خلاف ما كانت عليه، فتركتْه للشياطين تنال منه حتَّى أقْبَرَتْهُ.. وبعضهم ممن طلب الوصالَ بغير حقٍّ صارَ مشعوذًا من أهل السحر والكهانة يستعين الشياطينَ على أعمال الشرِّ والأذى..

ازدَرَدتُ لعابي بصوتٍ حاولتُ جاهدًا أن أُخفيَه، قبل أن يستطرد الشيخ «عياض» قائلًا:

– إنَّ تلك الطريق يا ولدي لا خير فيها، على ما فيها من خلاف بين أهل

العلم، لمْ يلِجْها قطُّ إنسانٌ فيما أعلم وأثمَرَتْ بينَ يدَيهِ خيرًا.. لكنْ وإنْ كان لا بدَّ منها فلزوم الإخلاص والتقوى واجبٌ، والعزيمة فيهما هي مَرْكَب النجاة، ودعاؤكَ اللهَ التوفيق والسداد والثبات هو الزاد، ومن تَنَكَّبَ عن الصراط لا يلومنَّ إلَّا نفسه..

- امضِ يا شيخي على بركة الله.. الله المستعان.

وضع الشيخ «عياض» راحتا يديه على فخذيه وأطرقَ إلى الأرض قليلًا، وتنهد، ثُمَّ نهض واتَّجه إلى المكتبة النحاسية الصغيرة، وتناولَ نسخة المصحف العجيبة تلك، ثُمَّ رَجَعَ إلى مجلسه، وفتح المصحف وشرع يتلو بعض آياتٍ من الذكر الحكيم ممَّا تتناولُ أخبار الجنِّ وأحوالهم..

ظلَّ على تلك الحال ما يزيد على الساعة، يقرأ بصوت جميل، غير أنَّني أنكرتُ مواطن الوقف والوصل في قراءته، فلم تكن على الوجه الذي اعتدنا سماعه أو تلاوته في القراءات المعروفة للقرآن.. وكذلك كان صوته يتغيَّر بشكلٍ ملحوظ في نهاية كل آية وفي مدودها، وكأنَّ آخرَ لا نراه ينطقها بدلًا منه، حتَّى إذا انتهى المدُّ أو انتهتِ الآيةُ يعودُ هُوَ بصوتِه ليقرأَ من جديد..

بعد أن فَرَغَ من القراءة وضع المصحف إلى جانبه، ووضع يده اليمنى على جبهتي، وأغمض عينيه، وأخذ يتَمتِم بكلمات لم أتبيَّنْهَا.. وبعد عشر

دقائق رفع يده وفتح عينيه.. ويا ليته ما فعل..

كانت عيناه سوداء لا بياض فيها قطُّ، وكانت تلتمعان ببريق عجيب، كأنهما دُرَّتان من حجر كريم أسود.. انتفَضْتُ وصدرتْ عنِّي شهقةٌ كِدْتُ أبتلعُ فيها هواء الغرفة بكامله، وملتُ بجذعي إلى الوراء بحركة حادَّة وسريعة لأصطدم بالشيخ «ياسين» الذي كان يغطُّ في نومٍ عميقٍ من أثر التعبِ الذي أصابه من قسوة الطريق وطوله..

نهض هو الآخر في فزعٍ، وعندما رأى الشيخ «عياض» على حاله تلك، قال لي في جزَعٍ:

- هيا بنا.. لقد انقضى الأمر..

- كيف ذلك.. ما الذي سيحدث الآن؟

هنا، التفتَ الشيخ «عياض» ببطء ونظر إليَّ بعينيه السوداوتين، وقال بصوتٍ مبحوح لم يكن يشبه صوته الأول الذي استقبلنا به، وقال:

- قُمْ أَيُّهَا الإنسِيّ، تخيَّرْ من الثياب ما تُحِبُّ، وضَمِّنْهُ ما تَوَدُّ أن تصطحبه معك، فليس لك ما زادَ على ذلك بعدُ، واغتسل بالماء والكافور كما يُغَسَّل الموتى، وصلِّ لرَبِّك ركعتين لا تُحَدِّثْ فيهما نفسك، وارقُدْ على شِقِّكَ الأيسَر ولا تتلُو شيئًا من أذكار النوم.. فإذا قُمْتَ من مضجعك فلا تلومنَّ إلَّا نفسَك..

ليس كذاك الذي خرج..

لم تَقْوَ قدماي على حملي من أجل الخروج من الكهف، ولمْ يَقْوَ لساني على النطق بذلك.. مما دعا الشيخ «ياسين» إلى جذبي من ملابسي وجرِّي على الأرض جرًّا إلى خارج الكهف المظلم، حيث نور الشمس الحارقة لا يزال يسطع، فقط ليُخْبِر شعب «مملكة العبيد» الذين يُؤَمِّلون أنفسهم بزوال الشمس مِن على أقفيتهم، فقط ليُخبرهم أنَّهُ «ليس بعد»..

أسندَني الشيخ «ياسين» إلى صخرةٍ ناتئة في سفح الجبل، وظللتُ ساعةً من بعدها لا أقوى على الحركة أو الكلام، حتى ظنَّ أنني بدأتُ أولى مراحل الجنون، حتَّى من قبل أن ألِجَ إلى عالم الأطياف.. أخذ الشيخُ يهَدِّأُ من روعي، ويُجفِّفُ ما أتصَبَّبُ من عَرَقٍ، حتَّى إذا قاربَتِ الشمس على المغيب قال:

- هيَّا يا «نضال».. قُمْ بنا يا ولدي، فالشمس غادرت كَبِدَ السماء، وأوشكت على المغيب، ولا تودُّ أن نبقى هنا إذا ما جَنَّ الليلُ..

ثُمَّ أسندني حتَّى أقامني وأنا لا أكاد أُطِيق وقوفًا ولا ما زاد على ذلك، وشرعنَا نتهادى مبتعدين عن مدخل الكهف، وأنا أتَّكِأُ على كتفه، وهو يئِنُّ تحت وطأةِ ثِقَلِي وهِرَمِهِ..

بعد بُرْهة وجيزة استعادت رجلَايَ شيئًا من ذاكرتها، وبدأَتْ في القيام بجزء من وظيفتها شيئًا فشيئًا.. وكانت طريق العودة أطولَ وأشَقَّ من طريق الإياب، حيث لِزِمَنا أن نسير إلى تلك المساكن الشَّعْبِية لنستقلَّ منها مركبة من تلك التي تُسْتَخْدَم في تعذيب المواطنين، لتنقلنا إلى القرية، ومنها نستقلُّ أخرى إلى وِجهتنا..

ظَلَلْتُ شاردًا طوال رحلة العودة، شاخصًا ببصري إلى لا شيء، وقد فَقَدَتْ حواسِّي جميعُها وظائفَها المنوطة بها، فلم تَعُدْ عيناي تُبْصِرُ، ولمْ تَعُدْ أذناي تسمعُ، ولمْ يَعُدْ عقلي قادرًا على إدراك الموجودات والمحسوسات، ولا عن التفكير فيما سبَقَ ولا فيما هو آتٍ..

بينما كان الشيخ «ياسين» متماسكًا رابط الجأش، كان يشعر بالشفقة عليَّ، وظلَّ يحاول التخفيف عنِّي.. وظلَّ يقرأ القرآن في أذني عسى أن تساعدني كلمات الله التامات على التغلب على أثر الصدمة التي تلقيتُها لدى الشيخ «عياض».. كانت تلك المرحلة الفاصلة بين خروجي من الكهف إلى عودتي إلى المنزل فترة عدم اتِّزانٍ نفسيٍّ وعقليٍّ وجسديٍّ، وغَلَبَ عليَّ شعورٌ بالفَقْدِ والضياع.. فإلى متى سأظَلُّ أسيرًا لتلك الحالة البائسة؟ إلى متى سأبقى تائهًا في ذلك العالم البرزخي القاسي؟ تُرَى هل يكون عالم الأطياف الذي سأَقْدُمُ عليه مثيرًا للفزع وعدم الاتزان مثلما أنا الآن؟ هل

يكون أكثر إفزاعًا؟ وهل سأعتاد على مثل ذلك الصراع بين العقل الذي لا يعِي حقيقة ما حدث وما يحدث وما سوف يحدث، وبين القلب الذي لا يقوى على الولوج إلى عوالم مجهولة وساحات صراعٍ لمْ تُخْلَقْ لنا نحن معشر الإنس؟..

أوصلني الشيخ «ياسين» إلى باب منزلي، ولم يتركني قطُّ حتى بدا له أن نفْسي قد هدأتْ، وأنَّ قلبي قد استقر مكانه في صدري بعد أن كادت الأطيافُ أن تمضي به، وبعد أنْ بدأ عقلي في الاتزان بعد أرجَحَتِه بين عالم التكليف وعالم الجنون حتى كاد أن يركنَ إلى الأخير منهما..

دخلتُ ويمَّمْتُ وجهي شطر غرفتي، وتكفَّلَ الشيخ «ياسين» بإغلاق الباب والانصراف وهو يُحَوْقِلُ ويسترجِع.. هُرِعَتْ زوجي للسؤال عن حالي وما حدثَ ممَّا غاب عنها، كما هُرِعَ الأولادُ مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ لعَوْدَةِ والدهم، مأمِّلين أنفسهم باللعب معي وبسماع قصة ممتعة قبل أن يخلدوا إلى النوم، كما اعتادوا كلَّ ليلة..

لمْ يلبثِ الجميع طويلًا حتى أدركوا أنَّ رجل البيت الذي دخل لتَوِّهِ ليس كذاك الذي خرج صباحًا.. كان الأخير شاخصًا، لا يسمع ولا يرى ولا يتكلَّم، لا يضحكُ ولا يبكي، شاحب الوجه ممتَقِعَهُ، وكأنَّهُ رأى شيطانًا..

تجاهلْتُ الجميع، وتجاهلْتُ كلامهم ونداءاتهم، وجذبات أياديهم الصغيرة، وتوجَّهتُ إلى غرفتي وألقيتُ نفسي على السرير بكامل ملابسي وحذائي.. شبَّكْتُ أصابع يدَيَّ أما م صدري، وصوَّبْتُ بصري تجاه سقف الغرفة.. ورُحْتُ في سُباتٍ عميقٍ..



الذُّلُّ يُوَرَّث كما تُوَرَّثُ العِزَّة

كانت الغرفة مظلمة، أو كذلك هُيِّءَ لي، عندما فتحتُ عينَيَّ.. كان جسدي لا يزال يؤلمني، وكذا رأسي.. أمسكتُ بها ونهضتُ متثاقلًا، وقد أخذ كلُّ عضوٍ من أعضاء جسمي وكلُّ طَرَف من أطرافه يستقلُّ بنفسه مجدَّدًا، على الرغم من تحذيراتي المستمرة بخطورة ذلك وعدم موافقة ذلك لسنة الله الشرعية والكونية!!..

تحسَّسْتُ طريقي في ظلام الغرفة، مادًّا يديَّ أمامي، تُسَابقني إلى ما قد يَفْجَؤُني في ذلك الظلام، حتى وصلتُ إلى باب الغرفة، فقمت بإدارة مقبضه لكي أقوم بفتحه، ولكن دون جدوى، لقد كان الباب موصدًا بالمفتاح، ولم يكُن المفتاح في مكانه بالطبع، فقد كان مغلقًا من الخارج..

توقَّفْتُ برهةً لكي أعِيَ ما يحدثُ، وأين كنتُ وماذا كنتُ أصنع قبل أن أخلُدَ إلى النوم في ليلتي تلك.. تذكَّرتُ حينها ما كان من أمر الشيخ «عياض»، وما حدثَ في الكهف، ففزعتُ، وسارعت لإضاءة المصباح؛ حتَّى آنَسَ بضيائِه، عسى أن يزيلَ عني شيئًا من تلك الوحشة التي تملَّكَتْنِي، ولم أجِدْ لدفعها سبيلًا..

أتُرَى أين زوْجِي؟ وأين ثعالبي؟ ولِمَ قاموا بإغلاق الباب عليَّ؟ أيَكُونُ

أمر الاستعانة بالجنِّ قد أثمرَ وهناك من يتبعني منهم الآنَ؟ لكنني لا زلتُ لا أدري كيف سيُسَخَّرُ ليَ الجِنُّ.. هل سيكون لي تَبَعٌ منهم، آمرُهُم بما أراه فيَمْتَثِلُون لأمري؟ أم تُرَاهُم سيُدَافعون عني ويجعلونني خارقًا لا أُهْزَم؟ أم تُرَاهُم سيَمُدُّونني بسلاح فتَّاكٍ من عالمهم أستعين به في مواجهتي مع عتاة الإجرام القائمين على البلاد؟!!.

هرعتُ إلى المرآة الكبيرة في الغرفة، ونظرتُ فيها إليَّ، فلمْ أرَ ما يُرِيبُ، فقط أنا، كما اعتدْتُ أن أراني كلَّ صباح.. تحسَّسْتُ جسدي ورأسي وثيابي.. لمْ يتغَيَّرْ شيءٌ قطُّ.. رجعتُ إلى الباب مرَّةً أخرى، وطرقتُ عليه بقبضتي.. رافعًا صوتي:

- هل من أحدٍ هنا؟ أين أنتِ يا أمَّ حمزة؟

صمتُّ برهةً أتنصَّتُ لعلِّي ألَقَى جوابًا.. ولمْ يَطُلِ انتظاري طويلًا حتَّى سمعت بابًا يُفْتَحُ، وصوت أقدام تقتربُ في بطيءٍ، وحذر..

- من بالداخل؟

- من بالداخل؟!!! ومن سيكون يا أمَّ حمزة سِوَاي؟!! هل جُنِنْتِ يا امرأة؟!!.

- أأنتَ أنتَ؟

- لا.. أنا ابن الجيران.. افتحي الباب يا امرأة، وكُفِّي عن مزاحك الثقيل الآن..

سمعتُ المفتاح يدور في الباب ببطيء، أو تردُّدٍ، ثُمَّ توقَّفَ صوتُ دورانه، ثُمَّ سمعتُ صوتَ الأقدام تبتعدُ مسرعةً إلى جهة اليمين، إلى غرفة الثعالب الأعزَّاء.. مددتُ يدي وأدَرْتُ مقبض الباب، ففُتِحَ، وخطَوْتُ خارج الغرفة واتَّجَهْتُ إلى غرفة أبنائي لأستطْلِعَ الأمرَ، وأنظُرَ ما يحدُث..

دلَفْتُ إلى الغرفة لأجدَها تجلسُ في أقصى الغرفة، متقوقعةً كهِرَّةٍ، وتحتضن الولَدَيْن، كلٌّ إلى جانبٍ، وقد تدثَّرُوا جميعًا بغطاء يَلُفُّهُم.. وما أنْ رآنِيَ الوَلَدَان حتَّى نهضَا مُسْرِعَيْن نحوي، وأقبلَا في شوقٍ وهما يضحكان.. احتضنتهما بشدَّةٍ وقبَّلْتُهُمَا، ووعَدْتُهُما بقضاء وقتٍ ممتعٍ معًا.. ثُمَّ نظرتُ إلى أمِّهِما التي لمْ تزَل في طَرَف الغرفة متَلَفِّعَةً بِمِرْطِهَا، وكأنَّهَا تَقِي نفسها من شيءٍ ما..

- ما لَكِ يا أمَّ حمزة؟ لمَ تتصرَّفين بهذا الشكلِ المُرِيب؟

كنتُ قد حادثْتُها فيما مضى عن رغبتي في محاولة الاستعانة ببعض إخواننا من الجنِّ في أمر نصرة أنفسنا وديننا وأمَّتِنَا بعد أنْ لمْ تَعُدْ تلك الوسائل المعتادة تُجْدِي نفعًا أو تُثْمِرُ خيرًا.. وقُلْتُ في نفسي لعلَّها رأتْ شيئًا

من أثر ذلك فانتابَها شيءٌ من الرهبَة والفزعِ.. ولكنَّنِي حين نهضْتُ من نومتي تلك لمْ أرَ بي بأسًا، ولمْ يتغَيَّرْ شيءٌ، حتَّى أنَّني لم أصنَعْ مثل ما قال الشيخ «عياض» بعد.. فعلَامَ كان هذا الحذرُ؟!!.

- لمْ تكُنْ حينَ عُدْتَ كما أنتَ حين رَحَلْتَ.. لقد حدثَ خطبٌ ما بك.

نظرتُ إلى نفسي وأشَرْتُ بيدَيَّ إلي جسدي ووجهي، وقلتُ:

- ها أنا ذا لم يتغيَّرْ بي شيءٌ قَطُّ.. أمْ لأنَّنِي نِمْتُ أكثرَ مما اعتَدْتُ عليه.. إنَّما هو يومٌ أو بعضُ يومٍ.. لقد كنت مُتعَبًا حقًّا.

نظرَتْ إلَيَّ في ريبةٍ وفزعٍ، وقالت:

- لقد لبِثْتَ ثلاثةَ أيَّامٍ نائمًا..

اتَّسَعَتْ عينايَ في دهشة، فأنا لمْ أشعُر حقًّا بمرور الوقت كما تَصِفَ..

- وكانتْ عيناك مفتوحتَيْن على آخرهما أثناء نومك.. ولم تغلقْهما قطُّ!!.

اتَّسَعَتْ عينايَ هذه المرَّة في دهشة وفزعٍ، إنَّ هذا لشيءٌ عُجَاب، كيف لشيءٍ مثل هذا أن يحدُث!؟!!.

- وكيف عرفْتِ أنَّني لم أكُن مَيْتًا؟

- كان صدْرُكَ يعلو ويهبط بسرعة كبيرة وكأنَّك تعدو.. وكنتَ تُصْدِر غطيطًا عاليًا.

شعرتُ بانقباض في صدري، فما سمعتُه لم يكن شيْئًا مطمئنًا بالفعل، أنام لثلاثة أيَّام متواصلة بعينين مفتوحتين وأغطُّ بصوت عالٍ وأنا أتنفس بشدَّة!!.

نظرتُ إلى الأولاد فرأيتُهم ينظرون إلى والدتهم وقد فَغَرُوا أفواههم مشدوهين، وتعلو وجوههم نظرة خوف تَشُقُّ طريقها لتفصحَ عن مكنونٍ على غير ما يُرَام في صدورهم الصغيرة..

ابتسمتُ سريعًا، وربَّتُّ على رؤوسهم، وقلتُ مستدركًا:

- كفَى يا أمَّ حمزة، لا يجوز مثل هذا المزاح في وجود الصغار.

ثُمَّ نظرتُ إليهما مبتسمًا:

- أمُّكُم تحبُّ أن تمازح أباكم، وتحاولُ أن تخيفَه، ولكن هيهات.. فإنَّ أباكم ليثٌ لا يهاب..

كان قلبي حينها ينتفضُ في صدري، يريد أن يصعد إلى الحلقوم؛ ليَشُقَّ طريقه إلى خارج جسدي، عسى أن ينقذَه ذلك من الخوف الذي يشعر به..

***

ألجأْنَا الأطفالَ إلى النوم حتى يتسنَّى لنا الحديث عمَّا جَدَّ لَنَا.. فالحياة التي نستقبلُها ليست كالتي نستدبرُها، وعاقبتها ليست كعاقبة الحياة الذليلة التي نحياها كذلك..

كانت أم حمزة تشعر برهبة شديدة تجاه تلك الخطوة الجريئة، وعلى الرغم من أنني مهَّدْتُ لها الطريق إلى قبول ذلك الأمر مرارًا فيما مضى، إلَّا أنَّ غُصَّةً لا تزال تشغل حيِّزًا كبيرًا مؤلمًا من حَلْقِهَا، غصَّةً عصِيَّةً على البلع والازدراد.. وأنا لا ألومها على هذا.. فمن ذا الذي لا يهاب الجنَّ ويَفْرَقُ منهم.. فإذا كان الإنسانُ عدوَّ ما يجهلُ، فإنَّ ما يجهله مما لا يراه أدعى إلى استحضار الخوف والرهبة، وأدعى كذلك إلى الإحجام دون الإقدام..

- وماذا تنوي أن تصنعَ؟

سألَتْ، بعد أن اطمأنَّت إلى أنَّنِي لا زِلتُ أنا، وأنَّني لم أنتقلْ إلى عالم الأطياف بعد..

- لا أُخفِيكِ أنَّني أشعر برهبة كبيرة وقلق بالغ حيال الأمر.. ولا أزال أتردَّدُ فيهِ.. فثَمَّ هاجسٌ يدفعني إلى المُضِيِّ قُدُمًا فيما بدأتُ، فقد انقطعَتِ السُّبُل دون النصر، ولمْ يَبْقَ في أيدينا أو أيدي غيرنا من الباحثين عن الحقِّ شيئًا جديدًا لنفعله؛ فقد استفرغ الكثيرون جهدَهم دون بلوغ المَرام أو بعضه.. وعلى الضِّدِّ من ذلك هاجسٌ آخر يصُدُّنِي عن الطريق، ويتوسَّلُ إليَّ

أن أَكُفَّ عن اتِّبَاعِ الهوَى، فأنا لا أدري ما تكون العاقبة، وهل نشهد مَوْسِم قطف الثمار أم لا.

ساد صمتٌ له ضجيج يصُمُّ الآذان في نفسَيْنَا، ثُمَّ قُلْتُ:

– ولو أنَّنِي أعرف كيف سيكون العون لكان هذا أيسرَ، لكِنَّ الجهل بطبيعة سير الأمور تقطعُ عنِّي سُبُلَ التفكير والتدبير، وتجعل اتخاذ القرار بالإقدام أو الإحجام ضربًا من ضروب الكهانة والرِّهان.

– وأينَ نحنُ من هذا كُلِّهِ؟

– إنَّمَا أنتُم في كلِّ خطوة أخطوها، وفي كلِّ نَفَسٍ يُؤْذَنُ لي به، وما هذا كُلُّهُ إلَّا من أجلكم، **فإنَّ الذُّلَّ يُوَرَّثُ كما تُوَرَّثُ العِزَّةُ**.. وإنْ كُنَّا نعيشُ كما يعيشُ غيرُنَا مِنْ أهْلِ بلادنا وأُمَّتِنَا في ذِلَّةٍ ومهانةٍ فليس أقلَّ من أنْ نموت في سبيل عدم تَوْرِيثِ أولادنا ما وَرِثْنَاه من آبائنا فيما مضى.. **وهذا الذي يجب أن نُرَبِّيَ أولادنا عليه، إمَّا أنْ يَحيَوْا كِرَامًا وفي عِزَّةٍ، أو أنْ يموتوا دون ذلك..**

لو أنَّ أحدًا سألني منذ ساعاتٍ، هل سأمضي قُدُمًا فيما خطَّطْتُ له أم لا، كنتُ سأُجِيبُهُ بالنَّفْيِ قطعًا، أمَّا وقد بدأتْ حياتي تعودُ إلى هدوئها ورتابتها المعهودة فما عُدْتُ أستشعر الخطر، إنَّ نَفْس المرء حقًّا لَعُوب، لا تزالُ تُراوِدُه حتى تُرْدِيه..

– قد استخرتُ اللهَ كثيرًا.. وسأُمضِي على بركة الله..

على شَفا جُرْفِ عالَمِ الأطْياف

قضيتُ سائر أيام الأسبوع أجهِّزُ نفسي لأصنع ما أخبرني به الشيخ «عياض».. فقمت بشراء ملابس رياضيَّة سوداء، وكذا حذاء رياضيٍّ قويٍّ أسودَ أيضًا؛ حتى تجعل الحركة يسيرة سهلةً.. وقمت كذلك بعمل حزامٍ خاصٍّ لحمل الأغراض، به عددٌ من الجيوب لحِفظِ الأموال والهاتف النَّقَّال ومجموعة من الأوراق البيضاء وقلم أسودُ اللون وقدَّاحة.. كما قُمْتُ أيضًا بشراء خنجرٍ كبير مُدَبَّبُ الطَّرفِ، له جانب مُسْتَوٍ حادٌّ وآخَرُ مُسَنَّنٌ، كهذا الذي نراه لدى جنود «المارينز» في أفلام «هوليوود» أو في طرقات بلدانا المُحْتَلَّة!!.

كما ذهبتُ إلى أحدِ إخواننا الذين يعملون في الإتجار في الأسلحة، وابتَعْتُ منه مسدَّسًا عيار ٩مللي، مُزَوَّدًا بخزانتين للرَّصاص، تَسَعُ الخزانة الواحدة أربع عشرة رصاصة، معه ماسورة كاتمة للصوت، وكذا عصا قصيرة قويَّةٍ كالتي يستخدمها بعض أفراد الأمن الدَّاخلِي وقوَّات «مكافحة الشَّعب»، أو كما يُسَمُّون أنفسهم «مكافحة الشَّغَب»..

لمْ أستَطِعْ أنْ أُحَدِّدَ ما أحتاجه في المرحلة القادمة، فأنا أجهل تمامًا ما أنا بصدده وما أنا مُقْدِم عليه.. لذا فقد اكتفيت ببعض الإجراءات اليسيرة

والمعـدات القليلـة التـي ذكـرتُ.. وابتَعْـتُ الكـافور مـن حـانوت الأكفـان ولوازمها.. وهكذا أمسيتُ على شفى جُرْفِ عـالمِ الأطياف، داعيًا الله ألَّا ينهار بي في وادٍ لا أطيقُ الخلاص منه..

في الأيام التالية حاولتُ أن أقضي وقتًا أطولَ مع أولادي ومع أمِّهـم، فأنـا لا أدري أألقـاهم في قابـلٍ أم لا.. وابتَعْـتُ لهـم بعـض الألعـاب الرَّديئـة المُسْتَوْرَدَة مـن بعض بلـدان الأعـداء، كمـا هـي العـادة، ولـيس ثَـمَّ سـواها.. وخرجنا سويًّا إلى بعض الحدائق الملكية التي لا يُمْكِنُ دخول أيٍّ منها إلَّا بتصريح - كأيِّ مكانٍ في هذا البلد- والتي ارتفعَ ثمن دخولها أكثر من عشر مراتٍ في سنواتٍ قليلة فقط!!.

في تلـك الأيَّام الأخيرة لـمْ أكُـنْ أسـتطيع النـوم مُطْلَقًـا، فقـد ذهـبَ عنِّـي مُغَاضِبًا وكأنَّني أمسَيْتُ خالدًا.. والطقوس التي أخبرني بها الشيخ «عياض» تتضمَّنُ النوم.. لذا فقد مكثتُ أربعَةَ أيَّام لا أقرُبُ المَضْجَعَ؛ حتَّى إذا آوَيْـتُ إليه لم أختَسْ عنه..

وكلما اقترب موعد تلك الطقوس صِرْتُ أكثر توتُّرًا.. وأصبحتْ أنفاسي تتعالى في تقَطُّعٍ يكادُ يُمَزِّقُ صدري، وتزايدت ضرباتِ قلبي كعصفورٍ جدَّ هاربًا من صقرٍ يطلُبُه، وهو مُدْرِكُه لا محالةَ.. ولكنَّني مع ذلك أظهرتُ عزمًا

وجَلَدًا كاذِبَيْن.. واستبدلتُ بحالة الخوف مما أجهل أخرى على النقيض منها، وهي شجاعة الجهل.. فإنَّه في بعض الأحيان عندما يجهل المرءُ أمرًا ما يستصغِرْهُ، فإذا واقَعَهُ بدا له من الأمر ما لمْ يكُنْ يحْتَسِب..

وهكذا ودَّعْتُ أطفالي وزوجي، وواعدتُهَا بِوِصالٍ يليق بما ستُلْجِؤُنا إليه المقاديرُ، وشَرَعْتُ في طقوس الدخول إلى عالم الجنِّ..



عُدْ يا مجنون.. ستُورِدُنا المهالك

أجلسُ الآن وحيدًا على الأريكة، بعد أن أرسَلْتُ زوجي والأولاد إلى أُمِّهَا، وأخبرتُها أنَّني سأتواصلُ معها حينما أستقِرُّ على شكل التواصل المناسب بيننا، تبعًا لِمَا تحمله لنا الأقدار..

أخذْتُ نفَسًا عمِيقًا، ورُحْتُ أنظُرُ حَوْلِي، أتَفَقَّدُ المنزلَ الذي عِشْتُ فيه أجمل أيَّام حياتي، مع زوجِي وأولادي، على الرغم من أنَّ هذا المنزل يقبع في ذات البلد الذي عشتُ فيه أسوأ أيَّام حياتي، مع العبيد القانطين فيه ومن يُطيعونهم من دون الله!!.. أتُرَى هل سأتمكَّنُ من العيش في هذا المنزل كما في السابق؟ أمْ أنَّ ما تحملُهُ ليَ الأقدار سيقلبُ حياتي رأسًا على عقِب؟!!.

الآن أُدْرِكُ الحقيقة التي تُحَرِّكُ الإنسان إلى قدره، تلك الحقيقة أراها ماثلةً أمامي الآنَ جسدًا أكادُ ألْمَسُهُ.. يعيشُ المرءُ زمانًا طويلًا في ظلِّ ذُلٍّ خانقٍ وهوانٍ لا ينقَطِعُ مَسُّهُ، ويظلُّ يتمنَّى لو أنَّهُ تمكَّنَ من بذلِ الغالِيَ والنفيس في سبيل إزاحة ذلك الذُّلِّ الجاثِم على النفوس، وكيف أنَّهُ لن يألُوَ جهدًا في جهاد المجرمين وأذنابهم ما بقيَ.. فهو لا يكاد يرى من حياته إلَّا أسوأَ ما فيها، ولا يكادُ يُدْرِكُ ممَّا يُحِيطُ به إلَّا مواطن الظُّلم والظلام.. حتَّى إذا ما قُدِّرَ له أن يمتلكَ أحدَ أسبَاب القوَّة والسطوةِ، ويخرجَ إليه الجِنِّيُّ من

المصباح مادًّا إلَيه يَدَهُ بما يستعين به في طريق الجهاد تلك.. فإذا به يتذكَّر كلَّ لحظات الأمل والتفاؤل والفرح، وإن كانت قليلةً، وينسى لحظات الذلِّ والهوان ووعود الجهاد وهزائم النضال، ويبدأ شيطان الفكر يوسوس له، كيف ستتركُ حياتك تلك التي تعرِفُ، على ما فيها من سيِّئاتٍ ومساوِيءَ، وتذهبُ إلى أخرى مِلؤُها الصراع والفراق؟ أليست تلك الحياة بمساويها أفضل وأيسر من تلك التي تطلُبُ؟ في حياتك تلك التي تثورُ عليها وتبغضُها أنت مع زوجك وأولادك في منزلك، أتدري أين ستكون أنت وما سيكون حال زوجك وأولادك، وما الذي سيحُلُّ ببيتك وعملك، إذا ما تركتَ الحياةَ التي تعرفُ إلى الحياةِ التي لا تعرف عنها شيئًا؟ بل إنَّ القَدْرَ الذي تعرفُهُ منها – وإنْ قَلَّ– كفيلٌ بأنْ يخلُقَ بينك وبين ما ترومُه حاجزًا كَسَدِّ ذي القرنَينِ، ولَتَوَدُّ أنَّ بينَك وبين ذلك العالَم بُعْدَ المَشْرِقَيْن.. أمجنونٌ أنتَ؟!!..

تبًّا لتلك النفس اللوَّامة، التي تضِنُّ على صاحبها بلحظة صفاء واحدةٍ في حياةٍ كتيَّارٍ هادرٍ من البؤس والشقاء والهوان.. لعنة الله عليكِ أيتها النفس الأمَّارة بالسوء.. **نفسٌ تأمرُ صاحبَها بالخنوع والقعود والنكوص عن طلَب الحقِّ خليقةً بأنْ تُوأَدَ وتُسْلَمَ للتراب، ليأكلَها الدود هنيئًا مريئًا..**

علِمْتُ أنَّنِي إذا ما استسلَمْتُ لتلك الأفكار التي تروح وتجيءُ في عقلي

كما يحلو لشيطاني، فسأفقدُ ما بقِيَ لي من عزيمة وجَلَدٍ.. لذا فقد نفَضْتُ عن نفسي غبار الخوفِ والفِرَار، وأشَحْتُ بوجهي عن ذلك الوسواس اللعين، وامتَشَحْتُ حسامَ الإنجازِ، ولبِسْتُ رداءَ الشجاعة والإقدام.. وقُمْتُ من على الأريكة!!.

أعددتُ الماءَ في طَسْتٍ، وأضَفتُ إليه الكافور، وقلَّبْتُهُ حتَّى ذابَ، وأهرَقْتُ على رأسي الماءَ، فابتَلَّتْ له رأسي إلى أُخْمُصِ القدم، حتَّى إذا ما انتهيتُ ارتَدَيْتُ تلك الملابس الرياضية التي كنتُ قد ابتعتُهَا، وارتديْتُ حذائي الرياضي الجديد كذلك، وأقَمْتُ نفسِيَ في المسجدِ الصغير الذي كُنْتُ قد أعددتُهُ خِصِّيصًا لأجل الصلاة في أحد أركان المنزل.. ورفعتُ يدَيَّ حَذْوَ منكِبَيَّ مُكَبِّرًا، حتَّى إذا ما رَكَعْتُ ورأيتُنِي مُحْتَذِيًا ابتسَمْتُ، فما كان سيقولُ الجُهَّال ممَّن يرتادُون المسجد الذي أقصِدُهُ مع الشيخ «ياسين» إذا ما رآني أحدُهم أصلي بالحذاء؟!! يا لهم من جهلة!! يكادُ الدَّجالُ أنْ يُؤْذَنَ له في الخروج، ومن قَبْلِه المهديُّ، وأمسَتِ الأمَّةُ أثرًا بعدَ عينٍ وهم لا يزالون في جهالتهم يتخبَّطونَ، ويُرْغُون ويُزْبِدُونَ على الصلاة بالحذاء في غير المسجد، وهم يجهلون حُكْمَهَا!!.

انتهيتُ من صلاة ركعتين لمْ أفقَهْ ممَّا قلتُ فيهما شيئًا، فقد فاجَأني التسليمُ منها وأنا أُفَكِّرُ في شأنِ الحِذَاء!!.. احتَجْتُ إلى أنْ أُعِيدَ الصلَاةَ

خمسَ مرَّاتٍ لأجلِ ألَّا أُحدِّثَ نفسي فيها، ففي كُلِّ كان يأتيني «خَنْزَبُ» يوسوس لي، فأتحدَّثُ معه وأُبادلُهُ أطراف الحديث والوسواس..

نهضْتُ بعد أن فَرَغْتُ من صلاتي، ووضعت عليَّ الحزام، وضَمَّنْتُهُ الأدوات والأسلحة التي أعددتُها، وتوجَّهْتُ إلى غرفتي في خطوات متثاقلة، أشعر مع كلِّ خطوةٍ أنَّ جسدي يزدادُ ثِقَلًا إلى ثِقَلِهِ، وقلبي يزداد خفَّةً حتَّى كادَ أنْ يطير من قفصه مغادرًا جسدي.. وبين جسدي الذي يخْلُدُ إلى الأرضِ وقلبِي الذي يصَّعَّدُ في السماء تكادُ روحِي أنْ تُزْهَقَ، ولحمي وعظمي أنْ يُمَزَّقَ.. صارخِينَ فيّ أنْ «عُدْ يا مجنون.. ستُورِدُنَا المهالِك»!!.

ذهبْتُ إلى رُكنِ الغرفة وقمتُ بوضع كاميرًا رقميَّةٍ لتقوم بتسجيل ما أمُرُّ به أثناء نومي، حتَّى أتمكنَّ من توثيق تلك اللحظة، فقد تُوفِّرُ عليَّ الكثيرَ من الوقت والجهد والفكر في تفسير ما قد يحدُثُ أثناء نومتي تلكَ..

استلقَيْتُ على الفِرَاش، وأسلمتُ شِقِّيَ الأيسَرَ له، وهمَمْتُ أنْ أتلُوَ أذكار النومِ، غير أنِّي تذَكَّرْتُ ما أخبرني به الشيخ «عياض» من عدم جواز ذلك، ولمْ أدْرِ حقيقةً سببَ ذلك، فإنْ كنتَ سأستعين الجنَّ المؤمنَ فما يضُرُّه من ذِكْرِ اللهِ؟!! ألَا يذكرُ اللهَ هو الآخرُ؟!! تناقض عجيب.. غير أنَّني حاولتُ إقناع نفسي بأنَّ المدخَلَ إلى عالم الجنِّ له أحكامُهُ وأعرافُه، وعمَّا

قريب ستتكَشَّفُ لي الأمورُ، وتُمْسِي جميعُهَا جَلِيَّةً لا خفَاءَ فيها..

وهكذا انتهتْ بِي طقوسُ الولوج إلى عالم الجنِّ.. لمْ يكُنْ الأمر صعبًا، خلَا ما واجهتُهُ من صراع نفسيٍّ، لم يكُنْ هناك ثَمَّة ديوك سوداء أو بيضاء تُذْبَح، أو دماء أطفال أو عذراي أو غربان سوداء تُهْرَقُ أو تُشْرَب.. ولم يكُن هناك بخور يُحْرَق أو أدخنة شيطانية تتصاعد وتتلوَّى.. لا شيءَ من هذا، لم يفعله الشيخ، ولمْ يأمُرْنِي بفعله..

لمْ يَطُلِ انتظارِي لطائِر النَّومِ أن يأتِي، فقد أتى مسرعًا تسبقه أصوات أجنحته، أغمضت عينيَّ، وكانتْ آخر خاطرة مَرَّتْ في عقلي «كيف لو رأتني أمُّ حمزة أنامُ على الفراش مرتديًا الحذاء!! لم تكُنِ الشياطين حينها لتجد ما تفترسه من لحمي!!»..



ظلاماتٌ.. ليست بساكِنةٍ

استيقظَ عقلي أوَّلًا قبل أن تستيقظ عيناي.. أدركتُ أنَّني الآن أسمع وأعي.. فقط لا أرى بعدُ.. أُدرِكُ أنَّني لستُ ميْتًا.. فأنا حيٌّ أُرْزَق.. وهذا فألٌ جيِّدٌ.. كما أحسبُ!..

فتحتُ عينَيَّ، أو هكذا ظننتُ.. كنتُ حينها مُسْتَلْقِيًا على ظهري.. لم أكُنْ على شِقِّيَ الأيسر كما بدأَتْ نومتي.. أتُرَانِي تقَلَّبْتُ ففسدَ ما كنْتُ أصْنَعُ؟ أمْ أنَّ الله لم يُوَفِّقْنِي إلى ما صَبَوْتُ إليه؟!!..

كان الظلام شديدًا.. وبَدَتِ الغرفةُ أكثرَ سوادًا ممَّا اعتَدْتُ عليه.. إنَّ أقوى أشعة الضياء لَيَقِفُ عاجزًا يائسًا من تبديد ظُلْمَةٍ كهذِهِ.. حتَّى الشياطين تخاف من الظلام!!.. هكذَا حدَّثْتُ نفسِي..

قرَّرْتُ ألَّا أنهضَ من مرقَدِي مُسْرعًا.. بل لأبقَى على وضعِيَ الذي أفَقْتُ عليه، أُرَتِّبُ ذِهْنِي، أنظُرُ ماذا أرى، ومن بعدها أنهضُ عازمًا.. بعد لحظاتٍ لمْ يبدُ لِيَ الظلامُ المحِيطُ بكلِّ شيءٍ نمطِيًّا سيميتريًّا!!.. لمْ يكُنْ سوادًا بهيمًا.. لا يُخَالِطُهُ لونٌ - أو شيءٌ- آخر.. بلْ كانت هناك أجواء في الغرفة أكثر سوداوية وبهيمية من غيرها.. كانت أجزاءً مظلمة أكثر ممَّا ظَنَنْتُ أنَّ السواد قد يكونُ في يومٍ مَّا.. كان سوادُها يكاد يبتلع ما يجاورها من سوادٍ،

ويقطع الأملَ عن أيِّ نجْمٍ تُراوِدُهُ نيرانُه أنْ يُبَدِّدَ هذا الظلَام الدامس بأشعتِهِ البائسة..

ولكن مهلًا.. إنَّ هذا الظلام ليس بساكنٍ.. بلْ كانَ ينتقلُ من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر.. لم يكُنْ ظَلَامًا واحدًا.. بل كانتْ ظلامات.. بعضها يتحرَّكُ بتَؤُدَةٍ، وكأنَّه لا يكترِثُ لشعاعٍ من ضياء تُسَوِّلُ له نفسُهُ محاولةَ تبديد هذا الظلام.. وأخرى تهرول في ظلام الغرفة مسرعةً من مكانٍ إلى آخر، وكأنَّها تفرُّ من شيطانٍ بيده شعلة يريد أن يُحِيلَ هذا الظلام الأكثر بهيمية إلى ظلامٍ أقلّ بهيميَّةٍ!!.

وَجِلْتُ، وسَرَتْ قشعريرة باردة في أوصالي، انتصَبَتْ لها بعض الشعيرات هنا وهناكَ، وتصلَّبَتْ عضلاتُ قفايَ.. تلك القشعريرة أشعرتني بأنني لا زِلتُ أنا.. إنسِيٌّ أقشَعِرُّ كما يقشعِرُّ الإنسُ.. ولا أدرِي إنْ كانتْ تلك علامةَ قبولٍ أمْ ردٍّ.. لنْ أظَلَّ مستلقيًا في الفراش هكذَا إلى آبِدٍ.. حتَّى وإن كانت تلك الأطياف الأكثر سوادًا تجول في أجواء الغرفة الأقل سوادًا!!.

همَمْتُ بالنُّهوضِ من مَرْقَدِي، فإذا بي أرَى مصباحين أضاءَا في ركن الغرفة الأيسر مما يلي السقف.. كان المصباحان متجاورَيْن، وكانا صغيرين، ولم يكُنْ لنورهما أثرٌ يُذْكَر في تبديد الظلامِ المحيط بهما، وكأنَّ

نورهما لمْ يُجْعَلْ لنشر الضياء، بل إنْ شئْتَ فقل لإذكاء الظُّلْمَةِ!!.. كان نورهما أحمرَ قانيًا، كَلَوْنِ دمٍ قارَبَ على الفسَادِ والتَّخَثُّرِ..

أخَذْتُ أُحَدِّقُ مشدوهًا في هاذين المصباحين الحمراوينِ.. وأنا لا أجد لوجودهما تفسيرًا يسيرًا.. انطفأ المصباحان للحظةٍ قصيرة ثُمَّ عادَا يلتمعان مُجَدَّدًا.. انعقدَ لساني وأنا لا أدري ما عليَّ أن أصنع.. ولمْ أزَلْ على تلك الحال حتَّى لَحَظْتُ بطرفِ عينِي اليمنى مصباحين آخرَيْن أضاءا في ركن الغرفة الأيمن مما يلي السقف!!.. كانا على المِثْلِ من الأَوْلَيَانِ في تَوَهُّجهما وتتابُع إضاءتيهما وخَبائهما..

ظلَلْتُ لوهْلَةٍ أنقلُ بصري من أحدِهمَا إلى الآخر، غيرَ مدركٍ ماهيَّتِهِمَا أو ماهِيَّة ما عَليَّ أنْ أفعل.. أتُرَاهُمَا من أثَر النَّوْمِ؟ أمْ قد يكونان انعكاسًا لمصدرِ ضياء مَّا أتى من خارج الشُّرفَةِ مُنْعَكِسًا على المرآةِ الكبيرة في صدر الغرفة؟ أم تُرَاهُمَا آثار مصباح التشغيل في الكاميرا التي قمتُ بضبطها في وضع التصوير المرئي المتحرك «الفيديو» قبل أن أخلُدَ إلى النوم، منعكسًا على الحائط في رُكْنَيّ الغرفة؟!!..

مدَدْتُ يَدِي أتحَسَّسُ المصباح المُتَمَوضِعَ على المِنْضَدَةِ المجاورة للمِضْجَعِ عن يمينه، وأوقَدْتُهُ ليُرْسِلَ نَذْرًا يسيرًا من أشعتِه ليُضِيَ ما تيَسَّرَ له

من الظُّلُمَات الجاثمة على أجواء الغرفة.. وهنا كادَ قلبي أن يُعْلِنَ انتهاء عهده بضخِّ دماء الحياة في عروقي البشرية التي ما عادت تحتملُ هذا القدرَ من الفَزَع..



لَيْتَ لِي قلبًا خائنًا

لمْ أدْرِ كم مرَّةٌ عانَيْتُ فيها من هذا الشعور المؤلم لتَوَقُّف القلب عن الانقباض والقيام بوظيفته تلك التي لا يعرِفُ سواها.. لقد اختبرتُ هذا الشعورَ مِرَارًا في الآونة الأخيرة، وأنا أصْدُقُكُم القولَ، إنَّه ليس شعورًا يحبُّ المرءُ أن يختَبِرَه.. إنَّهُ شعورٌ مقِيتٌ مؤذِنٌ بذهاب الحياة.. شعورٌ يفضحُ المرءَ ويكشفُ عنه الأحجبة والأستار التي كان يختبيءُ خلفها.. لَكَمْ حدَّثْتُ نفسي بمَبْلَغِ شجاعتها وإقدامها، وهوان الحياة عليها، وإقبالها على الموت غير هيَّابَةٍ ولا مُكْتَرِثَةٍ.. كَمْ حَدَّثْتُ نفسي أنَّها محمولةٌ بين يدَيَّ، نزيلة مُرَتَحِلَةٌ بين جنْبَيَّ، عَارِيَةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ، لستَ بها مُسْتَمْسِكٌ، أُقَدِّمُهَا لبارئها حين يطلبها في رضًى وإقبالٍ.. حتَّى إذا انصاعَ القلبُ لما أُحَدِّثُ به نفسي، وأعلنَ هو الآخر استعداده للمشاركة فيما حدَّثْتُها به، توقَّفَ عن الانقباض معلِنًا انتهاء المسير، مُسْتَبْشِرًا بما طالما منَّيْتُ نفسي وإيَاه به.. هنا فقط يفتضحُ المرءُ ويتكشف حاله.. ولَيْسَ من بني آدَمَ إلَّا دعِيٌّ، فيُمْسِكُ من كان مثالًا للشجاعة والإقدام قلبَه الذي توقَّفَ أو يكاد، مُعَاتِبًا إيَّاه على فِعْلَتِه، مُخْبِرًا إيَّاه أنَّ في العُمُر بقيَّةً ولا بدَّ، وأنَّني وإنْ كُنْتُ مستعدًّا على الدوام لتقديم روحي في سبيل ما أُؤْمِن به إلَّا أنَّه لمْ يَحِنْ وقتي بعد، ليس قبل أن يفنى الأحياءُ وتستحيلَ الجماداتُ ترابًا، ليس قبل أن يُصبحَ في الموت

أُنْسًا أكثر ممَّا أمسى للحياةِ..

أمسَكْتُ قلبي بشدَّةٍ، حتَّى كادَتْ أصابعي أن تخترق ضلوعي لتعتصره بقوَّةٍ، عسى أن يسيلَ منه ماءُ الحياة الذي أبَى القلبُ للحظَةٍ أن يضُخَّهُ في جسدي.. لَمْ تَكُنْ تلك المصابيح الحمراء الصغيرة مصابيحَ.. بل لم يَكُنْ لونُها الأحمر ضياءً.. لقد كانت عيونٌ تُحَدِّقُ بي في ظلامٍ ازداد سوادًا فوق سوادِه.. سوادٌ خلقتْهُ تلك الأجسام السوداء ذات الحراشيف الناتئة الحادَّة كرؤوس الرماحِ.

لقد كانت ثمَّة كائناتٌ تمسك بأيديها وأقدامها في سقف الغرفة، وتتدلَّى منه، رؤوسها إلى أسفل، تُحَدِّقُ بي، ولا تلتفتُ عنِّي.. عيونها حمراء ليس فيها قرنيَّة ولا حدقة، لا رموش لها ولا حواجب كذلك.. قرونٌ صغيرة مُدَبَّبة تعتلي جبهتها، وأنف كمنخار الغوريلَّا، أفطسُ واسعةٌ فتحتاه، تتَّسعُ وتضيق في غضبٍ.. شفتان غليظتان سوداوان، يختبيءُ خلفهما تجويف كأنَّه حفرة سوداء لا قرار لها كفَمِ المامبا السوداء، ولسانٌ ذو زوائد في طرفه كأسنان المِئْشَار، وأسنانٌ مستويةٌ جميعُها، مُدَبَّبَةٌ، سوداءُ إلى رماديَّةٍ، تلتمع أطرافها..

مرَّتْ لحظاتٌ كدهرٍ، زادَها تَوَقُّفُ القلب طولًا، أدركتُ بَعدها أنَّني لمْ

أَسْتَدْعِ نَفَسًا منذ إذٍ.. فَعَلَى ما يبدو أن رئَتَايَ رأَيَتَا أنْ تشاركَ قلبي في توقُّفِه عن القيام بوظيفتها، مشاركةٌ وُجدانيَّةٌ تُنْبِيءُ عن إخلاص تلك الأعضاء لحاملها، يا لَهُ من إخلاصٍ قاتلٍ ذاكَ الذي يُودِي بصاحبه، يا ليتَ لي قلبًا خائنًا أعيشُ به سعيدًا!!..

شهقتُ شهقةً شديدةً، صنعَتْ فراغًا هوائيًّا في جوِّ الغرفة، كذلك الذي يُسْقِطُ الطائرات في جوِّ السماء.. فعادت رِئَتاي إلى العمل مُجدَّدًا، وتابَعَهُما قلبي على ذلك.. كانَتْ عيناي مُتَّسِعتان في رعبٍ، ولمْ أدرِ ما أصنعْ، أأُغلقُ المصباح مُجَدَّدًا؟ أم ماذا؟..

كان لساني هو آخر العائدين إلى الحياة بعد أن توقَّفَ مع صاحبيه، فأخذتُ أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم بأنفاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ، وأنا لا أستطيع أن أُشِيحَ بوجهي عن تلك الوجوه البشعة التي وُلِّيَتْ شَطْرِي.. لكنَّها لم تذهب إلى أيِّ مكانٍ.. فقط ظلَّتْ بأماكنها تراقبني في غضبٍ - أو هكذا أحسِبُ- تَأْبَى أن تخْنَسَ مُبْتَعِدَةً عند ذِكْرِ اللهِ..

رفعتُ صوتي بالاستعاذة وأنا لا أدري ما أقول غيرها.. وألصقتُ ظهري بعارضة المَضْجَعِ من خلفي، أوَدُّ لو أنَّني أغوصُ فيها مغادرًا تلك الغرفة المسكونة.. وقد هُيِّءَ لي أنَّ ابتسامة شيطانيَّةً قد ارتسمت على شفاههما

السوداء.. ثُمَّ رأيتُ شفتاهما تتحرَّكُ لتستعيذ معي من الشيطانِ الرجيم!!..

هنا سَمِعْتُ صوتًا يأتِي عن اليمين والشِّمال هامسًا في أذُنِي بصوتٍ أشبَه بالفحيح، صوتًا سمعتُهُ من قبلُ، غير أنِّي لا أذكرُ أينَ ولا متى كانَ..

- لا تَفْرَقْ أيُّها الإنسِيّ.. إنَّها العوامر..

هنا أعلنتْ جُلُّ أعضائي الثورةَ على جسدي المُنْهَكِ، فتباطَأَ قلبي ورئتايَ ولِسَانِي بعدَ إسْرَاعٍ، وتَبِعَهُمْ في ذلك عقلي الذي قرَّرَ أنَّ ما يحدُثُ عصِيٌّ على الإدراكِ والاحتمالِ، فأبطَأَ علَيَّ هوَ الآخر، فَفَارَقْتُ الوَعْيَ في الحالِ..



إنَّنا الحَفَظَةُ

لمْ تكُنْ يقَظَتي هذه المرَّةَ هادئة كتلك التي مَضَتْ، بل صاحبها الكثيرُ من الفزع والتلويح بيديَّ وإشاحات مجنونة بوجهي، كانتْ عيناي تدور في مِحْجَرَيْها بسرعة هستيريَّة تليق بما رأيْتُ منذ قليل.. سدَّدْتُ نظري إلى سقف الغرفة عن اليمين وعن الشمال فوجدتُ الكيانات الشيطانية لا تزال في أماكنها، غير أنَّها لمْ تُكْن تراقبني، بل كانت منشَغِلَة في أحاديث ونقاشات فيما بينها، أو هكذا بدا الأمرُ.. بَدَتْ وكأنَّها سئمَتْ من النَّظَر إلَيَّ ومراقبة أحوالي التي لا جديد فيها، إلَّا مزيد من الفزع والرهبة..

وهنا قفز إلى عقلي آخرُ مشهدٍ قبل أنْ يُغْشَى عليَّ.. كان هناك مِنْ غَيْرِهم من يتحدَّثُ إليَّ.. مخبِرًا إيَّايَ شيئًا مَّا عن العوامر.. نظرتُ في سرعة إلى جهةِ اليمين مِنِّي لأجدَ الشيخَ «عياض» يجلس إلى جواري على الطَرَف الأيمن من المَضْجَع، كانَتْ هيئَتُه كتلك التي رأيتُه عليها آخِرًا.. كانت عيناه سوداويْن لا بياض فيهما البتَّةَ.. وكان ينظر أمامه، وكأنَّه لا يراني، أو لا يكترثُ بي..

– ما الذي يحدُثُ يا شيخ «عياض»؟!!

صرختُ فيه سائلًا، صرخةَ جزَعٍ، ليس فيها من الغَضَبِ أثَارةٌ.. فإذا به

يُدِيرُ وجهَه إليَّ في بطيءٍ كهيئتِه في الكهف، وقال بصوتٍ كالفحيح:

- إنَّنا الحَفَظَة، إنَّنا الحَفَظَة.. وإنَّهم العوامر، فلا تفرَقْ أيُّها الإنسيُّ.. لنْ يَمَسُّوك بِضُرٍّ ما لمْ تَفعل..

يبدو أنَّ المفاجآت المُفْزِعة لن تنتهي اليومَ.. فقَبْل أن أحاولَ أنْ أعِيَ أو أنْ أفسِّر ما قاله ليَ الشيخُ «عياض» للتَّوِّ، أدرَكْتُ أنَّني سمعتُ صوته عن الشِّمالِ أيضًا.. أدَرْتُ رأسي لأنظُرَ، فإذا به - أو بآخَرَ منه- جالسًا إلى يساري.. أرجَعْتُ ظهري بحركةٍ سريعة لاإراديَّة إلى الخلف لأصطدم بعارضة السرير بعُنْفٍ، ورُحْتُ أُدِيرُ رأسي عن اليمين والشِّمال لأستَوْثِقَ ممَّا أرَى.. فقد كان هناك اثنانِ من الشيَّخِ «عياض»، متماثلان كأنَّهما خرجا من بُوَيْضَة شيطانٍ واحدَةٍ!!..

- كـ كـ كيف ذلك؟

- إنَّنا الحَفَظَة، إنَّنا الحَفَظَة.. ولنْ يمَسَّك من المردَةِ والشياطين سوءٌ ما صَحِبْنَاكَ.. فأنتَ الآنَ في عالمهم.. تراهم ويَرَوْنَكَ.. ترَى معشَرَ الإنس ولا يَرَوْنَكَ.. ولكنْ يُصيبُك ما يُصيبهم..

- ومـ مَن هؤلَاء الشياطين؟!!

- إنَّهم ليسوا بشياطين.. إنهم العوامر.. جانٌّ مؤمنٌ يسكنُ معكم مِنْ قديم..

أرجَعْتُ بصري إلى حيث الكيانات السوداء تلكَ.. فرأيتُ بعضَهم مُنْهَمِكًا في الحديث، بينما ينظر آخرون إليَّ، تعلو وجوههم السوداء المرعبة نظرةٌ لا أدري عَلَامَ تَدُلُّ.. أتُرَاهُم غضبوا من فزعِي منهم؟ هل سينتقمون منِّي لأجل ذلك؟.. كنتُ تائهًا تمامًا كطفلٍ صغير فقد والديْه في مكانٍ موحشٍ لا أنيسَ فيهِ.. وعلى الرغم من بشاعة مظهر تلك الكائنات إلَّا أنَّه لم يَقُمْ أحدٌ منهم بأيِّ سلُوك عدائيٍّ تجاهي، بل غَلَبَ على أكثرهم التجاهلُ، ولعلَّ أكثر ما قد يُثِيرُهم في أمرِي أنَّني أصبحتُ أراهُم كما يَرَوْنَنِي، وهذا ما لَمْ يَكُن مُتَحَقِّقًا من قبل.. يالَلهول، أكانَتْ تلك الكائنات تعيش معنا طوال فترة وجودنا في المنزل؟!! الآنَ أُدْرِكُ حكمة الله في حَجْبِه لتلك الكائنات النَّاريَّة عن ناظِرنَا.. لو أنَّ بني آدَمَ رأى تلك الأطياف لماتَ أكثرهم في أوَّل وهلَةٍ.. ولأمسى جلُّ الباقين مجانين ومجاذيب، ولاستحالَتْ حياة الباقين جحيمًا لا يُطَاق..

كان مظهرُ الشيخ «عياض» - بنُسْخَتَيهِ- المرعبُ أكثرَ المشاهد المُسْتَئْنَسَة في عالم الجن والأطياف ذاكَ، فعلى الرغم ممَّا تُثِيرُه عيناه في نفسي من رهبةٍ ونفورٍ إلَّا أنَّهُ كان يبدو أكثر الموجودات من حَوْلِي لُطْفًا، أو إنْ شِئْتَ فَقُل إنسانِيَّةً.. ولكن إذا كانت تلك الأطياف المرعبة التي لا زِلْتُ أتَسَمَّرُ في سريري لا أستطيع أنْ أُحَرِّكَ ساكنًا بسببها، إنْ كانَتْ تلك هي

الجانُ المؤمن، فكيف يبدو الجانُ الكافرُ منَ المَرَدَة والشياطين إذًا؟!!..

يبدو أنَّ ما ينتَظِرُني في عالم الأطياف أكثر رعبًا وإرهابًا ممَّا أظُنُّ وممَّا اخْتبَرْتُهُ إلى الآنِ..



بدَا جَلِيًّا أنَّ **اتِّخَاذَ قرار مُقَارعة أهل الباطل والوقوف في وجههم ودحضِ باطلهم لمْ يكُنْ صعْبًا بقدْرِ الثباتِ في مواجهة ما قد يلقَاهُ المرءُ من جرَّاءِ اتِّخَاذِهِ قرارًا كذاك**.. فمِنَ اليسير على المرء أنْ يتَّخِذَ القرارَ بشأنِ أمرٍ مَّا، ولكن قد يُمْسِي من العسير جدًّا أنْ يَحتَمِلَ تَبِعَاتِه وأنْ يتخطَّى عَقَبَاتِه..

ها أنا ذا ألِجُ إلى عالم الأطياف بقدمِيَ اليُسْرَى، أوْ قُلْ بِشِقِّيَ الأيسَر، ولا أدرِي إنْ كنْتُ سأقدِر على الصمود في هذا العالم الرهيب أم لا، الآنَ أُدْرِكُ أنَّ ساحاتِ المواجهة والجهاد لأهل الحقِّ من الإنسِ لا مكان لها في دُنْيَا الجنِّ والأطياف، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له.. ولكن ماذا إذَا ما رجَعْتُ عن تلك الطريق وأنا لا أزال في بدايتها، فاللبيب مَن لا يتمادى في خطأه وسَارَعَ بالعودة والأوْبَةِ.. نعم قد لا أستطيع أن أحيَا في هذا المنزل مرَّةً أُخْرى بعدما رأيتُ في غرفة نومي.. ولكن ليس علَيَّ أنْ أُكْمِلَ حياتي كلَّها في هذا العالم القاسي..

– قد يبدو من الأفضل أن أتراجع الآن.. فعَوَالِم الجنِّ لا تبدو مناسبةً لصراعنا نحن معشر الإنس..

قُلْتُ ذلك للشيخ «عياض» الذي عن جهة اليمين.. ولا يبدو أنَّ الآخَرَ

قد ابتأسَ أوْ حَمَلَ علَيَّ من إيثاري للذِّي عن اليمين عليه؛ إذْ أنَّ كلاهما لا ينظران إليَّ إلَّا حينما يحتاجان إلى الحديث، وكلاهما ينظران ويتحدَّثان في نفس الوقت، فيبدو أنَّ استئثار أحدِهما بالكلام دون الآخر ليس بأمْرٍ ذي بالٍ..

التَفَتَا لي سَوِيًّا، ونَظَرَا إليَّ نظرةً لَمْ أعْهَدْها عليهما، على قِصَر عهدِي بهما، نظرا إليَّ وكأنَّهما يسخران مِنِّي أوْ يشْمتان بِي، وقالا بصوتهما الفاحِّ:

- إنَّ هذا لا يكون.. قد أخبرناك فيما خلا أنْ لا عودةَ.. فَتَخَيَّرْ من السُّبُل ما تشاء.. إمَّا الجنون وإمَّا الكفر وإمَّا أنْ تمضِيَ فيما ولَجْتَ لأجلِهِ حتَّى تفْنَى..

هكذا إذًا.. قُضِيَ الأمرُ الذي فيه اسْتُفْتِيَا.. وإذا كنتُ أسألُ اللهَ الثباتَ على العقل والإيمان، فإنَّه لا مَفَرَّ من المُضِيِّ قُدُمًا.. فلَعلَّه القضاء الأكثر رأفةً مِن بينِهم!!.

الآنَ، ماذا بعد؟!! أسأقضي ما تبَقَّى لي من عُمُرٍ راقدًا هاهنا مُستَلْقِيًّا على المِضْجَعِ في فزعٍ ورهبة لا تنتهي؟!!.. لا بدَّ لي من أنْ أنتقل إلى ما يلي من نشاطاتٍ، وإلَّا آلَ أمرِي إلى الخيار الأوَّلِ، وهو الجنون..

نَصَبْتُ ظهري، وحرَّكْتُ رجلَيَّ في حَذَرٍ لأُنْزِلَهما من على السَّرير حتَّى

بلغا الأرضَ.. حاوَلْتُ القيامَ عليهما، فإذا بهما لا يستجيبانِ، وكأنَّما خُلِقَا من عجينٍ.. شَعَرْتُ وكأنَّني طفلٌ صغيرٌ يحاول الوقوف لأوَّل مرَّةٍ، يحتاج إلى من يأخذ بيديه حتَّى يُقِيمَهُ.. أو كأنَّني أتعافى مِن فَالِجٍ أقعَدَنِي دهرًا، حتَّى ما عُدْتُ حديثَ عهدٍ باستخدام رِجْلَيَّ..

وقفتُ وأنا أكادُ أسقطُ، وخَطَوْتُ أُولى خُطواتي في العالم الآخر، مُوَلِّيًا وجهي شَطْرَ عائلة العوامر التي استأجرَتْ سقفَ غرفتي بغير إرادةٍ منِّي، حتَّى أمسى رأسي قريبًا من رؤوسها المتدلِّيَة.. كنتُ مرتَعِبًا فأحنيتُ ظهري وخفضْتُ رأسي كي أبتعدَ عنهم قدرَ استطاعتي، فأنا لا أدري ما قد يحدُثُ إذا ما لامَسْتُ أحدًا منهم!!.. نظرْتُ إلَى جانِبَيَّ فرأيتُ الشيخيْنِ «عياض» يقفان إلى جانبي، فشعرتُ بطمأنينة لوجودهما لحمايتي، كما أحسستُ إحساسًا عجيبًا كإحساس الذي يستجير بالرمضاء من النار، أو كالذي يقتني ثعبانًا لكي يَحْمِيه من الفئران!!..

مَدَدْتُ يَدِي إلى مِقْبَض باب الغرفة وقُمْتُ بفتحه، وقد أصبح أحدُ العوامر فوقي مباشرة.. رأيتُهُ يُسَدِّد ناظرَيْه إلَيَّ، غير أَنَّهُ لم يُحَاول أنْ يلمَسَنِي أو يتهَجَّمَ علَيَّ.. خَرجتُ مُسرعًا من الغرفة وأنا أحْمَدُ اللهَ عزَّ وجلَّ على نجاتي من غرفتي المسكونة تلك.. وخرجَ معي الحَفَظَةُ، وكانا على الدَّوام إلى جانِبَيَّ، على الرغم من أنَّ الباب لا يَتَّسِعُ لنا نحن الثلاثة في آنٍ واحدٍ..

يبدو أنَّني سأرى الكثير من الأمور العجيبة قُدُمًا..

في الساعات التي تَلَتْ ذلك تجَوَّلْتُ في المنزل كثيرًا، وتَبَيَّنَ لي أنَّ المنزل مُزْدحمٌ أكثر ممَّا توقَّعْتُ.. فهناك الكثير من عائلات العوامر التي اتَّخَذَتْ سقف البيت مسكنًا لها!!. كانوا جميعًا يمتلكون المظهر ذاته، ذات العيون الحمراء والبَشَرة السوداء، وتلك الحراشيف والقرون، والأنف الأفطس ذو الفتحات الواسعة، والفم الأسود ذو الشفتين الغليظتين والأسنان المتساوية المُدَبَّبَة.. غير أنَّه كان منهم الصغار، الذين كانوا على المثل من كبارهم، ولكنهم كانوا أكثر نشاطًا وحركة، فكانوا يتواثبون من مكان إلى آخر، وكانوا يحبُّون اتِّخاذَ المصابيح والثُّرَيَّات مقاعدَ لهم، يجلسون عليها.. ولمْ يكُنْ تَدَلِّيهم من الأسْقُف كما رأيتهم في غرفتي هو الوضع الأوحد لهم.. فهم يجلسون على الشُّرُفات والأبواب والأغراض المرتفعة القريبة من السقف، ويتسلقون الحوائط.. وكانَتْ تنمو لشيوخهم لِحًى حمراء طويلة تصل إلى أفخاذهم، وقد تتدلَّى إلى منتصف حوائط الغرفاتِ..

عَرَفتُ لاحقًا أنَّ تلك الحراشيف السوداء الغليظة ليست إلَّا ثيابًا تغطِّي أجساد الرجال منهم، فأنا لا أرى عوراتهم.. وكانت نسائهم ترتدي جلبابًا أسودَ طويلًا من الجلد، يتمايل مع حركاتهنَّ يَمْنَةً ويَسْرَةً، ويتدلَّى أحيانًا إلى أنصاف حوائط الغُرَفِ أيضًا..

كان الشيخان «عياض» يسيران إلى جانبي على الدوام، لا يفارقانني قطُّ، كانا كهيئة الشيخ كما رأيتُه في الكهف، وكانا يرتديان ذات الجلباب الأبيض الطويل والقَلَنسوة البيضاء، غير أنَّهما لمْ يكونَا يخْطُوَان كما أخْطُو أنَا، بل كانا يَنْسَابَان انسيابًا وكأنهما يمشيان على غير قَدَمَيْن!!..

فكَّرْتُ أنْ أعرضَ على الشيخين أو أحدهما أن يسألَا العوامر أُجْرَةً مقابلَ بقائهم في منزلي.. فَلَوْ أنَّ ذلك تَحَصَّلَ لي لأصبحتُ ثَرِيًّا ولا شكَّ.. غير أنَّني عَدَلْتُ عن ذلك خشيَةَ أنْ يصيبونني بأذًى، أوْ أن أجِدَ منهم ما أكره..



الخُبُثُ والخَبَائِث

لمْ يَمْضِ الكثير من الوقت حتَّى بدأتُ أعتادُ على وجودِ ووجُوه تلك العوامر في منزلي، وقضيتُ وقتًا طويلًا في مراقبتهم، كانت ممارسات حياتهم اليومية تتمُّ أمام ناظِرَيَّ من غير حائلٍ بيني وبينهم، ولكنَّهم أيضًا كانوا يُحْسِنُون التواري عن نظري والاختفاء بطريقة مَّا في بعض الأوقات، فَهُمُ الجانُّ على الحقيقة، لستُ أنا، أنا فقط ضيفٌ على عالمهم لبعض الوقت، لا أدري أيطولُ أم يُبْتَرُ، وأحسِبُ أنَّهم كانوا يتخفُّون لأجل بعض الممارسات التي لا يجوز لي أن أطَّلِعَ عليها، كما في قضاء الحاجة وما شابهها..

كما بدأتُ آنَسُ بالشيخين «عياض» على جانِبَيّ، فأنا لا أدري ما كنتُ أصنعُ إنْ لَمْ يُسَخَّرَا لِي..نعم، هما جامدان، لا يبتدِآنِي بالحديث، وإذا تحدَّثا لا يُكْثِرَانِ، ولكِنَّنِي أقبلُ ذلك منهما.. فأنا كما أرى نفسي، امرُءٌ قنوعٌ..

دلَفْتُ إلى غرفة الأولاد فطالعْتُ بعض العيون الحمراء، حتَّى أضَأْتُ المصباح لأرى ساكني الغرفة من الجنِّ.. كانوا على المثلِ مِن البقيَّة.. غير أنَّه لاحَ لي طيفٌ يمُرُّ من خلفي، متَنَقِّلًا من جانبي الأيسر إلى الأيمن.. فنظرتُ على يساري فإذا بالشيخ «عياض» كما هو، وأدرتُ رأسي عن

اليمين لأرى الشيخ «عياض» الآخر على ما كان عليه أيضًا.. ثُمَّ لاحَ ليَ هذا الطيف مجدَّدًا، ولكنَّني لا أستطيع التحقُّقَ منه بوضوحٍ..

وَجِلْتُ لوَهْلَةٍ.. تُرَى ما يكون هذا؟!! أهو أحد العوامر قرَّرَ مغادرة عليائه لِيَحِلَّ عليَّ ضيفًا في عالمي السُّفلِيّ؟!! لعلَّهُ أحد الصغار الأشقياء يلعبُ الغُمَّيْضَةَ مع أقرانه من أطفال الجنِّ!!.. نعم، فكيف لأطفال الجنِّ اللطفاء هؤلاء أن يتوقَّعوا لأحدٍ منهم أن يختبيءَ في عالمي الإنسِيِّ المخيف هذا؟!! سيكون أحمقًا بالفعل.. وقد يستدعي هذا غضب والديه، فيقوم أحدهما أو كلاهما بِقَرْصِه من أُذُنِهِ المُدَبَّبَةِ السوداء تلك، أو من قرونه.. من يدري!!..

تكَرَّر مرور هذا الطيف الخفِيِّ من خلفي كثيرًا، حتَّى صار وكأنَّه ملازمٌ لي كملازمة الشيخين «عياض».. لمْ أكُنْ أهابُه لأنَّني لا أراه، وأحسبُه أحد أطفال العوامر.. ولكنَّ عدم ثقتي فيما ذهبتُ إليه ظلَّتْ مصدرَ قلقٍ لي.. وغَلَبَ عليَّ الشعور بالضيق والسَّأمِ، فرفعتُ صوتي مُحَوْقِلًا، فإذا بصوتِ صُرَاخٍ مرتفعٍ من خلفِي صمَّ أُذُنَيَّ.. أحنَيْتُ ظهري بسرعةٍ مُبْعِدًا رأسي عن مصدر الصوت، والتفتُّ أنظر خلفي فلَمْ أرَ شَيْئًا.. ورُحْتُ أدُورُ حَوْل نفسي علِّي أرى مِمَّ كانَ هذا الصوت، ولكنَّني لم أرَ أحدًا غير ثلاثتنا!!..

– ما كان هذا يا شيخ «عياض»؟

سألتُ من غير أن أنظرَ إلى أيِّهِما، وأنا لا أزال أدورُ حول نفسي، حتَّى كادت المشاهد تتداخلُ أمام عينَيَّ..

- إنَّ هذا هو قرينُك من الجنِّ الذي وُكِّلَ بِكَ..

- وكيفَ السبيل إلى الخلاص منه؟!!.

- ليس من سبيلٍ إلَّا أن تفارقَ روحُك جسدَك.. فهو كظِلِّك إلَى أنْ تُقْبِلَ أضيافُك من ملائكة الموت..

- وأين هو الآن؟ أين اختفى؟

- لقد صُرِع.. صَرَعهُ الذِّكْرُ.. فيَخْنَسُ لبُرْهةٍ، ثُمَّ لا يلبثُ أنْ يعودَ..

قلتُ وأنا لا أزال أنظر حولي كالمجنون، أو كمَنْ يخافُ أنْ يفْجَأَهُ العَدُوُّ:

- وكيف يبدو؟

- إنَّك لنْ ترى قرينك، ولكنَّك ستراه في وجوه الآخرين.. فهم متشابهون.. لا فضْلَ لأعْجَمِيٍّ منهم على عَرَبِيٍّ..

تكرَّرَ إيَابُ هذا اللعين من خلفي، فصرتُ كلَّما رأيتُ طيفَه يحومُ حولي ذَكَرْتُ الله، فأسمعَنِي دَوِيًّا يَصُمُّ أُذُنِي ويخنسُ لفترة قصيرة، ثُمَّ لا يَلْبَث أن يعود..

***

مرَّ وقتٌ طويل منذ أن تناولْتُ آخر وجبة طعام، فشعَرْتُ بجوع شديد، وسمعتُ صوت معدتي تستجدي صارخة أنْ يا غافل أطعِمْنِي، فرَبَّتُّ عليها لأُهَدِّأ من روْعها، مطمئنًا إيَّاها أنْ لا تُرَاعِي، فالغوثُ قادمٌ..

وَلَجْتُ إلى المطبخ، وقمتُ باستكشاف عُمَّارِهِ، ومن بعدهم تفقَّدْتُ أحوال الطعام، فَقُمْتُ بتجهيز بعض ما تيَسَّر.. وفي أثناء ذلك هاتفتُ زوجي وطمأنتها عليَّ، وأخبرتُها ألَّا تأتي إلى المنزل مطلقًا.. ولمْ أُخْبِرْها لِمَ.. فأنا لا أدري كيف أُخبرُها عن هذا الذي أُعايِنُه من عالم الجنِّ.. أحسبُ أنَّ الأفضل لها ألَّا تعلم عن هذا شيئًا.. فالجهل في بعض الأحيان يكون نعمةً، ولله في ذلك حِكَمٌ عظيمة..

وضعْتُ بعض الصِّحَافِ المَلْأَى بالطعام على المنضدة في غرفة الجلوس، وجلستُ، سمَّيْتُ وبدأتُ أَلُوكُ بعض اللُّقَيْمَات.. وارتسَمَتْ ابتسامة شماتة على شَفَتَيّ حين سمعتُ صوتَ صراخ القرين اللعين وهو يُصَرَع مقهورًا من فوات تلك الوجبة الدسمة عليه.. اللعين يَوَدُّ أنْ يُشَاركَني وجبتي.. ثَكَلَتْه أُمُّهُ..

نظرتُ إلى الشيخين «عياض» عن جانِبَيّ وأشَرْتُ بيدي إلى الطعام أن تفضَّلَا.. فلَمْ تَبْدُ منهما إجابةٌ، ولا يبدو كذلك أنَّهما يكترثان بشأن الطعام..

فصوَّبْتُ بصري نحو سكَّان العالم العلوي من العوامر ممَّنْ يستأجرون سقف الغرفة على الرغم مني، فإذا بجميعهم ينظرون إليَّ بنظرةٍ هي أقربُ إلى اللهفة والاستبشار.. ولا أدري كيف أصفُ لكم كيف تكون لهفةُ الجِنِّ وكيف يكون استبشارهم!!.. وفجأةً بدأوا يتشبَّثُون بالحوائط نزولًا من أعلى حتَّى لامَسَتْ أرجُلُهم الأرضَ.. تسمَّرْتُ في مكاني، وتيَبَّسَ فكِّي ولساني بما فيه من طعام، فبَدَوْتُ مثيرًا للضحك في غير هذا الموقف.. وشَعَرْتُ بغُصَّةٍ، أو لعلَّها لُقْمَةٌ، تَجُوزُ حَلْقِي مُقَطِّعَةً إيَّاهُ بأطرافها الحادَّة اليابسة، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّني سمعْتُ سِبابًا يأتي من حلقومي، لِمَ لَمْ تَلُكْهَا جيدًا أيُّها الأحمق.. ولو أنَّ الحلقوم قد رأى ما أرى لَلَزِمَ الصمت أو لفَضَّلَ أنْ يُقْطَعَ دونَ ذلك!!..

ظَلَلْتُ مُتَسَمِّرًا هكذا، سامعًا غرفاتِ قلبي تدُقُّ طبول الخوف.. وأنا أراقب نزول العوامر واحدًا تلوَ الآخر، حتَّى صغارهم نزلوا من عليائِهم.. حُلَّتْ عُقْدَةٌ من رقبتي فتلفَتُّ إلى الشيخين «عياض» أنْ أدرِكاني، ولكن لمْ يبدُ عليهما أنَّهُما يكترثان كثيرًا لِما يحدُثُ، بلْ ظلَّا ينظُران إلى الأمام من غير أنْ يتحدَّثَا أوْ يُبَادِلَانِيَ النظرات..

اكْتَمَلَ عدد العوامر بالأسفل على المِثْلِ ممَّا كان بالأعلى، والتَفُّوا حَوْلَ المنضدة ذاتِ الصِّحَافِ.. وإذا بأيديهم السوداء ذات الأظافر السوداء الناعمة تمتدُّ إلى الصِّحافِ لتأكل ممَّا فيها.. بُهِتُّ وأنا أراهم يأكلون لأوَّل

مرَّةٍ، ولَمْ أدْرِ ما أصنع، أيَجِبُ عليَّ أنْ أُشَاركهم الطعام؟!! فأنا مُضِيفُهم، نعم.. كان هذا رُغْمًا عنِّي، ولكن ما عساي أنْ أفعل سوى ذلك؟!!.. تذكَّرْتُ حينها ما كُنَّا قد سَمِعْناه قديمًا من أنَّ الجانَّ يسكنون أسقُفَ البيوت، فإذا وُضِعَ الطعامُ نزلوا فشاركوا أهل البَيْتِ طعامَهم..

كان الجميع يأكلون، ولكنْ لمْ يكُنِ الطعام ينقص، فلَمْ يكُنْ ليَنْقُصَ إلَّا بالقَدْر الذي آكُلُه أنا، أمَّا ما كانوا يأكلونه هم فلم يَكُنْ يُنْقِص من الصِّحاف شيئًا!!.. وكانَتْ الأُمَّهات ذوات الجلابِيب الجلديَّة السوداء كأجنحة الخفافيش تَأكلُ وتُطْعِمُ أطفالها في أفواههم، كما نفعلُ نحن بنو آدَمَ!!.. ظلَلْتُ أراقبهم من غير أنْ أمُدَّ يدي إلى الصِّحاف معهم، حتَّى ظَنَنْتُ أنَّ أحدًا منهم سيَنْظُرُ إلَيَّ مُشِيرًا إلى الطعام، ويقول «بسم الله.. البيت بيتك»، أيْ تفَضَّلْ بالأكل وكأنَّك في منزلك!!..

كانُوا يأكلون في صمتٍ، وكان الأطفال كذلك يتلَقَّوْن ما تُلقِيه أُمَّهاتُهم في أفواههم في سكينة، وكأنَّ على رؤوسهم العنقاء.. ورأيْتُ أحَدَ اليافعين فيهم يُسِيءُ الأدَبَ، فكانَتْ يَدَه تَطِيشُ في الصَّحْفة ولا يأكلُ ممَّا يليه.. لعلَّ أباه لَمْ يُعَلِّمْه آداب الطعام كما ينبغي!! سيكون لِي مع والده ذاك حديثٌ، فإذا كانُوا سيشاركونَني منزلي فليس أقلَّ من أنْ يلتزموا آداب الطعام والجِوَار.. نعم، إمَّا أنْ يكون هذا وإلَّا... لا أدري وإلَّا ماذا، ولكنني حَتْمًا سأخاصمهم وقد

أدعو الله عليهم!!.

***

لَـمْ تَمْتَدَّ يـدِي إلـى الطَّعـام بعـدَ أنْ شَـرَعُوا فيـه، وانتَظَـرْتُ حتَّـى شَبِعُوا، وبدأُوا ينصرفون عنه تِبَاعًـا كمـا وَفِدُوا إلَيْـه.. وتـسَلَّقوا الحـوائط، كـلٌّ إلـى الركن الخاص به في سقف الغرفة.. أعَدْتُ صِحَافَ الطعام إلى المطبخ، لَـمْ تُنْقَصْ إلَّا بِضْعَ لُقَيْمَاتٍ الْتَقَمْتُها أوَّلَ ما جلَستُ إلى الطعام.. وتذَكَّرْتُ أنَّني لمْ أُصَلِّ مُذْ أفَقْتُ، وأنا أحْوَجُ إلى الـصلاة الآنَ مِنِّـي قَبْلَ أنْ تُـزَالَ الْحُجـبُ عنْ عَيْنَيَّ لأرَى ما وراء عالم الإنس من عالمٍ جِنِّيٍّ علوِيٍّ..

ذهبتُ إلى دورة المياه لكي أتوَضَّأ، فأضأْتُ المصباح من الخـارج، فقـط لأرى أكثر المشاهد رُعبًا في حياتي كُلِّهـا.. لقـد كنـتُ معتـادًا فيمـا سبق علـى مشاهدة أفلام الرُّعب، وبخاصة تلك التي تتنـاول أمـر الأرواح والاسـتحواذ الشيطاني وإخراج الأرواح الشريرة من أجساد الضحايا، كنتُ أحبُّ مشاهدة تلك الأفلام ليلًا، وحدي بالطبع، فقَلْبُ زوجي الصغير لا يحتمل مثل تلـك المشاهد.. ولكنَّني الآن أستطيع القول بأن تلك المشاهد مُجْتَمِعـةً لا تُقَـارَن بتلك النظرة الأولى لمشهد دورة المياه!!.

كانتْ دورة المياه مَلْأى عن آخرها بالشياطين، فلَمْ يكُـنْ ثَـمَّ موطِئٌ لقـدمٍ

قطُّ.. شياطين على كلِّ شكلٍ ولون.. كيف عرَفتُ أنَّها شياطين؟!! يا له من سؤال ساذج.. إنَّ العوامر الذين رأيتهم في جميع غُرَف المنزل إنَّما هم عارِضُون وسيمون وملكات جمال بالمقارنة مع تلك الكائنات التي تستوطن دورة المياه!!..

كنتُ أقِفُ على باب دورة المياه، معقودَ اللسان كالعادة، ولَمْ ينسَ قلبِي ورئتايَ وعقلي أن يقوموا بوظيفتهم الأبديَّة التي بدأتُ في التَّعَوُّدِ عليها مؤخَّرًا من التوقُّف عن أداء وظائفهم الحيوية.. ولكن يبدو أنَّ قَدَمايَ قد ضُمَّتْ آخِرًا إلى فريق الخزَايا هذا، فقامَتْ بخيانتي ولَمْ تُطَاوعنِي في أخْذ خطوة سريعة إلى الخلف كرَدَّة فعلٍ طبيعية لِمَنْ يرى أمامه مشهدًا كهذا!!..

كان السقفُ مُزْدحمًا بالشياطين، كانَتْ ألوانهم تتغيَّر على الدوام، من الأسود إلى الأحمر القاني، وأحيانًا يختفون عن الأنظار.. كانت رؤوس بعضها كرؤُوس الكِباش، بقرون ضخمة ملتوية، بعضها لم يكُنْ لها أعيُن على الإطلاق، وبعضها كانتْ عيونها صغيرة وغائرة، وكأنَّها تَنْبُتُ في قعر وادٍ سحيقٍ من وديان جهنَّم، وكانت سوداء لا بياض فيها البتَّة.. وتلك الشياطين ذوات رؤوس الخِرَافِ كانت مُتَشَبِّثَةً بالسقف بأيديها ذات المخالب السوداء الطويلة، غير أنَّ أرجُلَهَا كانت مُشْعِرَةً وذات حوافرَ بثلاثة أظلافٍ، وذيولها تتدَلَّى إلى أنصاف الغرفة..

آخرون كانوا برؤوس جِدْيَان، وكانتْ لهم قرون صغيرة مدبَّبة، وكانت تلك الشياطين على المِثْل من سابقتها في تشَبُّثِها بالسقف، غير أن أعينها كانت جاحظة وبيضاء لا سواد فيها.. وكان هناك صِنف من الشياطين ذو رؤوسٍ أشبه برؤوس بني آدم، غير أنَّ لهم شعورٌ مُجَعَّدة طويلة سوداء، تتوارى خلفها وجوههم التي كانت تَتَبَدَّى أحيانًا، فتكشف عن وجه رماديّ اللون، به الكثير من الجروح والتقيُّحاتِ التي تُثِير الفزع والاشمئزاز في ذات الوقت.. وكانت عيون ذلك الصنف سوداء لا بياض فيها، ولها آذانٌ مُدَبَّبة طويلة ترتفع حذاءَ الرأس.. كان ذاك الصنف الأخير يرتدي جلابيب بيضاء قصيرة ومُتَّسخةً، وبها الكثير من الخُروق والأطراف المُمَزَّقة، وكانت تخرج من أسفل منها أقدام تشبه أقدام البشر، غير أنَّ بها الكثير من الأصابع الرفيعة الطويلة التي تتحرك باستمرار وباستقلاليَّة تامَّة عن بعضها!!..

لم تكُن تلك الشياطين عفيفة ذوات سِترٍ كما هو الحال عند الجانِّ المؤمن الذي يستَأْجر غُرَفَ المنزل، بل كانت تلك الشياطين سافرة الوجوه والأجساد، وقد رأيت لبعض نسائها أثداء سوداء وأخرى مليئة بالجروح والقروح.. كانت أثداؤها طويلة تتدلَّى إلى منتصف الغرفة، ولها رؤوس ينبُت منها الشَّعر..

رأيْتُ كذلك العديد من الحيَّاتِ السوداء تسعى هنا وهناك، كانت عيونها

حمراء، بعضها كانت ذوات رأسين يخرجان من صدرٍ واحدٍ، ولها ذيلٌ مشقوق، يتبعُها كالديدانِ.. وحيَّاتٌ أخرى لمْ تكن لها ذيول، بل كان مكان الذيل رأسٌ أخرى، تسير تارةً باتِّجاه هذا الرأس، وتارة باتِّجاه ذاك..

كما رأيتُ عقاربَ سوداء بذيولٍ طويلة تَجُوبُ الأرض، قاطعةً الغرفة ذهابًا وإيَّابًا من أقصاها إلى أقصاها، لا تكَلُّ ولا تمَلُّ، في حركة دَؤُوب.. وكان هناك بضعة عشر كلبًا أسودَ بهيمًا يتحرَّكُون في الغرفة بحُرِّيَّةٍ هنا وهناكَ.. كانتْ العيون حمراء وسوداء وبيضاء في تلك الغرفة، والقليل كان بلا عيون.. ولا أدري هل وُلِدُوا هكذا بعَيْبٍ خَلْقِيٍّ كما نُسَمِّيه نحن معشر البَشَر!! أمْ أنَّ هذا صِنْفٌ من الجنِّ؟!! من يدري؟!! قد يأتي يومٌ أرى فيه بعض من ابتُلُوا بالإعاقة من الجنِّ، وقد أرى مجاذيبهم كذلك!!..

كانوا جميعًا ينظرونَ إليَّ بغَضبٍ شديد، تلتمع أسنانهم وأنيابهم كما تلتمع أعينهم، كان اللُّعاب يتساقط كثيرًا من أشداق الجنِّ المُتَشَبِّث بالسقف، كان لُعابًا لزجًا - أو هكذا أحسبُ- أكثر ممَّا لدى البشر، بل والحيوانات كذلك.. كان يسقط على أرض الغرفة فتَهرع الكلاب إليه لتلعقه بألسنتها السوداء الطويلة، فقط لتقوم هي الأخرى بإسالة لعابها على الأرض..

كان صوت فحيح الحيَّات يصمُّ الآذان، ولَـمْ تكُـن الكـلاب تنبح، بـل كانت تحرك فُكُوكها وألسنتها وكأنَّها تتحدَث!! وكانت الشياطين ذوات رؤوس الخِرَاف والجِديان تُمَأمِئُ بصوتٍ مبحوحٍ..

كانت دورة المياه مزدحمة بشدَّة، وكـان الـبعض يـصادمُ بعـضًا، فتحـدثُ بينهم مشادَّات كثيرة، ففي الدقائق القليلة التي ظلَّتْ فيها قدماي متواطئةً مع قلبي ورئتاي وعقلي، فعجزَتْ عن حملي بعيدًا والهروب بِي مـن أمـام بـاب الجحيم ذاك، في تلـك الـدقائق رأيـتُ الكثيـر مـن الـشجارات بـين هـؤلاء الشياطين.. كلابٌ تطبقُ بفكوكها على حيَّاتٍ، وحياتٌّ تـنهش الكـلاب في وجوهها ومؤخراتها، والعقـارب تـضرب بـذيولها الطويلـة هـذا وذاك، كـما يضربُ الجلَّادونَ أسراهم بالسِّياط المعدنيَّة في معتقلات الأمن الداخليّ!!.

فقط كانت الشياطين ذوات رؤوس الكباش والجديان والمجزومين التي تعتلي السقف تَنْعَم بهدوء في عليائها، بعيدًا عن الغوغاء بالأسفل.. ويبدو أنَّ تلك الشياطين أعلى درجة من تلك الحيَّات والكلاب والعقارب..

أَفَقْتُ من الصدمة بعد وقتٍ لا أدري كَمْ كانَ، لأجدَنِي لَمْ أعُدْ في حاجة إلى دخول دورة المياه، فقد كانت الأرض من حـولي مُبْتَلَّـةً.. لا أدري لِـمَ.. ولكنَّنِي لَمْ أشعُرْ بحاجَةٍ مُلِحَّةٍ في الدخول كما كنتُ من قبل!!.. مددتُ يدي

ببطيءٍ إلى مقبض باب دورة المياه المفتوح، وجذبتهُ بقـوةٍ وعنـفٍ فأغلقتُـه، وكان أحدُ تلك الكلاب السوداء قد قرَّرَ أخيـرًا أن يهـاجمني، غيـر أنَّ البـاب المُوصَدَ حال دون ذلك؛ فإنَّ الشياطين لا تفتح بابًا موصدًا.. وبإغلاق بـاب الجحيم هذا عاد كلُّ شيء لهدوئه ورتَابَته، وكأنَّ شيئًا لَمْ يَكُن..



معركة.. «دورة المياه»

- وكيف حال الأولاد؟

- بخير حال والحمد لله.. يشتاقون إليكَ كثيرًا..

- وأنا أيضًا قد اشتقتُ إليكم.. عسى أن يكون لقاؤنا قريبًا بإذْن الله..

- متى سنعود إلى المنزل؟!

ألجَأَني سؤال زوجي إلى الصمت، لا أدري بما أُجِيب، وشعرتُ أنَّني سأدخل على إثْرِ هذا السُّؤال المُفَخَّخ في دوَّامة عاتية من الفِكْرِ، يتلوهُ اعترافٌ وشرح لما عاينْتُه إلى تلك اللحظة من عجائب وفظائع يشيب من هولها الوِلدان..

- ليس الآن على كلِّ حال.. قد تغيَّرَت الأوضاع كثيرًا.. وإنِّي أُحِبُّ أنْ تبقوا بعيدين عن المنزل لفترة قد تطُول.. إلى أنْ يقضِيَ اللهُ أمرًا كان مفعُولًا.. وإذا ما احتَجْتِ أو الأولاد لغَرَض مَّا من المنزل فلا تأتِي مُطْلَقًا إلَّا بعد أنْ تهاتفِيني وآذَنَ لكِ، وسأقوم بإعداد ما تحتاجين إليه، وسأترُكُه لكِ خارج باب المنزل.. لكن لا تدخلي إلى المنزل مطلقًا!!..

وهكذا قضَيْتُ الثلاثة أشهرٍ التالية في منزلي، لا أخرج منه قطُّ، فلمْ أكُن مُسْتَعدًّا للحظة الخروج تلك، إلى هذا العالم الواسع المليء بالشياطين

والغيلان.. فإذا كان منزلي المتواضع به هذا العدد من الجنِّ متعدد الأشكال والألوان والأطياف، فكيف هو الحال خارج جدران هذا المنزل.. إنَّه لأمرٌ يدعو للجنون حقًّا.. وإنِّي لأعلم الآن كيف انتهى آخرون ممَّن سبقوني في تلك الطريق إلى الجنون!!.

لا أستطيع أن أقول بأنَّ تلك الأشهر الثلاثة التي لم أبرَحْ فيها منزلي قد مرَّت عبثًا من غير ثمَّةَ فائدة، بل قد أفدْتُ منها كثيرًا؛ فقد توطَّدت علاقاتي بأكثر أفراد الجنِّ المؤمن القاطن بجميع غُرَفِ منزلي، وصرتُ أعرف الآن أعدادهم وأولادهم، بل صرتُ قادرًا إلى حدٍّ بعيد على التمييزِ بينهم، فهُم على شدَّة الشبه بينهم مختلفون، ولا يُدْرِك تلك الفروق الشكلية والسلوكية إلَّا من أكثر مخالطتهم... مثلي!!.

كما أنَّني لمْ أعد أتجنَّبُهم وقتَ الطعام، بل صرتُ أُؤاكلهم من غير بأس، وأعددتُ لهم أطباقًا مخصوصة تكفي أعدادهم التي كانت تتزايد تبعًا للزيارات التي كانوا يقومون بها لبعضهم البعض من غرفة إلى أخرى.. ولم يكن ذلك يمنعهم من أن تمتدَّ أيديهم إلى أطباقي ليلتهموا ما فيها بشراهة.. وإنْ لم يكن شيءٌ ينقص منها على الحقيقة.. وأحيانًا ما كنت أصنع ولائمَ كبيرة، مرَّةً كل أسبوع، وأدعو إليها جميع الجنِّ المؤمن في أرجاء المنزل، فيأتون بنسائهم وذراريهم لحضور تلك المأدبة.. ولعلَّ من الأمور العجيبة

التي رأيتها - على كثرتها- أنهم كانوا يتلقفون العظام المتبقية من لحوم الضَّأْن والداجن فتَقَعُ في أيديهم أوفر ما تكون لحمًا، مصْدَاقًا لما أخبر به النبيُّ ﷺ.

كنتُ في تلك المرحلة أتجنَّب اللقاءات وأتَذَرَّع بظروف ومهمات؛ كيْ لا ألقى أحدًا، غير أنَّنِي حرصتُ أيضًا على ألَّا يفقدني أحدٌ، فكنت أهاتفُ أقاربي وزملائي في العمل من آنٍ لأخر، كما أوكلتُ أحدَهُم لكي يتقدَّم لي بإجازة من العمل من أجل سفرٍ طاريءٍ.. وهكذا تجنَّبْتُ الخلْقَ ولم أُقَاطِعْهُم.

***

شَهِدَتْ تلك المرحلة أيضًا نقلةً هامَّةً في تعاملي مع الأخطار والمفاجآت التي اعتدْتُ سرعةَ وُرودها وكثرة وقوعها في عالم الأطياف.. فقد اعتدْتُ على وسوسات القرين وصوتِه الأقرب إلى الحشرجة.. نعم، لمْ أعرف كيف يبدو ذلك الصعلوك، فلم تكن أيٌّ من تلك الكائنات تتبدَّى في المرآة، ولا أنا كذلك.. ولكنَّني اعتدْتُ صوتَ وَسْوَسَتِه، وكذا صوتَ انصعاقه.. ومع مرور الوقت لم أكن أُلْقِي لكليهما بالًا، وكأنَّ شيئًا لا يحدث..

ليس هذا فحسب، إنَّما كان أكبر انتصاراتي على الإطلاق هو في التَّغَلُّب

على مخاوفي تجاه المردة والغيلان الساكنين في دورة المياه.. فقد ظللتُ أكثر من عشرة أيَّامٍ لا أقرب بابها، وأهاب ما حولها كثيرًا، وكان قلبي ينخلع في كلِّ مرَّة أقتربُ منها أو حتَّى تَرِدُ في خاطري.. حتَّى صار الأمر لا يُحْتَمَل، وعَزَمْتُ على أنْ أقتحم عليهم عالمي الذي يسكنونه رُغمًا عنِّي، ولْيَكُن ما يكون..

ظَلَلْتُ عدَّةَ أيَّامٍ أقتربُ من باب دورة المياه فلا أسمع شيئًا، حتَّى إذَا أدَرْتُ مقبض الباب وانفرَجَ قدْرَ شُعَيْرَةٍ إذا بأصواتِ فحيحهم وعوائهم يتعالى.. وكنتُ حينها أُسارعُ بإغلاق الباب مبتعدًا في فزعٍ ورهبة، عازمًا على عدم إعادة الكَرَّة مرَّةً أخرى..

وفي مساء ذات يومٍ بعدَ أنْ انتهيتُ من مشاهدة إحدى حلقات الوعظ والإرشاد التي تُذَاع من آنٍ لآخر على التلفاز لإيهام أهل «مملكة العبيد» أنَّهم شعبٌ ديِّنٌ بطبعه، وأنَّ الدِّيانَةَ تلك مركوزةٌ في نفوسهم لا يستطيع أحدٌ خالقًا كان أو مخلوقًا أن ينتزعها من قلوبهم أو أن يطمس عليها!! ودائمًا ما كانوا يُتْبِعُون تلك اللحظات الإيمانية برقصةٍ لفاجرةٍ تتلَوَّى كما يتلوَّى الثعبان إذا ما أُودِعَ قعْرَ جهنَّم، كيْ لا تُسَوِّلُ لأحدٍ مَّا نفسُه أنْ يحتفظ في قلبه بكلمةٍ من تلك الكلمات الجوفاء التي ردَّدها على مسامعهم أحد منافقي شيوخ السلاطين، والذي كان حريصًا أشدَّ الحرص على أنْ يجعلها رسمًا

بغير أَثَرٍ يبقى، كيْ ما يظلُّ العبيدُ عبيدًا.. لغير الله..

بعد تلك الأمسية الدينية الفارغة، والتي شاركني إيَّاها نفرٌ من الجنِّ، واستمعنا فيها لكلامٍ عجبٍ، يهدي إلى الغَيِّ والضلال، شعرتُ بقوَّةٍ في قلبي وفي بدني، فأنا مُحَاطٌ بإخواني من الجنِّ المؤمن ذوي القدرات الخارقة، وكذا معي الشيخان «عياض» لا يفارقانني قطُّ، وهما على عهدهم معي، لـمْ يَخْفِرَاهُ قطُّ.. فنهضتُ من على الأريكة وتوجهْتُ إلى دورة المياه عازمًا على مواجهة تلك الفئة الضَّالَّة.. فإذا كنتُ غير قادرٍ على مواجهة بضعة شياطين نجسة من أرباب دورات المياه فكيفَ بي إذًا في مواجهة شياطين القصور والقلاع الأكثر شراسة ونجاسة؟!!.

توجَّهْتُ إلى دورة المياه، حتَّى ما إذا اقتربتُ من بابها نظرتُ حولي فلَمْ أجِدْ سوى الشيخينِ «عياض»، ولم يكُن أحدٌ من إخواننا من الجنِّ قد تَبِعَنِي، ليسَ ثمَّ أحدٌ منهم يقاتل معي أو يشُدُّ من أزْرِي.. فأحسَسْتُ بتلك القوة تنسحبُ سريعًا من قلبي ومن جسدي، وبخاصة بعد زوال أثر تلك الكلمات الفارغات التي بالَها الشيخ المنافق في أُذُني وآذان الجنِّ من حولي وآذان من يستمعون إليه من أهل «مملكة العبيد»، انتهى أثرُها تمامًا كما خطَّطَ لها القائمون على أُمُور العباد..

غيرَ أنَّ شعورًا مضَادًّا لشعور الضعف والخَوَر ذاك قد غَزَا عقلي وقلبي مُدْرِكًا إيَّايَ من التَّوَلِّي يَوْمَ الزحفِ، فكيف لي أنْ أتَقَوَّى بمَن هم مثلي من المخلوقات الضعيفة التي لا حول لها ولا قوَّة ولا أتَقَوَّى بخالقها؟!، كيف أتَّكِلُ على الأسباب وأتَنَاسَى ربَّ الأسباب؟! إنَّ هذا لشَيْءٌ عُجابٌ، ولا يليق بمؤمنٍ!!.

زادتْ تلك الخاطرة من عزمي وشدَّتْ من أزري وبثَّتْ في نفسي ثقةً وإخلاصًا وشجاعةً لا عهْدَ لِي بها من قبلُ، فقَبَضْتُ على مقبض الباب وأدَرْتُهُ، ثُمَّ دفعتُه إلى الداخل بشدَّةٍ مُقْتَحِمٍ غاضِبٍ.. حينئذٍ طالعْتُ وجوهَ الملاعين وتطَلَّعَتْ إليَّ عُيونهم، كانوا ينظرون إليَّ بعيُونٍ ومن غير عيون، في حقدٍ وغضبٍ شديدَيْنِ، وكأنَّنِي فَتَحْتُ عليهم باب دورةِ المياه!!..

تَسَمَّرَتْ قدمايَ لِبُرْهَةٍ، وقد بدأت أعضائي تستعيد ما عَلَق بذاكرتها من موقفٍ سابقٍ تشابهَتْ فيه الوجوهُ وشَاهَتْ.. غيرَ أنَّ أثَر تلك الدفعة الإيمانية التي ألقاها الله في قلبي لمْ يزلْ بعدُ باقيًا، فاعتلجَت نوازع الإيمان ونوازع الخذلان في صدري، حتَّى قبضتْ نوازع الخير على قلبي، فَشَدَّتْ عليه، وصيَّرَتِ الجوارحُ إلى قِبْلَتِه، فانحلَّتْ عقدةٌ من لساني، وأنصَتُّ إليه فإذا به يقول «اللهم إنِّي أعوذ بك من الخُبُث والخبائث»..

ومـا إنْ فَقِهُـوا عَنِّـي قـولي حتَّـى ارتفعـتْ أصـواتهم بالـصراخ والعويـل، وأخذوا يتدافعون فيما بينهم، يفِرُّ كلُّ امريءٍ منهم بنفسه، لكلِّ منهم ساعةَ إذٍ شأنٌ أغْنَاهُ.. وفي لحظة هي كلمح بالبصر صارت دورة المياه خالية تمامًا من تلك المخلوقات الشيطانية، ولا أدري أين ذهبوا جميعًا هكذا فجأةً، لعلهـم خلـصوا إلـى قنـوات الميـاه والمجـارير فتولـوا وهـم يـضربون وجـوههم وأدبارهم!!..

***

بعد أنْ تغلَّبْتُ على الشياطين في معركة «دورة المياه»، والتي كانت تتكرَّرُ أحداثُها بحذافيرها كلَّما أَرَدْتُ الدخولَ، فكانوا إذا عادوا عُـدْتُ، ودائمًـا مـا كانوا يعودون، هكذا المخلوقُ، يعود دائمًا من حيث أتى وإن أكثر الاغتراب والاحـتراب؛ فطبـائع المـواد والأنفس باقيـة إلـى أنْ يَـرِثَ اللهُ الأرضَ ومـن عليهـا.. بعـد أنْ اعْتَـدْتُ علـى خَـوْضِ تلـك المعـارك بـشكلٍ يـوميٍّ يمَّـمْـتُ وجْهي شَـطْرَ سـاحةٍ أُخْـرَى مـن الـساحات التـي ترتـع فيهـا الـشياطين.. إلـى الطُّرُقات..

أَخَذْتُ أقضي كلَّ يومٍ وقتًا أطولَ في النظر مـن الـشُّرُفات إلـى الطُّرُقـات؛ لأرى كيـف تجـري الأمـور فيهـا، وكيـف يتـشاركها الإنـس والجـنُّ علـى

السواء.. كانتِ الطُّرُقَاتُ ملأى بالجنِّ، حتَّى أنَّ الناظِرَ لَمْ يَكَدْ ليَلْحَظَ الإنْسَ مِن كثرة الجنِّ على اختلاف أنواعهم وأحجامهم وأطيافهم!!.. وكأنَّ تلك المليارات من الإنس التي تعيش على كوكب الأرض ما هيَ إلَّا كتعداد قريةٍ صغيرة استدْبَرَها طاعونٌ فهجرها أهلُها إذا ما قُورِنَتْ بأمَّةِ يأجوج ومأجوج من الجِنِّ!!..

كانت الكلاب السوداء تجوب الشوارع بكثرة، وكذلك العقارب والحيَّات التي كانت تدخل وتخرج من البيوت والحوانيت بحُرِّيَّة وكأنَّهَا ورثتُها!!.. وكان الجِنُّ من مؤمنٍ وكافرٍ يجوبُ الأرض ذهابًا وإيَّابًا، ويتدلَّى العشرات منهم من شُرُفَات المنازل وجدرانها، ويعتلي أمثالهم أسقفَها..

وكان هناك صِنفٌ آخر من الجنِّ يطير في الهواء بأجنحة سوداء كبيرة، أجنحة من الجلد المُخَرَّقِ، وكأنَّها حُرِقَتْ في غير مَوْضِعٍ منها، يَحُطُّ على أسقف المنازل وشُرُفاتها، مُتَشَبِّثًا بها بمخالبَ حادَّةٍ..

كانت تلك المشاهد العجيبة التي كُشِفَتِ الحُجُبُ دونهَا أكثر من أن تُحْصَى، فكُلُّ مشهد منها يحتاج إلى مئات الكلمات لوصفه وحَدِّه، ولو أنَّ ذلك تحصَّلَ لي لما أبقَيْتُ على وجه الأرض ورقةً لَمْ أخُطَّ فيها بيدي حكاية من حكاياهم!!.. ولكنَّنِي خلُصْتُ من جَرَّاء مراقبتي إيَّاهم إلى أمرٍ

هـامٍّ، وهـو أنَّ الإنـسَ والجـنَّ يعيـشونَ جنبًـا إلا جنـبٍ والأوَّلُـون مـنهم لا يكـادون يُـدركون ذلـك علـى النحـو الـذي أرى.. وإنَّ الكثيـر مـن الجِـنِّ يتفـاعلون مـع الإنـس في كثيـر مـن نـشاطات حيـاتهم، فهـم يـأكلون معهـم ويوسوسون لهم ويسكنون معهم، ولا تكاد تُفَارقُ ظلالُهم - إنْ كانـت لهـم ظلال- ظِلَالَ الإنسِ!!..

وممَّا أثارني فيما رأيْتُ أحدُ الكيانات لطيفة الكثافة كالدخان، يحـوم مـن خلف كلِّ إنسِيٍّ رأيْتُـهُ، يأتيه عـن اليمين وعـن الـشمائل، لا يكـلُّ ولا يمَـلُّ، يخنَسُ أحيانًا وهو يـصيحُ في ألَـمٍ، ولكنَّـهُ لا يَلْبَـثُ أنْ يعـود لِمَـا كـان عليـه.. نعـم، إنَّـهُ مَـن أخـبرني عنـه الـشيخان «عيـاض»، مِـن أنَّنِـي لـن أراه في نفـسي وسـأراه في غيـري.. إنَّهـم أقراننـا مـن الـشياطين، كـانوا جميعًـا علـى صـورةٍ واحدةٍ، لا فرق بينهم، وكانت حركتهم السريعة الخفيفـة تلـك أشـبة بديـدانٍ من دُخانٍ تتلـوَّى خلـف الأقفيـة، فبـدتِ الأقـران سـاذجة وضـيعة كمهرجـي الموالد.. وعَجِبْتُ حينئذٍ، كيف للإنسان أن يتأثَّرَ بوسوسة مثل ذلك الكـائن العبيط، أيُمْكِنُ لمِثْل هذا أنْ يأخذَ بناصية المرء إلى المعاصي، ومِن ثَـمَّ إلـى جهنَّم وبِئس المصير؟!! مـا أتْفـهَ القـرينَ ومـا أسـفَهَ مـن أطاعَـهُ!! وإنَّـهُ لَحَـقٌّ لمِثْلِ هذا أن يكون كيدُهُ ضعيفًا..

وفي ذات يومٍ سمعتُ جلبةً خـارج بـاب الـشَّقَّةِ فأخـذتُ أنظـر مـن عدسـة

الباب، فرأيتُ جارًا لي من أولئك المُغَيَّبين الداعمين لأهل الظلم والغَيِّ يفتح باب شقته ويدلف إلى الداخل، وتَتْبَعُه نصف دستة من الشياطين، وهم يتهامسون فيما بينهم ويَبْتَسمون في خُبْثٍ أنْ قد أدركتُمُ المبيت والعشاء.. وأنا أنظُرُ إليه في شفقةٍ، وأقول:

– اذكُرِ اللهَ يا أحمَق.. اذكُر الله يا غافِل!!..



لا تَكُنْ لهم جابيًا..

– الآن أنا مُسْتَعِدٌّ لكي أُرِيَ الظالمين أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون..

هكذا حدَّثْتُ نفسي، وأنا أُتِمَّ ارتداء ملابسي السوداء وأُضَمِّنُها الأغراض التي سبق لي أن ابتَعْتُها.. تلك إذًا هي السبيل التي سأسلكها في مواجهة أهل الباطل، سأقاتل وحدي بعد كلٍّ، غير أنَّني سأحظى بشيء من الحماية من تلك العيون الشريرة التي تترصَّدُنِي في هذا العالم المُوازي.. نعم، قد مسَّنِيَ طيفٌ لطيف من عالم الجنِّ، فأمسيتُ بلُطْفٍ من اللهِ لا أُرَى.. غير أنَّنِي لا أزالُ جسمًا كثيفًا فَقَدَ أحدَ خواصِّه الفيزيائيَّة، فما يقتلُ البشَر قد يقتلني أيضًا، لذا يجب علَيَّ الحرصُ في حركاتي وسَكَنَاتي؛ كَيْ ما أُكْمِلَ الطريق إلى نهايته، عسى أن يجعل الله الخلاص على يَدِي..

كنتُ قد قضَيْتُ أوقاتًا طويلةً من قبل أن يمسَّني من عالم الجنِّ ما مسَّنِي، منذ أن كنتُ أُوالِي الخُطُوات إلى العمل راجلًا، قضيتُ مذَ ذَاكَ الوقت أوقاتًا طويلة في التعرُّفِ على أعداء الأمَّةِ وأدوارهم التي يقومون بها بتَوَكُّلٍ صادقٍ على الشيطان، وجعلتُ لكُلٍّ منهم درجة من حيث خطورتهم وشدَّة إعمالهم في البلاد والعباد، وكذلك من حيثُ قُربهم وبعدهم المكانيّ، وكذا قدرتي على الوصول إليهم..

وبعد أنْ صِرْتُ إلى ماهِيَّتِي التي أنا عليها الآن، تغيَّرَتْ بالطبع بعض التراتيب والتراكيب، فقد أمسى الصعب سهلًا بعض الشيء، وأمسى الوصول إلى الممنوع مُمكنًا الآن.. ولا أحسبُ أنَّ طاقةً بشريَّةً قد تمنعني من الوصول إلى غايتي.. إلَّا أنْ يقضِيَ الله أمرًا كان مفعولًا..

نظرتُ من عدسة الباب لأتأكَّدَ من خُلُوِّ المَمَر أمام شقَّتِي من الجيران، والوقتُ لا يزالُ باكرًا، والعبيدُ يذهبون إلى أعمالهم في خشوع ورهبة، وكأنَّهُم مُنَوَّمُون مغناطيسيًّا.. كان المَمَرُّ خاليًا، وعلى الرُّغم من ذلك فقد سرَتْ رهبةٌ في خلايا جذعي استَوْقَفَتني قليلًا.. ماذا لو لم يُفلِح الأمر؟ ماذا لو كُنْتُ مرئيًّا حتى الآن؟ أيُعقَلُ ألَّا أرى نفسي في المرآة ويرانيَ الخلقُ؟ لا سبيل إلى التأكُّدِ من ذلك إلَّا بالتجربة، فما أن يمُرُّ أحدُهم إلى جانبي حتَّى أدرك حقيقة ذلك.. نظرتُ إلى الشيخين «عياض» على جانِبَيّ، أستَلْهِمُ منهما بعض الإقدام، فألهماني، ومضيتُ إلى الدَّرَجِ، وأخَذْتُ أنزلُ خطوةً تلو أخرى، وأنا أشعُرُ أنَّ وزني قد زادَ أضعافًا كثيرة.. وصلتُ إلى أسفل البُرْجِ السكني الذي أقطنُ فيه دونَ أن أرَى أحدًا من جيراننا.. أتُرَى أين ذهبوا؟ أيكونون هم أيضًا قد عقدوا مع الجنِّ صفقةً فأخفوا أنفسهم؟!! لو تمَّ لهم ذلك لأفسد كثيرٌ منهم وجه الأرضِ.. فكثيرٌ منهم قد باع دينَه ودنياهُ ودينَ ودُنْيَا غيره بدنيا قلة من الطغاة الفراعين..

سَلَكْتُ الدَّرَجَ مرَّةً أُخرى صعودًا إلى الطابق الأعلى في ذاتِ البُرْجِ عَلِّي أعثُرُ على أحدِهم يخرج من داره لِكَيْ يَقِلَّ مِقْدارُهُ.. كما اعتادَ الجميع أن يصنع كلَّ صباح.. فأنا أريد أنْ أتَدَرَّجَ في الخروج إلى العالم الخارجي؛ كي أكون مستعِدًّا لشتَّى المفاجئات والنوازل التي قد أتعَرَّضُ لها..

أخذْتُ في الصعود والنزول على الدَّرَجِ لجَوَلَاتٍ رَبَتْ على العَشْرِ، حتَّى أُصِبْتُ بالإرهاق حقًّا.. ونظرتُ إلى الشيخين «عياض» فلمْ يبدُ عليهما أنَّهُما شَعَرَا بمثلِ ما شعرتُ بِهِ من نَصَبٍ ولا نَصِيفَهُ، فغبطتُّهُما قليلًا لأجل ذلك، حتَّى استَرْعَى سَمْعِيَ صوتٌ يأتي من الطابقِ السُّفْلِيّ.. أسرَعْتُ إلى الدَّرَجِ ونظَرْتُ، فإذَا بأحدِ عُمَّالِ الجِبَايات والمُكُوسِ يصعدُ الدَّرَج بِدَوْرِه إلى أعلى طابقٍ بالبُرْجِ السَّكَنِيّ؛ لكي يبدأ في تحصيل الجبايات من أعلى إلى أسفل، مرورًا بجميع شُقَقِ العمارة..

كانت الجبايات تُفرَضُ على كلِّ شيء في «مملكة العبيد».. الجميع يبذُلُ من مالِه قسْرًا لأجلِ شيءٍ مَّا ولأجل لا شيء، فليس بالضرورة أن تتلقَّى شيئًا في مقابل ما تدفعه أو ما تُغْصَبُهُ.. وإذا أُدِّيَتْ إليك سِلْعَةٌ أو خِدْمَةٌ تساوِي درهمًا فستدفع في مقابلها مائة درهم مع ما يُصَاحبُ ذلك من ذُلٍّ ومهانة وعناء.. كلُّ شيء في «مملكة العبيد» يأتيك مصحوبًا بالمَنِّ والأذى.. كلُّ خدمة تُقَدَّمُ في هذا البلد إنَّما تُؤَدَّى رئاءَ الناس.. لا شيء في سبيل الله ولا

خالصًا لوجهه.. الكلُّ يعلم ذلك، غير أنهم قد يغضُّون الطرف عن مثل تلك المعاني التي من شأنها أن تدفعهم دفعًا إلى الانتفاض والثورة والبحث عن كرامتهم المسحوقة تحت أحذية الطغاة.. وثمنُ العزَّة والكرامة لا تقوى عليه قلوبُهم ولا تستطيعه سواعدُهم..

كانت جبايات الطاقة والمياه من الجبايات التي تُغصَبُ من النَّاس في منازلهم وعُقْر دارهم. فتأتي الجُباةُ إلى الدُّور أوَّلَ كلِّ شهرٍ أو كما يتراءى لهم، فيسألون الناس الجبايات، ولا ينسون أن يُقَرِّعوهم ويُرهبوهم بتَبِعات التَّخَلُّفِ عن أداء الجباية، وكيف أنَّ الشُّرطة تنتظر مهاتفةً على أحَرِّ من الجمر تُبْلِغُهم عن أحد العبيد يزعمُ ألَّا مالَ لديه لأداء الجباية المفروضة على رقبته ورقاب أولاده، أو أنَّ أحدَهم تَلَمَّظَ ومَصْمَصَ شفتَيْه مُسْتَنْكِرًا أثناء أدائه لتلك العبادة التي يجب أن يتوجَّهَ بها خالصًا لوجه الحاكم وزبانيته..

لمْ يكنِ الإشكال يومًا في أداء ثمن الخدمة أو الاعتراف بها، ولكنَّ الأمور لمْ تكُنْ تجري على تلك الشاكلة البديهية في «مملكة العبيد»، كما لمْ تجرِ يومًا في تلك العصور المتأخرة على مراد الله وشريعته.. كان القائمون على أمور العباد يسرقون ثروات الأمة ليل نهار، يبذلون الوُسعَ في سبيل ذلك، ولا يستثنون، يُحَوِّلون مال الله الذي أودعه أرض عباده إلى أرصدتهم في بنوك

الغرب والشرق، ولا يُصِيبُ أهل تلك البلاد إلَّا الفُتات وما لا يسُدُّ الرَّمَقَ.. فتَرَاهم يعيشون على أغنى بلاد الله، وهم أفقر عباده!!.. ثمَّ يُتْبعُ هؤلاء الحكَّام ذلك الفُتَات بكثير من المَنِّ والأذى والإهانة والاستعباد، ويغصِبُون الناس أموالَهم أضعافًا مضاعفةً لأجل ذلك، بينما تراهم أيضًا يبذلون الغالي والنفيس بغير عِوَضٍ إلى أعداء الأمَّة من أسيادهم!!..

ثُمَّ إنَّهم هؤلاء الطغاة قد قَيَّضُوا لجمع تلك الأموال لصوصًا كُثُر، لهم دركاتٌ تتفاوَت فيما بينهم، فكلُّ لصٍّ من هؤلاء يعلوه آخرُ أشدُّ منه لصوصيَّةً وجشعًا، يتواطؤون فيما بينهم على السَّرقة والنهب، والناس لا تُحَرِّكُ ساكنًا من أجل تغيير ذلك المنكر!!.. ويجدُ موقعَهُ في آخر دَرَكَةٍ من دركاتِ السَّرقة تلك.. الجباةُ، الذين يمرُّون على الدُّور والمنازلِ يسلُبون الناسَ بعضَ أموالِهم وكلَّ كرامتهم، وآخرون لا يمُرُّون على الدور والمنازل، بل يسعى إليهم الناسُ في أماكن عملهم سائلين إياهم الخدمات، بأموال أوشكت على النفاذ وتضَرُّعٍ؛ عسى ألَّا يرجعوا إلى أهليهم مسلوبِي الكرامة، إنْ كانوا من أهلها!!..

ومن العجائب أن القائمين على «مملكة العبيد» قد قطعوا الوظائف جميعها إلَّا وظيفة الجباية ووظائف السُّلطة والإكراه، فمنعوا توظيف الناس في كياناتهم الحكومية، وأحالوا الكثيرين منهم إلى التقاعد، وأغرَوْهم بذلك،

وتعدُّوا على كثيرٍ من مُوَظَّفيهم بالرَّفدِ والرَّفْضِ، إمعانًا في تقليل النفقات؛ من أجل زيادة السرقات.. إلَّا أنَّ وظائف الجباية والمكوس هي الوظيفة المبتورة التي حرِصُوا على تغذيتها بالعناصر الجديدة والشابَّة الفَتِيَّة؛ لضمان استمرار النهب، والتطوير من كفاءته وفاعليَّتِه..

وقد قاموا بانتقاء هؤلاء الجباة بعناية، فليس كلُّ أحدٍ يصلح لتلك الوظيفة، بل كان لا بدَّ له أن يكون قاسيًا، محِبًّا للشرِّ، مُقْدِمًا عليه، وأن يكون مِمَّن زاده الله بسطة في الجسم دونَ العلم؛ لكي يُرْهِبَ الناسَ بمظهره، فيَعْرِفُون في مُحَيَّاهُ أنَّ الإهانة والذُلَّ أقرب إليهم من حبل الوريد..

كانَ الجابِي يصعدُ في هِمَّةِ من يُتقِنُ عملَه، فهو يحتسبُ أجره الخبيث عند أسياده.. وقفتُ في مواجهته وكأنَّني أنتوي نزول الدَّرَجِ، فما رآني وسار نحوي عاقدًا العزمَ على إتمامِ ما وُسْوِسَ إليه.. أفسحتُ له الطريقَ فمرَّ حذائي، وأكمل طريقَهُ صاعدًا.. فتَبِعْتُه طول الطريق إلى أعلى، وصاحبتُه مُرُورًا بجميع الشُّقَقِ، وهو يَقْسِمُ لِكُلٍّ منها نصيبَها من الإهانة والوعيد والشماتة والاستخفاف بأحوال ساكنيها..

وَفِي طابقٍ يعلوني بِطَابِقين ضغط على زِرِّ الجرس عدَّةَ مرَّاتٍ مُتَواليات، فلَمْ نلبثْ طويلًا حتَّى سمِعنا صوت المرأة العجوز التي تقطنُ الشقَّة وهي تقول:

- مَن بالباب؟

قالَ متوَعِّدًا، بلهجَةٍ تَدَرَّبَ عليها جيِدًا لكي يبدو أكثر إرهابًا:

- نُوووووووووور!

فتحتِ العجوز البابَ وقالت بصوتٍ تواطأَ على توهينه الإعياء والذُّلِ لعقودٍ تطاوَلتْ عليها:

- كَمْ يا ولَدِي؟

- ألفٌ ومئتان وخمسون فِلْسًا..

دخلت العجوز، ولَمْ تلبَثْ أن عادتْ، وفي يدها بعض النقود الورقيَّة والمعدنية التي لَمْ تفرُغْ من عَدِّهَا بعدُ..

- معي ألفٌ ومائةٌ وسبعون فحسب، وهي كلُّ ما تبقَّى لديَّ من مال الشهر الفائت، وولدي لم يُرْسِلْ إليَّ بحاجتي لهذا الشهر بعد، فلو أنك أتيتني بعد يومين أكُنْ لكَ شاكِرَةً..

وما أن انتهتِ العجوز من كلماتها الرقيقة حتَّى انتفض الجابي وكأنَّ عقربًا لسعَتهُ، وأخذ يُشِيحُ بيَدَيْهِ:

- ومَن تحسبين نفسَكِ؟ أنا لا أعمل عندكِ ولستُ عبدًا لَديْكِ.. «اللي معوش ميلزموش».. وأنا لَن أُعَرِّجَ عليكِ مرَّةً أخرى.. تمتَّعِي بدقائقكِ التالية في ظلِّ الطَّاقة التي لا تستحقينها، فبعد قليل سيأتيكِ أفراد المحاسبة

ليقطعوا عنكِ التَيَّار، ولنْ تستعيديه إلَّا بعد دفع ما عليكِ وزيادة..

وولَّاها ظهرَهُ مغاضِبًا وهو يُبَرْطِمُ بكلماتٍ مِلْؤُها التهديد والوعيد والشماتة، والمرأة على حالها لا تملِكُ من أمرها ولا من أمره شيئًا، فأغلقتِ الباب وهي تشتكي حالَها لدموعها التي ذُرِفَتْ على وجهٍ أنهكتْهُ السُّنون وصَيَّرَتْهُ أخادِيدَ تُخْفِي من الأسَى أكثر ممَّا تُظْهِرُ..

قبَضْتُ يدي على العصا وكِدْتُ أن أُسَدِّدَ بها ضربةً لرأسه فتطيحُ من على عنقه تلكَ، ولكنَّنِي أمسكْتُ عن ذلكَ، وقلتُ في نفسي «لأعمَلَ على حلِّ كُرْبَةِ تلْكَ المرأةِ أوَّلًا».. ثمَّ مَرَرْتُ من أمامه مرورًا لطيفًا، وتَوَجَّهْتُ إلى شَقَّتِي، وسارَعْتُ بالدخول واستَبْدَلْتُ بسُتْرَتِي أخرى لا تَسْرِي عليها تعويذة الشيخ «عياض»، وارتديتُ قفَّازًا أسودَ اللَّوْنِ، وانتظرتُ الجَابي خلفَ باب الشقَّةِ..

لمْ تَمْضِ عشرُ دقائق حتَّى دَوَّى جَرسُ البابِ، ولمْ أنْسَ أنْ أنظُرَ إلى العوامر التي كانَتْ تَغُطُّ في نومٍ عميق وهي متشَبِّثَةٌ بالسَّقفِ، حتَّى إذا ما سَمِعَتْ صوتَ الجَرَسِ فتحتْ أعيُنَها وكشَرَتْ عن أنيابها، ولَمْ أكن قد رأيتُ ذلك السُّلُوكَ منها من قبلُ.. أشَرْتُ إليها أن لَا بأسَ، عودوا إلى نومكم وأنا سأتولَّى هذا الأمرَ..

سألتُ عن الآتِي، فأسمَعَنِي ذات الجوابِ المَهِيبِ:

- نووووووووووور..

فتحتُ البابَ قليلًا بقدرٍ لا يسمح لأكثر من يَدِيَ لتمُرَّ من خلاله، وقلتُ:

- كم؟

- ألفا فِلْسٍ لا ينقصُ منها فلسٌ..

أحسَسْتُ بشماتة في صوته، فتوعدْتُّه في نفسي، وقلتُ:

- لا بأس.. هل مَرَرْتَ على العجوز أمِّ البراء بالأعلى؟

- نعم، تلك الشمطاء لمْ تدفع ما عليها من حقوق للدولة، وسيأتي أفراد المحاسبة ليُنهوا تلك المهزلة اليومَ أو غدًا على أكثر تقدير..

- لا داعِي لهذا.. سأدفع عنها إلى أنْ تتدَبَّرَ أمرها.. بكم تدينُ لكم؟

- ألفٌ ومائتان وخمسون فلسًا..

أعدَدتُ المال اللازمَ خلف باب الشقَّةِ، ومدَدْتُ إليه يدي من الفُرْجَةِ الضَّيِّقَة وأعطيتُه المال وأخذتُ إيصالَ الدَّفع خاصَّتِي والخاص بالعجوز، وأغلقتُ الباب وأنا أسمع الجابي يقول في غيظ:

- سفهاء، يحسبون أنَّ باستطاعتهم التحايل على أسيادهم، وعدم دفعهم مقابل عيشهم وإقامتهم في تلك البلاد.. «فاكرينها تِكِيَّة»!!..

قالها وكأنَّه ليس من جملة العبيد الذين تتكسَّرُ عظامهم ليلَ نهار تحت

مطرقة الطغاة وسندان الجهل والخَوَرِ.. ثمَّ سارَعتُ باستبدال سُترَتي، ونزعتُ القُفَّازات حتَّى صِرْتُ غيرَ مرئِيٍّ كذي قبل، وخرجتُ من باب الشَّقَة وأنا عازمٌ على تلقينه درسًا لن ينساهُ أبدًا، وقلتُ في نفسي..

- والذي نفسي بيده، لَأُرِيَنَّ اللهَ ما أصنعُ بكَ اليومَ..

***

أدرَكْتُهُ وهو بعدُ لَمْ يبتَعِدْ، وكانَ قد انتهى من قصيدة الوعيد التي يُحْسِنُ أداءها لأحد الجيران من أصحاب الأعذار، وأتيتُه من خلفه، وسدَّدْتُ بمِلْءِ كفِّي لطمةً شديده على قفاه، فانحنى جِذْعُهُ الى الأمام من شدَّةِ وفجأةِ اللطْمَةِ، وكادَ أنْ يُكْمِلَ بقيَّة الدَّرَجِ مُتكَوِّرًا على نفسه، غير أنَّه تماسك، والتفتَ في سرعة وغضب شديدين.. كانت عيناه قد صارتَا بلونِ الدَّم من فرطِ الغضب والكِبْرِ، فكيف لمثله أن يُصْفَعَ وهو عامل الجباية؟!!.. نظر خلفه، ولمَّا لمْ يرَ أحدًا أخذَ يتقافزُ في سرعة على الدَّرَج علَّهُ يجدُ ذلك العبدَ الآبقَ الذي صفعه على قفاه..

أخذَ يصعدُ مُتجاوِزًا أربع درجاتٍ في كلِّ وثبة، وهو ينظر يَمْنَةً ويَسْرَة في جنون وغَضَب، ولكنَّهُ لمْ يرَ أحدًا.. أفَلَ نازلًا وهو يُرغِي ويُزبد، متوعِّدًا أهل تلك العمارة بجحيم سيَصُبُّه على رؤوسهم جميعًا، فعليهم أنْ يقدِّمُوا

فروض الولاء والطاعة لأسيادهم من العبيد المُقَرَّبِينَ ذوي الحَظْوَة لدى الحكَّامِ..

أسنَدْتُ ظهري إلى الجدار، حتَّى إذا مرَّ بجانبي صفعتُه مرَةً أخرى على قفاه، ثمَّ أخذتُ خُطْوةً سريعة إلى أعلى.. لوى رقبته حتَّى كادت تنكسر؛ كي ما يرى من ذا الذي يجرؤ على ضربه على قفاه.. ولكنَّهُ لمْ يرَ أحدًا.. وهنا تبدَّلَتْ نظرةُ الغضَبِ والكِبر في عينيه، وحلَّتْ مكانَها نظرةٌ مِلْؤُها الخوفُ والفزع، بعد أنِ استَيْقَنَ أنْ لَا أحَدَ في الجوار.. أخذَ يلتَفُّ حولَ نفسه كالمجنون، وهو يصيح بصوتٍ فَقَدَ فيه نَبْرَة التهديد والوعيد والاستعلاء التي كان يتَمَثَّلُها قبلًا:

- مـ مـ من هناك؟!!

ولا أُخفيكم خبرًا، فقد كنتُ أستمتع بتلقين هذا اللص درسًا يستحقُّه وأضعافه عن جدارة، فهو مجرم وضيع يخدم مجرمًا أشدَّ وضاعةً.. **ولا بُدَّ لأهل الحقِّ إذا ما أرادوا أن يُعيدوا الأمور إلى نِصَابِها الصحيح كما أرادها لهم ربُّهُم، أنْ يُزيلوا عن تلك الوجوه الآثمة ما يعلوها من كِبْرٍ وازدِراء، وأنْ يقطعوا تلك الأيادي الضاربة في السرقة والفساد والإجرام..**

تَبِعْتُهُ وأنا أُكِيلُ إليه اللكمات والصفعات والركلات في غير جزء من

جسده الـذي كـان يتَّكِـئُ علـى ضـخامته منـذ قليـل، وهـو يَـصِيحُ وَيُوَلْـوِلُ كالنساء، وهو لا يكُفُّ عن قولِهِ «بسم الله الـرحمن الـرحيم.. أعـوذ بـالله مـن الشيطان الرجيم»!!..

والعجِيبُ في الأمر أنَّ قرينه من الـشياطين لـمْ يخنس لـه صياح وضُـراط عند سماعه صاحبَه يذكر اسم الله.. ولعـلَّ هـذا بـسبب أنَّـه لـيسَ كـلُّ ذِكْـرٍ لله تتَرَتَّبُ عليه آثارُه، فإذا لم يكن ذِكْرُ الله نابعًا من القلبِ، خالصًا لوجه الله، فلا يبقى له أثر يُذْكر، ولا يَعْدُ كونه صوتًا يخرجُ من حنجرة لا يَقْصِد صاحبُها ما يلفظُ به.. وإنَّ مَثَلَ هؤلاء كمَثَل رجلٍ رفعَ يديه إلى السماء داعيًا، فلـم تُرْفَـعْ دعوتُهُ فوق رأسه شِبرًا..

أَفَلْـتُ راجعًـا إلـى شـقَّتِي، وأنـا أشـعرُ بـسعادة تغمـرني، أنَّنِي لَقَّنْـتُ أحـد أذناب الطغاة درسًا قاسيًا.. نعم، قد لا يكون قد أدركَ الثمرة والعظة من هذا الدرس، ولكنْ من قال بأنَّ هناك مِنْ أحدٍ قـد بَقِيَ باحثًـا عـن مـواطن العـبرة والعظة؟!! لا يكادُ أحدٌ يأبهُ لمثل ذلك وإنْ لُقِّنُوها.. فـإذا كـان الأمـر كـذلك فليتجرعـوا العلقـم، ولْـيَكُنْ خفـاءُ العـبرة والعظـة مـرارةً زائـدة تتقَطَّـعُ لهـا حُلُوقُهم..



... ولا شُرُطيًّا

لمْ يَذَع صيتُ الحادثة إلَّا في أوساط قريبة؛ فمَن ذا الذي يأْبَهُ لجابٍ فَقَد عقله، وأخذ يملأ الدنيا صُراخًا وعويلًا؟!!.. كما ضَرَبتْ هيئة الجباية التي يعمل لديها بأقواله عرض الحائط، ولمْ تأخذ ما قال على محملِ الجَدِّ، بل ونظرتْ إليه بعينِ الشكِّ والاتِّهام، ولمْ تَلْبَثْ أنْ قامت بِفَصْلِهِ وحرمانه من كثيرٍ من حقوقه التي كان يُعَوِّل عليها.. ولم يكُنْ ذلك عجيبًا، فهذا هو شأن المجرمين واللصوص مع بعضهم البعض، تحسِبُهُم جميعًا وقلوبهم شتَّى.. وكَمْ من مُجْرم من أنفسهم عزيز عليهم - أو هكذا كان يحسِبُ نفسَه- قُدِّمَ قُربَانًا وقد افتدَى الآخرون به أنفُسَهم.. هكذا هم دائمًا، أنذالٌ لا عهدَ لهم، ولا كريم عندهم..

وفي الحقيقة لم يكُنْ ما حدث لهذا الجابي هو أوَّلُ أمر أردتُ القيام به، ولكنَّ القدرَ ساقه إليَّ وأوقَفَه في طريقي، فلَمْ أرَ بأسًا من الإقدام، فذَكَرْتُ اسم الله عليه، وكان ما كان.. لذا فقد قضيتُ ليلتي التالية أعِدُّ للتالي منهم على قائمتي ما استطعتُ من قوَّةٍ ومن رِباطِ الجأْشِ؛ لِأُرهبَهم وأُضَيِّقِ الدنيا عليهم، فلا ينبغي للظالم أن يهنأَ أو أن يحسبَ أنَّ الدنيا قد دانَتْ له، بل ينبغي له أن يكون على وَجَلٍ، وأنْ يبقى في حذَرٍ وقَلَقٍ دائمين.. فتمَتَّعُوا قليلًا، إنَّكُم هالكون..

كان مَقَرُّ الأمن الملكي الداخلي قلعةً حصينة بحقٍّ، يحوطها سور يرتفع عن الأرض خمسة أمتار، يعلوه سياجٌ من الأسلاك الشائكة، التي لا يدري المرءُ إنْ كانت مُكَهرَبَةً أم لا.. وتتوزَّع عليه نقاط حراسة على مسافات متساوية ومتقاربة، فلمْ يكن بإمكانِ فأرٍ أنْ يتسَلَّلَ من غير أن يُرْصَدَ ويُرْدَى.. وكانتْ بوَّابَتُهُ الأماميَّةُ ترتفع كمثلِ ارتفاع السور، حديديَّةً لا تُعْمِلُ فيها القذائف نُقْرَةً ولا خدشًا.. يتناوبُ على حراستها مجموعة كبيرة من أفراد الأمنِ المدَجَّجِين بالسلاح والمُتَحَفِّزينَ دومًا..

كانت مهمة الأمن الملكي الداخلي هي رصدُ أي محاولات لزعزعة الاستقرار في البلاد، ومِن ثمَّ القضاء عليها في مهدِها قبل أن يذيع أمرُها ويستفحِلُ خطرها.. فلمْ تكُن معنِيَّةً بالجرائم العادِيَّة والتجاوزات اليوميَّة والسرقات وما شابه، بلْ كانت تَتَرَصَّدُ لأيِّ عملٍ منظَّم يضمُّ أفرادًا كُثُر، فكانوا يراقبون الجمعيات الخيرية والمؤسسات الخاصة والحكومية على السواء، كما كانوا يراقبون دور العبادة، ولا سيَّما المساجد، والتي تُمَثِّلُ لديهم أكثر الأماكن خطورة، فحرصوا على القضاء على رسالتها، حتَّى أمْسَت هي والمراقِص سواء، كلاهما يُميتان القلب ويَصُدَّان عن سبيل الله!!..

وكان العاملون في الأمن الملكي الداخلي يُنْتَقُون بعناية فائقة مِنْ كافَّة

فروع الأمن الأُخرى، ويخضعون لاختبارات قَبول شديدة، أكثرها يعمل على قياس الاستعداد النفسي لدى الفرد.. ومِنْ ثمَّ يخضع مَنْ كُتِبَ له القَبول لدورات تدريبيَّة كثيرة، يتحوَّلُ خلالها من إنسانٍ شِبْه سَوِيٍّ إلى شيطانٍ عاشقٍ للضَّلال ومجرم عاشق للدماء.. وكان هؤلاء يعيشون في حذر دائمٍ وبأسماء وهميَّة، ولا يعرفُ أماكن سَكَنِهم أحدٌ، حتَّى أقاربهم.. وكانوا يعرفون أنَّ اللحظة التي يكفُّون فيها عن حذرهم ذاك، أو التي يتهاونون فيها، هي تلك اللحظة التي يسقطون فيها، وتسقطُ معها دولتهم الخبيثة الظالمة تلكَ..

ارتَدَيْتُ ملابسي وضمَّنْتُها أغراضي، واستودعت الجِنَّ منزلي، واستودَعْتُ اللهَ منزلي والجنَّ، ونزلتُ إلى الشارع لأوَّل مرَّةٍ مُذْ طَرَأ ذلك التحوُّل علَيَّ.. كانتِ الأرض ملأى بالجنِّ، لا يكادُ يخلو منهم موطِأ قدمٍ قطُّ، فكنتُ أمشي في حذر شديد، على أطراف أصابعي، كما يصنع المُهَرِّجُ وهو يمشي على حبلٍ دقيقٍ كالشعرة.. نظرتُ إلى أحَدِ الشيخين «عياض» أنْ دبِّرْنِي يا وَزِير، فالتَفَتَ إليَّ ببُطءٍ معهود وقالا:

– لا تَكْتَرِثْ.. امضِ في شأنِك وكأنَّكَ لا تَرَى شيئًا.. فهم كالهواء، ولَنْ تشعر بمسِّ أحدهم إلَّا أنْ يَتَقَصَّدَكَ..

فكنتُ أمضي في طريقي من غير أن أحيد عنه، وكـانوا أحيانًـا يمُـرُّون مـن خلالي، فلا أشعر إلا بنسمةٍ باردة تُصِيبُ مِنِّي الموضع الذي عبروا منه، ولا يعـدُوهُ.. وكـان ذلـك أمـرًا مُطَّـرِدًا في جمـيعهم، مـؤمِنِهم وكـافرهم، ذوات رُؤوس الجديان والخراف منهم وكلابهم وأفاعيهم وعقاربهم..

لَمْ يكن الجانُّ المؤمن ممَّن أعرف هيئتهم يتوقَّف عندي كثيرًا، بل كـانوا يرمقـونني بغيـر اكـتراث غالبًـا، ولا أدري أمُعتـادون هـم علـى مثـل تلـك الزيـارات بـين العـالمين؟ أمَّـا غيـرهم مـن الجـانِّ الكـافر بأطيافـه، فكـانوا يُسَدِّدُون إلَيَّ نظرات ناريَّةٍ ملؤُهـا الحقـدُ والغـضب، وكانَـت أفـاعيهم ترفـع صوت فحيحها عند رؤيَتي، وأنا أكاد أجدُ لَفْحَ أنفاسـها علـى وجهـي، وكـذا كلابهم كانت تُزَمْجِرُ وتكشف عن أنيابهـا وتَتَّخِـذُ وضـع الاسـتعداد للهجـوم والانقضاض عليَّ.. وشعرتُ في أكثر من مناسبة أنَّ منهم من يَهُمُّ بِـي، لـولا أنْ يلحظَ حارسايَ عن اليمين والشمال، فيمضي في طريقه مُتَغَيِّظًا، كَمَنْ فَقَدَ صيدًا ثمينًا كان للتوِّ بين يديه..

***

وقفتُ لبرهة خارج أسوار مقر الأمن الملكـي الـداخلي، أراقـب الـداخلَ والـخارج.. كان أفراد الأمن جميعهم مُلَثَّمين، فلا تظهرُ منهم سوى أعيـنهم،

وكان هناك بابٌ صغير على يمين البوابة الحديدية الكبيرة، يدخل منه الناس ويخرجون.. انتظرتُ قليلًا حتَّى خلا المكان من داخلٍ أو خارجٍ، ثمَّ توجَّهتُ إلى الباب الصغير، ودخلتُ، لأجد بوابة إليكترونية صغيرة للكشف عن المعادن والأسلحة التي قد يحملها معه الداخل.. فتَوَجَّهْتُ إليها ودلفت منها.. وحينئذٍ دوَّى صوتُ إنذارٍ مرتفع يصُمُّ الآذان، فانتفضتُ وانتفضَ الجميع على إثر ذلك الصوت الذي يستَنْفِرُ مَن له صلةٌ بالأمر ومن ليس له صلة كذلك..

أسرعتُ بالمرور من تلك البوابة الإليكترونية، بينما أخذ أفراد الأمن يدورون حول أنفسهم، وينظرون في كلِّ اتِّجاه، وقد خرج من مبنًى قريب بعض أفراد الأمن الملثَّمين أيضًا وهو يَعْدُون باتِّجَاهِ البوَّابة ويسألون عمَّا حَدَثَ.. وبعد عشر دقائق خلصُوا إلى أنَّ عطبًا مَّا قد ألَمَّ بالمُسْتَشْرات الحِسِّيَّة لدى بوَّابة كشف المعادن، وأنَّهم والدَّولة بأمان!!.. وقد كان الإنذار قد انطلَقَ لِمَا أحملُه معي من أسلحة ومفاتيح وهاتف خلويّ، فليس لأنَّ أحدًا لا يستطيع أنْ يراني أو أنْ يرى ما أحمل أنَّني وما أحمل لسنا هناك!! بل إنَّ بإمكان أيِّ أحدٍ أنْ يلمسنا وأن يمسك بنا، وإنْ لمْ يكن يرانا..

كان هناك مبنًى من طابق واحد على يسار الداخل، يختَصُّ بالمعاملات مع المواطنين الذين يرغبون في استخراج تصاريح عملٍ أو سفرٍ أو إنشاء

شركة أو جمعية، إلى غير ذلك من النشاطات التي يسعى المواطنون إلى تحصيلها.. وكان الناس يدخلون إلى ذلك المبنى ويخرجون منه بشكلٍ طبيعي بعد تفتيشهم وترك بياناتهم لدى الأمن على البوَّابة.. وبالطبع كانت هناك الكثير من العيون الإنسيَّة والإليكترونية تراقب هؤلاء الداخلين والخارجين عن كثَبٍ، فلم يكُن أحدٌ منهم يستطيع أن يخطوَ خطوة إلَّا بعد الحصول على موافقة أحد أفراد الأمن المنتشرين في كلِّ مكان..

بينما استقر على يسار الداخل مبنًى آخر من خمسة طوابق، يقطع الطريق إليه مجموعة من أفراد الأمن، الذين يُوحي مظهرُهم الجادُّ أنَّ المرور من هنا محظور ومحفوف بالمخاطر كذلك.. فليس من أحدٍ يمُرُّ من خلالهم إلَّا أنْ يكون أحدَ رجلين، إمَّا أنْ يكون مسموحًا له بالبقاء أو أنْ يكون ممَّن كُتِبَ عليهم الفناء..

تجاوزتُ أفراد الأمن هؤلاء واتَّجَهْتُ إلى ذلك المبنى، وانتظرتُ حتَّى فتح أحدُ المُلَثَّمين الباب ليخرجَ، فسارعتُ بالوُلوج قبل أنْ يُغلَق ثانيةً.. كانت هناك قاعة استقبال، أو هكذا بَدَتْ لي، بها الكثير من المقاعد التي جلس عليها مجموعة من الرجال مغطَّاةٌ رؤوسهم، مُكَبَّلَةٌ أياديهم خلفَ ظهورهم، يجلسون في سكينة ووقار وكأنَّ على رؤوسهم الطير، لا يلتفتون ولا يتبادلون الحديث.. وكيف يفعلون ذلك وهم لا يكادونَ يرَوْنَ شيئًا..

لم يكنْ مسموحًا لأحدٍ مهما كان أنْ يدخل ذلك المبنى غير معصوب العينين، فهنا يعمل كلُّ الرجال السِّرِّيِّين الذين يحفظون الدولة من السقوط، ولا بُدَّ لأمثال هؤلاء أن يعملوا في أكثر الأماكن سِرِّيَّة وتأمينًا.. فكانوا لا يكتفون بعَصْبِ عيون الداخلين فحسب، بل كانوا يُدخِلون رؤوسهم بالكامل في أغطية قماشيَّة سوداء لا تُنفِذُ الضوء ولا تَشُفُّ ما وراءها؛ حتَّى لا يتمكَّن أيُّ شخصٍ من معرفة أيَّ شيءٍ بالداخل..

ارتسَمَتِ ابتسامة ساخرة على وجهي؛ فها أنا ذا أدخل إلى عُقر دارهم، وأطَّلِعُ على أسرارهم، وهم لا يملكون من أمري شيئًا، فإنَّهمْ دائمًا يمكرون، ويمكُرُ الله وهو خير الماكرين، فهو مُدَبِّر الأمر والقادر على أنْ يأتيهم ما كُتِبَ لَهم من حيث لا يحتسبون..

لمْ يكن المكان أيضًا خليًّا من الجنِّ، غير أنَّ جميع أطياف الجنِّ الذين رأيتهم في ذلك المكان إنَّما كانوا من جنس الجانِّ الكافر، كما في دورة المياه لديَّ، أفاعٍ وعقارب وكلاب وجانٌّ برؤوس جديان وخراف، ذوُو عيون ولا أعيُنَ لها.. غير أنَّ الجانَّ هنا كان أكبر بكثير من ذلك الذي لديَّ، ولا أدري أهؤلاء أَسَنُّ من أولائكَ أمْ أنَّهم أوْضَع قدرًا وأسفَلَ منزلةً؟!! والشيطان كلَّما ازداد وضاعةً وسفالةً ازداد قَدْرُهُ وقدرتُه، وذلك على العكس من أهل الصلاح والفلاح في عالم الإنس والجنِّ على السواء!!..

كان أفراد الأمن بالداخل غير مُلَثَّمين؛ فلا حاجةَ لهم في ذلك.. فرُحْتُ أَتَفَرَّسُ في ملامحهم وقَسَمات وجوههم؛ علِّي أعثُر على ذلك الفارق بينهم بين سائر بني آدم!!.. ولكنَّني لمْ أجد ما صَبَوتُ إليه في وجوههم وأجسادهم، بل كان ذلك أمرٌ وَقَرَ في قلوبهم وعقولهم، فقد كانت لهم قلوب لا يؤمنون بها وعقول لا يفقهون بها.. في صدورهم مُضْغَةٌ مُنتِنةٌ، لا يخرجُ منها إلَّا الشَّرُّ.. كانوا لا ينادون بعضهم البعض إلَّا بأسماء مُفْردةٍ لا نِسْبَةَ فيها، وكانوا يعتمدون على إشارات أيديهم وإيماءات رؤوسهم في التواصل مع بعضهم، ولمْ يكونوا يتحدَّثُون فيما بينهم إلَّا همسًا..

مكَثْتُ غير بعيد حتَّى أتى أحدُ أفراد الأمن واقتاد أحدَ هؤلاء المُكَبَّلين من ذراعه، وقادَهُ إلى أحدِ غُرَفِ التحقيق.. تَبِعْتُهُما مُسْرِعًا ودخلتُ معهما الغرفة..

وَقَعَ بصري أوَّلَ ما دخلْتُ على ماردٍ ذِي مظهر مرعب، لمْ أكُنْ قد رأيتُ مثيلَه من قبل.. كان أسودَ طُوالًا ذا عينيْنِ ناريَّتَيْنِ، له أظافر طويلة سوداء، تتَّصِّلُ بأصابع شديدة النُّحول، وكان يفغُرُ فاهُ من آنٍ لآخر ليُخْرِجَ لسانًا أسودَ طويلًا فيلعق به وجه الإنسيِّ الجالس إلى جواره، فإذا فعل ذلك امتلأ وجه الإنسِيُّ بالدماء التي تظلُّ تقطُرُ من وجهه، حتَّى إذا جفَّتْ وزال أثَرُها أعاد الماردُ الكَرَّةَ..

وما أنْ رآنِيَ الماردُ بصحبة الشيخين «عياض» حتَّى زَمْجَر وكشَّرَ عن أنيابٍ حادَّةٍ لامعةٍ سوداء، ونظر إلى ثلاثتنا في غضب، وسالتِ الدماء بغزارة من أشداقه فملأت ما بين قدميه، فأسرعت بعض الكلاب السوداء والحيَّات التي كانت تَجُوبُ أرجاء الغرفة بلعق تلك الدماء في شراهة ونَهَمٍ..

أمَلْتُ رأسي إلى الشيخ «عياض» الذي عن يميني دون أن أنظر إليه، وقلتُ:

- من هذا الشيطان؟ إنَّه ليس بالقرين.. فها هو ذا القرينُ كما اعتَدْتُ عليه!!..

- إنَّه أحدُ المَرَدَةِ الذين كلَّفَهُم «عزازيل» بمساعدة الأقران والإشراف عليهم.. ولا يَدْفَع بأحدهم إلَّا لأمر جلَلٍ ولِمَنْ يُتَحَصَّلُ منه على فساد عظيم..

كان هناك رجلٌ قد انتصف العَقْدُ الخامس من عُمُره، وبدأ الشيب يزحف على شعره، كان يجلس خلف مكتب خشبي صغير، لا يعلوه شيءٌ غير ملَفٍّ به بعض الأوراق التي سُطِرَت فيها بعض الكلمات والتقارير عن هذا المُكَبَّل الذي سِيقَ للتحقيق.. وكان أمام المكتب كرسي خشبي واحد، لمْ يبدُ عليه أنَّهُ قد وُضِع لراحة مَن أُرِيد به الشقاءُ..

أشار ذاك الجالسُ، وهو أحد ضبَّاط التحقيق، إلى فردِ الأمن أنْ أجلِس هذا البائسَ، فأخذَ الشُّرطيُّ الرَّجُلَ من ذراعه وأجلسه على الكرسيِّ.. كان صدر الرجل يعلو ويهبط وكأنَّهُ ينازع من أجل التقاط أنفاسه.. قال المُحَقِّقُ بصوتٍ ودودٍ خفيض:

- كيف حالك يا «حسن»؟

- الحمد لله بخير حال.. في فضلٍ ونعمة..

- لا تؤاخذنا، فأنت تعرف التدابير الأمنية.. بضع دقائق فقط وتعودُ إلى أهلك وبيتك..

لمْ يُعَلِّقْ «حسن» على قول المُحَقِّقِ ولمْ يُؤَمِّن، فمن ذا الذي يُصَدِّق أحاديث المُحَقِّقِين ووعودهم ودعاويهم؟!!.. بل ازدرد لعابه في صعوبة، وهو يكاد يعرف أنَّهُ لنْ يرَ الطَّريق مرَّةً إخرى إلَّا بعد رحلة من العذاب، قد خطا أُولَى خطواته فيها للتَوِّ..

- قد علِمنا أنَّكَ أعطيتَ درسًا في المسجد المجاور لمنزلك يومَ الخميس الفائت بعد صلاة العشاء..

- نعم، كانت كلمة قصيرة للتذكير بالله.. ليس إلَّا..

- ومن كلَّفَكَ بأنْ تُذَكِّر الناس بالله.. أنا أتذَكَّرُ أنَّنا قد حذَّرناك من ذلك،

ولكـن يبـدو أنَّـكَ تنسى سـريعًا، وترغـب في أن نُـذَكِّرَكَ نحـن ثانيـةً.. ألـيْس كذلك؟

- لا.. لقد ظنَنْتُ أنَّ كلمة قصيرة لنْ تضُرَّ..

- نحن الذين نقَرِّرُ ما هو الذي يضُرُّ وما قد ينفع، وليس أنت.. ثُمَّ إنَّه مَن أخبرك بأنَّ الناس تحتاج إلى تذكير بالله؟

- الناس دائمًا تحتاج إلى مثل ذلك، مَن منَّا لا يحتاج إلى دوام التذكِرة والإعانة عليها؟!!..

- بل أنتم فقط الذين تحتاجون إلى مثل تلك التَّذكِرة، فقط الضُّلَّال من أمثالكم يعتقدون أنَّهم المهديون فحسب، وأنتم غارقون في الجهل والخيانة إلى آذانكم، وتحسَبُون أنَّ الناس جميعًا مثلكم..

لَمْ يُجِبْ «حسن» ولَمْ يُعَقِّبْ؛ فقد تَعَلَّمَ أنَّ الكلام لا يؤتي ثماره مع أمثال هؤلاء، وأنَّ الحقَّ مع السُّلطة وإنْ كانت كافرة، وأنَّ الخيانة والضلال إنَّما هما من حقِّ الضعيف والفقير وإنْ كانا من أنبياء الله المُرسَلِين.. أخذ المُحَقِّقُ يعبثُ بقلمه بين أصابعه على سطح المكتب، وهو لا يُشِيحُ بوجهه عن وجه «حسن» المغَطَّى، والذي لا يُبْصِر أمامه..

- لا عليك.. فقط أرَدْتُ تَذْكِرَتَك، وأنا أعلم أنَّك لن تعود لمثلها بعد

الآن.. إنَّما أرَدْتُك لأمر آخر..

صمت لدقيقة كاملة، غير أنَّها مرَّت على هذا المسكين الجالس أمامه كدَهْرٍ، فازداد صدره عُلُوًّا وهبوطًا، والمُحَقِّقُ اللعينُ يلحظ ذلك ويبتسم في شماتة وتَلَذُّذٍ..

- هل علِمتَ أنَّ شقيق زوجتك «أبا يحيى» قد عاد من الخارج؟

- لا.. لا أعلم ذلك..

- كيف ذلك يا رجل وقد جاء لزيارتكم في اليوم التالي لعودته؟!

- نعم.. أعني.. لقد جاء لزيارتنا، ولكنَّني لا أعلم أين هو..

- «حسن» أنا أحبك، وأنت تعلم أنَّني لا أحب أنْ أسمع كلمة لا أعلم تلك قطُّ.. لا بدَّ وأن تقول شيئًا حتَّى وإنْ كنت لا تعلم، فقط لا تقل «لا أعلم»..

- وماذا يمكنني أن أقول؟ لو أنَّني أعلم حقًّا لأخبرتكم، طالما أنَّكم تعلمون بعودته وكذلك بزيارته لنا فأنتم أقدر على العثور عليه منَّا..

تلَمَّظَ المُحَقِّقُ ومصمص شَفتيْه، وأطرق بوجهه إلى سطح المكتب، وقال:

- لا بدَّ أنَّ زوجتك تعلمُ إذًا..

انتفضَ جسد «حسن»، وتَصَلَّبَ بعد أنْ سمع المُحَقِّقَ يُهدِّدُهُ بزوجه، فهو يعلم ما قد يُقدِمِ أمثالُ هؤلاء على فعله بامرأته، فإنَّهم خُلِقُوا ممَّا خُلِق منه إبليس، وإنْ زَعَمُوا وبَدَوْا على خلاف ذلك..

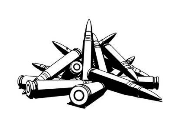
- لكن قبل أنْ أسألها بنفسي عن ذلك، سأتركُكَ وحدكَ عسى أنْ تتذَكَّر أين نزَل «أبو يحيى» بعد عودته.. هذا فقط لأنني أُحِبُّك..

وأشار المُحَقِّقُ بيده إلى الشُّرطِيّ، الذي قبض على ذراع «حسن»، فأنهضَه، وقاده إلى خارج الغرفة.. خرجتُ خلفهما مسرعًا، وكان «حسن» يمشي بصعوبة بعد أنْ تمكَّنَتْ منه الظُّنون، وقال بصوتٍ خافتٍ سائلًا الشُّرطيّ:

- إلى أين تأخذني؟

لم يرَ «حسن» الابتسامة التي ارتسمت على وجه الشرطيّ، ولا شَعَرَ باللَّذَّة التي أخذت بمجامع قلبه، وهو يقول:

- إلى السلخانة يا حبيبي!!..



شيءٌ مّا تركوه بالدَّاخل

نزل بنا الشُّرطيُّ المُكَلَّف بإكرام ضيفه وإنزاله مُنْزَلَه الذي يليق به، نزل بنا إلى قبوٍ عَطِنٍ لا ينتمي إلى هذا العالم البرَّاق الذي يعلوه، وكأنَّ الباب الذي عَبَرْناه للتوِّ يصلُ ما بين عالَمَين بينهما من القُرُون ما الله به عليم.. كان مَمَرُّ السُّلَّم ضيِّقًا، لا يكفي لأكثر من شخصين متلاصقين لكي يُمَكِّنا من اجتيازه على مَضَضٍ، ولم يكُن الشُّرطِيُّ ليسمح بأن يحتكَّ كتفُه بجدار الممرِّ العطِنِ الرَّطبِ ذي الطِّلاء المتآكل.. فكان يترك بينه وبين الحائط مسافة آمنة، بينما يقوم بسحلِ المسكين على الحائط الآخر، فلم يَكَد يَصِل إلى الغرفة التي يُطلِقون عليها السلخانة إلَّا وقد استحال غطاء رأسه الأسود إلى اللون الأبيض، وكذا جميع ما عليه من ثياب، وكأنَّه قضى يومه يعمل جمَّالًا للرمال والحجارة!!..

قادَنا السُّلَّم الهابط إلى ممَرٍّ ضيِّق هو الآخر، لا يَفْضُلُ على مَمَرِّ السُّلَّم بشيء.. كان ممَرًّا طويلًا تتجاور فيه على جانبيه غُرَفٌ كالزَّنازين – وهي كذلك– لها أبواب حديدية صدئة، بها طاقة علوية تفتح إلى جهة الجانب بمجرًى خاصٍّ بها، فهي مُصْمَتةٌ كقلوب سجَّانيها.. وكان المَمَرُّ مُضَاءً بعدد قليل من المصابيح ذات الإضاءة الصفراء.. فأضفت على المكان كآبة شديدة، تُضَافُ إلى ما ينضحُ به كلُّ شِبْرٍ في هذا المكان.. ولعلَّ من فوائد

القناع والعصابة اللذَيْن يُجْبَرُ المُعَذَّبُون على ارتدائهما أنَّه لا يرى تضاريس المكان الذي يُقَادُ إليه؛ فإنَّ منظرًا كهذا كفيلٌ بأنْ يُولِّدَ في قلب المرء نوازع اليأس ودوافع الانتحار..

ولكنَّ فقد البصر لا يعني بالضرورة فَقْد البصيرة، فإنَّ مَن كُتِبَ عليهم النزول إلى ذلك القبو لِيَحُلَّ ضيفًا في أحد تلك الزنازين، وإنْ لَم يكُن يرى ما هو مُقْدِمٌ عليه، إلَّا أنَّه يرى أكثر من ذلك بقلبه، فالقلبُ لا يَكُفُّ عن قرع طبوله، وكأنَّه يَوَدُّ أنْ يُنْذرَ صاحبَه من الخَطَرِ المُحْدِق الذي حُجِبَتْ عينَاه عن رؤيتِه.. وهل يرى القلبُ؟ هل للقلب عينان يستعيض بهما المرء عن عينيه اللتين في رأسه؟ أتكون عيون القلب أصدق من عيون الرأس؟!!..

أوقف الشرطيُّ البائسَ، ودفعه بغِلظَة إلى الحائط، وقام بمعالجة مِزْلاج الباب الحديديّ، فأصدرَ صريرًا تصطَكُّ له الأسنان وتقشعر من حِدَّتِه الأبدان.. إنَّ كلَّ شيء في هذا المكان قد صُمِّمَ من أجل أن يدمِّرَ المغضوب عليهم والضَّالين ممَّن لم يستسِغْ الملِكُ وزبانيتُه رأيَه أو مرآهُ.. ولم يغفُلوا عن شيءٍ فيه قطُّ.. فلَوْن الطِّلَاء الذي كان يَحُلُّ قبلًا على الحوائط رمادِيٌّ قاتمٌ في أثَرِه وإنْ لم يكُنْ قاتِمًا في شكله، قد اعترضته آثارٌ أشدُّ سوادًا، هي ظلالٌ لأيادٍ وأصابع لمساكين اقتِيدُوا من قبلُ.. أتُرَاهم كانوا يستغيثون به عسى أن ترقَّ لهم تلك الحيطان فتحجزُ بينهم وبين دخول المسلخة؟!!

ولكن في كلِّ مرَّةٍ كان الطِّلَاء يخذُلُهم ويستساقط تحت جذَبات أصابعهم اليائسة تاركًا إيَّاهم لمصيرهم المحتوم..

دَفَعَ الشُّرطيُّ الباب فأصدر صريرًا آخر اصطكَّت له الأسنان وانخرَقَتْ له الآذان واقشعرَّتْ له الأبدان، يا ليت لي قلبٌ كقلب الشيخ «عياض»، فلمْ يبدُ عليه أنَّه يكترِثُ لا كثيرًا ولا قليلًا لما يجري حولنا.. نعم، إنَّ كلَّ هذا لا يُدانِي في قساوته ورهبته مشهدًا واحدًا في عالم الأطياف، هذا العالم الرَّهيب الذي تتصارع فيه الغيلان والعفاريت ولا نكادُ نحن بنُو آدم نرَى منه إلَّا القدر الذي يراه النائم في كوابيسه، فالكوابيس هي الأوقات الأكيدة التي تقوم فيها العفاريت بزيارة الإنس ومباشرته.. دفع الشُّرطيُّ «حسنًا» إلى داخل الغرفة، فكاد أنْ ينكفِأَ على وجهه، وهو مُقَيَّدُ اليديْنِ والقدَمَيْن..

- ابْقَ هنا.. لا تَقْلَقْ، سَنُكْرِمُ وفادتكَ عن قريبٍ..

وانصرَف اللَّعينُ وهو يُقَهْقه وكأنَّه قد أهدَى قلبَه ما به تزُول الهموم وترتفع عن مثله الكُرُبات.. وقف البائس في منتصف الغرفة التي لم يكُنْ يدري ما أبعادُها.. وقف وهو يرتجف وقد أبَتْ ركبتاه إلَّا أن تنكسرَ قليلًا، حتَّى بدا بمظهرٍ مثير للشفقة.. ليس هذا بحال من كُسِرَت ركبتاه، بل كُسِر قلبُهُ، كُسِر بأسُهُ.. ولكن هل تُكْسَر عزيمته وعنادُهُ؟.. هل تكسر تضحيتُهُ

وإيثارُهُ؟.. هل يُكْسَر إيمانُهُ؟!!..

قليلـون هـم الـذين يخرجـون مـن مفـارز الأمـن الملَكِـي الـداخلي كمـا دخلوا، على ما كانوا عليه من بصيرة وعقيدة وعزيمة وإيمـان.. كثيـرون هـم الذين يخرجون وقد فقدوا شيئًا.. شيءٌ ما تركوه بالـداخل.. وكـأنَّ تـرْك هـذا الشيء هو ضريبة لا بُدَّ مـن تقـديمها مـن أجـل الخـروج مـن هـذا الجحيم.. فقط عليه أن يختار ما يـترُك.. والجـلَّادون كـانوا متسامحين كثيـرًا في ذلـك؛ فلـم يكـن أحـدٌ منهم يُجْبِرُ المُبْتَلَى علـى تـركِ شـيءٍ لا يرغـب هـو في تركـه والتخَلِّي عنه.. بعض البائسين تركوا ما أُرِيد منهم مـن معلومـات عـن شـيْءٍ مَّا.. بعضهم تركَ اعترافاتٍ على أُمور لم يفعلوها بالـضرورة.. بعـضهم تـرك جزءًا من أجسادهم أو قدرًا من دمائهم لمْ تَتَشَرَّبه الأرض، لا لأنَّهـا تـأبَى أن تشرب من دماء الأطهار والأبطال، فـالأرضُ التي تقبـل أن يُقـام عليهـا مثـل تلك المؤسسات المجرمة هي أرضٌ آثمة كقلوب الزبانية.. وأرض الزنازين لا تشرب دماء الضحايا لتكون دماؤهم عبرَةً لمن يأتي من بعـدهم، إمعانًـا في تعذيبهم، فرائحة الدماء لا تثير الغثيـان فحـسب، بـل إنَّهـا تستحضر المـوت ليكـون شـاهدًا علـى مـا يحـدث، فملائكـة المـوت تـزور مثـل تلـك المفـارز الأمنية على الدوام، وكأنَّهم وزبانيـة المـوت مـن الجلاديـن علـى وفـاق.. أو هكـذا يظـنُّ الأخِيرُون.. ولكـنهم لا يعلمـون أنَّ المـوت سيأتي يومًـا مَّـا مـن

أجلهم هم لا من أجل من استقووا عليهم بالباطل، وعندها لنْ يجدوا من دونه موئِلًا.. ولن يُغْنِيَ عنهم ما كان بينهم من تعاون فيما خلَا.. فذات الملائكة التي كانوا يراقبونها في تَلَذُّذٍ وهي تقبض أرواح ضحاياهم ستزورهم مِن غَدِهِم لتقبض أرواحهم، يومها ستدور أعيُنُهم في محاجرها تبحث عن مخرجٍ، تبحث عن ثانية هنا أو هناك يظنُّون أنَّها لا تزال مسطورة في كتاب أعمارهم، علَّهم يدفعون بها عن أنفسهم ملائكة الموت قليلًا حتَّى يستكملوا ما حسبوه من أعمارهم.. يومها ستجحظ أعينهم وملائكة الموت تقبض على أعناقهم وتخنق الحياة فيهم، فلا تتحرَّكُ ألسنتهم إلَّا بحشرجات لطالما استمعوا لمثيلاتها تخرج من حناجر وألسنة الضحايا من أهل الحقِّ.. ستأتي الملائكة يومًا من أجلهم.. ملائكةٌ سود الوجوه..

بعض أولائك البائسين ترك بالداخل عزيمته، ترك إيمانَه.. فالعزيمة إيمان.. وفاتر العزيمة لا يُؤمن، وإنْ زعَمَ غير ذلك.. بعضهم يكفر تحت وطأة التعذيب بما كان به مؤمنًا قبل قليل.. قد يتردَّدُ حينًا بين الثبات والنكوص، وقد تميل الكِفَّة به مرَّاتٍ عديدة، وقد يغفو على ثباتٍ لِيَفيقَ على نكوصٍ.. قد يتخلَّى عن إيمانه في إغفاءةٍ، وقد يخرجُ إيمانُه مع صرخة خرجت من القلب فدَوَّى بها اللِّسان.. قد يحاول مِرَارًا أن يستعيد عزيمته تلك وإيمانه الذي خرج رُغمًا عنه، قد يستطيع إنْ كان إيمانُه لم يبتَعِد بعد..

ولكن إنْ ابتعدَ فإنَّ شَيَاطين الجنِّ السَّاكِنِينَ أبَدًا في غُرَفِ التعذيب تتلَقَّف ذاك الإيمان وتَلُفُّه بِخِرَقٍ بالية من الشُّبهات والشهوات من دعاوَى حفظ النَّفس أو المال أو أحكام الضرورة، فتُعِيدُ ذلك الإيمان إلى صاحبه مُشَوَّهًا قد فَقَد قُوامَهُ وما به اعْتُبِرَ إيمانًا، فيتَلَقَّفُه المسكينُ مُتَلَهِّفًا كما يَنْكَبُّ الظَّمْآنُ المُوشِكُ على الهلَاك على كأسٍ فيها ماء باردٌ رقراق، أو كغريق آيَسَ من النَّجاة في بحرٍ تلاطَمَتْ عليه أمواجُه واكتَحَلَتْ سماؤة بالسواد، حتَّى إذا كان على شَفَا جُرْفِ الموت وَجَدَ طوقَ النَّجاةِ يَمْتَدُّ إليه، فيحتضنه كما يحتضن المقتول شوقًا قاتِلَه.. فيدخل قلبَه إيمَانٌ غير الذي خرج منه، وتستقرُّ في جنبات روحه عزائم على أضداد ما اعتاد ذهابَها ورواحَها في صدره.. فيخرج من تلك المفارز الأمنية خلقًا جديدًا، آمِنًا مطمئنًّا، مواطنًا شريفًا من مواطني «مملكة العبيد».

بعضهم قد يأبى ذلك، أولئك تكون عزائمهم كالجبال، وإيمانُهم راسخ، تستقر أركانه في أطهر البِّقَاع، التي غرس فيها الأنبياء والصالحون بذور التوحيد مِن قبلُ.. أولئك لا يهتزُّ إيمانُهم، ولا تنحرف بوصلتهم عن الحقِّ في الأرض وقد وجَّهها الحقُّ سبحانه لهم من فوق العرش في السماء السابعة..

إنَّ هذا الصنف الأخير من البَشَر إنَّما هُم مناراتٌ ربَّانيَّةٌ قد رَكَزَها الله

للناس في الأرض؛ ليهتَدُوا بهم في ظلمات الفِتَن، وحين تتلبَّد سماء الحقِّ بغيوم الضَّلال.. هؤلاء كانت معادلتهم بسيطة، لم يُطِيلوا التدَبُّرَ والتفكير حين جَثَمَ على صدورهم البلاءُ، فأمر الأمة اليومَ - ككُلِّ يومٍ- يدور حول حقٍّ وباطلٍ، يدور بينهما الخلق بقلبٍ وعقلٍ وجسدٍ وروح.. أمَّا القلب والروح فليس لأحدٍ من غير الله عليهما سبيلٌ.. هما لله وبالله.. فلا يطَّلِعُ على مكنونات الصدر وحياة القلب إلَّا خالقُه، أمَّا الروح فهي من أمرِ ربِّي.. فإذا سلَّمْتَ عقلَكَ لقلبِكَ وكان قلبُك مع الله، فمَن ذا الذي يَسْلُبُك إيَّاه.. هيهات هيهات.. فليجهدوا على ذلك إنِ استطاعوا..

وإنَّما يبقى من بعد ذلك الجسد.. فليأخذوه إنْ أرادوا، فإنَّه بما فيه عاريةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ.. قد أذِنَ الخالقُ لنا فيه من أجلِ أنْ يودِعَ فيه قلبًا وروحًا، فإنْ لم يكُن القلب لله والروح مُعَلَّقَةٌ به فما فائدة الجسد إذًا؟!!.. حُجَّةٌ على صاحبه.. وإنْ كان القلبُ مُعَلَّقًا بالله والروح تسمو إليه وتتَّصِلُ به فما ضرَّ فَقْدُ الجسدِ شيئًا.. إنَّما تتسامَى الأرواح لا الأجساد، فالجسدُ يخلُدُ إلى الأرض والروح تصعدُ إلى خالِقِهَا..

آثَرَ هؤلاء أن يتركوا أجسادهم نُهْبَةً للزبانية، فضَحُّوا بلحومهم ودمائهم وأعراضهم من أجلِ أنْ ترتقي أرواحهم إلى من ملَكَ عليهم شغاف قلوبهم، ترتقي في ثوبٍ أبيض حريريٍّ، أرواحٌ مُنَعَّمَةٌ لا يلحَقُها أذًى ولا يَمَسُّها من

لُغُوب.. أمَّا الأجساد، فما بالُهَا؟ قد كانَت وعَاءَ الروح فتلفت الأجساد وصَحَّتِ الأرواح..

***

مَكَثْتُ في غرفة السلخانة أراقبُ شياطينها المتدلِّين من سقفها، وأولئك الغادين والرائحين من ركنٍ إلى آخر، والزاحفين على أرضها.. لمْ أرَ مُذْ وَطِأت قدمَيَّ داخل أسوار الأمن المَلَكِيّ إلَّا شياطين الإنس والجنِّ، لَمْ يَكُنْ ثَمَّ جانٌ مؤمنٌ قطٌّ، وكأنَّهم ينأوْن بأنفسهم عن مواطن السَّخَط والعذاب.. فإنَّ اللَّبِيب من فارق أهلَ الباطل وابتَعْدَ عنهم ولَمْ يَقْرَب مواطنهم، حتَّى إذا أراد الله بهم سوءًا أو سلَّطَ عليهم جُنْدًا من جنوده، لم يلحَقْه ممَّا يصيبُهُم مَسٌّ.. فإنْ كان ولا بُدَّ من مخالطَتهم فإمَّا أنْ يكون داعيًّا أو مجاهدًا، فيُعمِلُ فيهم لسانَهُ أو سِنَانَهُ..

لَمْ يَكُن «حسن» يرى ممَّا أراه شيئًا.. فلو أنَّه رأى ما أرى من غير أنْ يُحَصَّنَ لمَا كان للزبانية حاجةٌ في تعذيبه؛ إذْ تعذيب الميِّتِ لا جدْوَى منه.. وحرامٌ..

بعد فترة وجيزة أعلَنَت رِجْلَا «حسن» العصيان، فخَرَّ من مكانه، وجلس على الأرض، مُنكِّسًا رأسَهُ، يُهَمْهِمُ بكلمات تسارعت على شفتيه، وكأنَّهُ

يريد أنْ ينتهي منها سريعًا قبل أن يقتلعوا لسانَه..

كانت الغرفة خاوية إلَّا من كرسيٍّ حديديٍّ مُثَبَّتٍ بالأرض؛ كي لا ينكفِأَ بصاحبه عندما يَصِلُون به التيَّار الكهربائي، فتنتفض من قسوته الأجساد، ويُرَضُّ من عنفوانه اللحمُ والعظمُ، وترتعد من سَوْرَته الفرائص.. كانت هناك العديد من الحلقات المعدنية التي تتدلَّى من السَّقف، والتي كانت الشياطين أحيَانًا ما تتقافز عليها متأرجحةً كالقرود، وكأنَّها في ملَاهٍ.. فإنَّها إنَّما تلهو وترتع في مواطن النَّجَسِ والضَّلَال.. بعض تلك الحلقات كانت تتدلَّى منها حبالٌ غليظةٌ خَشِنةٌ قد رُكِزَتْ فيها المسامير؛ حتَّى إذا ما رُبِطَ بها المُعْتَقَلُون غُرِسَتْ في جلودهم ولحومهم؛ إمعانًا في قهرهم وتعذيبهم.. بينما استقرَّت إلى جوار الحائط من يسار الغرفة منضدةٌ معدنيَّةٌ مرتفعة، عليها الكثير من الأدوات المعدنية والخشبية، كالمطارق والمناشير والكلَّابات والمِقْصَفَات وبعض الخناجر والقُضْبان المعدنية الصدئة، منها كبير وصغير، بعضها ذوات طرف مُدَبَّبٍ، وبعض الكابلات المعدنية والبلاستيكية، وسوط جلديٌّ ذو طرفٍ معدِنيٍّ مُدَبَّبٍ كرأس الحربة.. وكان هناك أحدُ الشياطين يجلس على طرف المنضدة ويتدلَّى ذيلُهُ عنها، يكاد يلامس طرفُهُ الأرضَ.. كان هذا اللعين يمسك بكلِّ أداةٍ من تلك الأدوات في يده فيُمْعِنُ النَّظَر فيها ثم يعيدها إلى مكانها، ليلتقط أخرى، وكأنَّما يريدُ أنْ

يتأكَّد من جاهزيَّتِها..

لم تكُنِ الأدوات نظيفةً بالطَّبعِ، فنَحْنُ لَمْ نَكُنْ في مَشْفًى – هذا إذا كانت أدوات مشافي «مملكة العبيد» نظيفة أصلًا– ولكنَّها كانت ملْأَى بدماء تجلَّطَتْ على المقابضِ والأطراف، وكأنَّها تروي قصَّةً حزينة لروحٍ صعدَت إلى بارئها شاكيةً إيَّاه بُرودة الحديد وحرارة جحيمه.. أو لعلَّها تروي حكايَة نصرٍ لها، ارتفع فيها إيمانٌ عن صاحبه وخارت فيها عزيمة عن قلبِه.. إنَّ للجمادات ألسِنةٌ، وإنَّ لها لحكايا.. ويومًا مَّا ستخبر عن كلِّ شيءٍ، وستنقَلب على صاحبها كما ينقلب الدود فيأكل جسدًا توَلَّدَ منه..

انتزَعَني صوتُ صرير مزلاج الباب الحادِّ ذاك، الذي يخترق الأُذُنَ فينفُذُ من إحداهما قسرًا إلى الأخرى، وإنَّه لَعَمْرِي أكثر إيذَاءً من صوت صريخ القرين إذا ما أُلْقِمَ ذِكْرَ اللهِ.. انتزعتني أصوات الصرير من تَفَقُّدِي لأرجاء الغرفة التي ولجتُهَا من قبلُ بعصابة وغطاء قماشيٍّ أسود على رأسي، وها أنا اليوم أدخلها بغطاء من الله يحجبني عن عيون المجرمين..

ولَجَ من الباب الحديدي رجلان من أفراد الأمنِ.. كانا جسيمين، لمْ تبدُ عليهما أمارات الجِدِّيَّة والاحتراف، بل كانا وكأنَّهما يلهوان، فكانا يتمازحان ويضحكان، وترتسم على وجوههما ابتسامات تكشف عن عدم

اكتراث ولامبالاة بالغة، وكأنَّهما لم يأتيا إلى هنا من أجل أداء رسالة، وهي القضاء على أعداء الوطن - بزعمهم -، ولكنَّهم بدَوْا لا يكترثون للوطن بما فيه، فما هم إلَّا عبيدٌ مُسْتَأْجَرون للقيام بالأعمال القذرة، ولا يهُمُّهُم إنْ كانت البلاد تذهب بهم إلى الجحيم أو إلى مصافِّ دُوَلِ العالم الأوَّل..

أمسَكَ أحدُهُما بذراع «حسن»، وأقامه بغلظة، ثمَّ وجَّهَ بكفِّ يده المُمْتَلِئَة الأخرى صفعةً قويَّةً إلى وجهه، كادَ القناع أنْ يطيحَ من قسوتها.. خُيِّلَ لي أنَّ شياطين الغرفة تبتسم، وقد بدَتْ مستمتعةً بما يجري، ومتأهِّبَةً للقادم، فقد بدأ الاحتفال للتوِّ؛ فقد فغَرَت أفواهها وكشفت عن أسنانها السوداء المُدَبَّبَة، وقد أخذت تجول بأعينها بين الجلَّادِين وبيننا، وكأنَّها تتحدَّانا وتقول «لن تستطيعوا فعل شيء حيال ذلك»!!..

- كيف ترى أن نبدأ؟.. أنُجْلِسُه على كرسِيِّ الإعدام أم نُلهِبُ ظهره بالسِّيَاط أوَّلًا؟!!

تساءل أحدُ الجلَّادَيْنِ، وهو يبتسم في تَشَفٍّ وشماتة زكمت رائحتُها أنفِي.. لم يَكُنِ السؤال مُوَجَّهًا لـ «حسن» بالطبع، فلم يكن المسكين يملك من أمر نفسه شيئًا.. بل إنَّ صنيعهم هذا هو أحد أدوات التعذيب التي لا مكان لها على منضدة الأدوات، بل وَقَرَت في صدورهم واستقرت في أكثر

المناطق ظلامًا في عقولهم وأرواحهم..

- بل نُلْهِب ظهرَه وصدرَه بالسياط أوَّلًا، ثمَّ ننتزع أظافره ظُفْرًا ظُفْرًا، وَنُدْمِي رأسَهُ، حتَّى إذَا ما غَرَقَ في دَمِهِ وجلس إلى كرسِيِّ الإعدام وسَرَت في جسده الكهرباء، زادت جِرَاحَه التهابًا، واحترق حيًّا.. أمْ أنَّكَ نسيتَ رائحة احتراق الدماء، وكيف تستحيل إلى اللون الأسود والدُّخان الأحمر القاني يخرج منها؟!!..

قهقه الأوَّلُ منتَشِيًا، وعقَّبَ:

- يا لك من شيطانٍ سادِيٍّ.. من أيِّ جحيم أتَوا بك يا ملعون؟!!.

- من ذات الجحيم الذي أتت منه أُمُّكَ..

انفجر الرجلان في الضحِك، وكأنَّهما لن يبدءا بعد برهة وجيزة في عمل من أعمال أهل النار.. تلك النار التي إنْ ولَجَها أحدُهما فلن يخرج منها، وإنَّهما لمن أهلها، أحد صِنْفَي أهل النار، قوم معهم سياطٌ كأذناب البقر.. وليست تلك النار كالجحيم الذي يزعمون أنَّهم قادمون منه.. يا لهم من ساذجَين!!.. فذَرهُم يخوضوا ويلعبوا حتَّى يُلَاقوا يَوْمَهم الذي يوعَدُون.. وإنَّ حقًّا علَيَّ أنْ أُوصِلَهم إليه..

قام المجرمان بتقييد يَدَيّ «حسن» بواسطه حبل غليظ إلى حلقة في

السقف، وقدمَيْه إلى أخرى في الأرض، وقاموا بجذْب الحبل بقوَّةٍ حتَّى أُقِيمَ بين الحلقتين وكأنَّهُ خَشَبَة مُسَنَّدَة، وقد بدأتِ الدماء تثعُبُ من رُسْغَيْه وكاحليه من اختراق المسامير الموجودة بالحبال فيهما.. ومِن ثَمَّ تَوَجَّه أحدُهما إلى المنضدة فتناولَ من فوقها بعض الكابلات والسياط، وقد أخذَ يُفَاضِلُ بينها، ولَمْ يَرَ الشيطان الجالس على المنضدة وهو يُشِيرُ إلى أحدِ السِّيَاط، محاولًا إقناعِه به.. وبالفعل انتقى الجلَّادُ السوط الذي وسوَس له به الشيطانُ، واتَّجَهَ إلى جسد المسكين المشدود في منتصف الغرفة..

***

أدْرَكْتُ أنَّ هذا هو الوقت المناسب لي لكي أتحرَّك وأمنعَ تلك الجريمة التي على وَشْكِ الحُدُوثِ، وليْسَ لي إذْ كُنتُ شاهدًا أنْ أنتظر لأرَى إنْ كان هذا المسكين من أهل الصبر والعزائم أمْ أنَّ حبلَ إيمانه سينقطع دون الصمود تحت وطأة التعذيب والإرهاب..

رفع الشرطيُّ ساعده إلى أعلى، ويده قابضةٌ على مِقْبَض السوطِ.. ثمَّ هَوى بها بشِدَّةٍ مؤمِّلًا سوطَهُ بصفعةٍ يطبَعُها على صدرِ «حسنٍ»، يتمزَّقُ من فَرْطِ قسوتها جلدُه، ويثْعُبُ منها دمُه.. ومؤمِّلًا أُذُنَه بصرخةٍ عذبَةٍ تسمعها، تخرجُ صادقة مستغيثةً من أعماق هذا المسكين..

وفجأةً تسمَّرَتْ يدُ الشرطيِّ في الهواء، ولمْ يستطع أنْ يُنْزِلَها ليهويَ بالسوط على المُكَبَّلِ أمامَه، فقد انطلَقتْ يُمْنَايَ تحولُ دونَ ذلك.. فشَدَدْتُ قبَضتِي على رُسْغِه، وأمسكتُ طرْفَ السوط بيُسْرَايَ، فتراجع المُجْرِمُ مأخوذًا، وهو لا يدري ما يحدُث.. تبادلَ الرجلان نظراتِ الحيرة حينًا حتَّى أَفْلَتُّ يدَ الشرطيِّ من قبضتي..

- ما بكَ يا رجل؟!! لمَ توقَّفْتَ؟!.

- لا أدري.. ولكنَّي أحسستُ بشيء يُحْكِمُ خِناقَهُ على يدي فلا أستطيع إنزالها..

- لعلَّكَ مُتْعَبٌ.. هيا دعني أُلْهِبه أنا.. يبدو أنَّك مُرْهَقُ، وتحتاج عضلاتك إلى الراحة، فمثل هذا قد حدثَ معي قبلًا.

ومدَّ يده إلى صاحبه فتناول السوط، ووقف قُبَالَةَ «حسن»، وهمَّ بفعل ما أَقْدَمَ عليه صاحبُه، فاعترَضْتُ طريقَهُ بمثل ما كان مِنِّي من قبل.. وهنا تراجع الرَّجُلُ إلى الخلف في حِدَّةٍ، ونظر إلى صاحبه بعيون ملأى بالتَّعَجُّبِ والسُّؤال.. وقال لصاحبه وهو يتراجع إلى حيث باب الغرفة..

- هيَّا بنا..

تبِعَهُ الآخرُ صوبَ الباب، وهمَّا بالخروج.. وقبل أنْ تمتدَّ يدُ أحدهما

إلى المزلاج تناولتُ عصا الشرطة التي لديَّ وانهلْتُ عليهما ضربًا، فتناوبتُ على رؤوسهما ومفاصل أجسادهما، تمامًا كما كانا يتنويان التناوب على جسد هذا المسكين.. لمْ تُمْهِلْهُما سرعه الضربات وفجأتها كثيرَ صراخ واستنجاد أو استجداء.. إذْ تكوَّما على الأرض كأنَّهما أعجاز نخل خاوية.. لا أدْرِ إنْ كانت تلك الضربات التي نالاها على رؤوسهما كفيلةً بقتلهما أم لا.. ولا أكترث كثيرًا لحياتهما أو موتهما حقيقةً؛ فالعالم أفضل حالًا بدونهما.. ولكن لا خير لي في قتلهما ما دام بإمكاني قطع أذاهما عن الخلق بدون ذلك.. فقمت بتهشيم ساقيهما وساعدَيْهما، وهذا كفيلٌ وكافٍ بتَنْحِيَتِهِما عن دائرة الصراع المُسْتَعِرِ ذاك..

كان «حسن» يتلفَّتُ يَمْنَةً ويَسْرَةً علَّهُ يرَى شيْئًا ممَّا يدور حوله، ولكنَّ التفاتاته المتكررة لن تغير من خواصِّ الأشياء شيئًا، فالقناع لنْ يُصْبِحَ شفَّافًا مثلًا!! غيرَ أنَّهُ استمَرَّ في الالتفات كالمجنون، أو كالذي يبحثُ عن سبيل النجاة والهرب بعينيه وإن كان غيرَ قادرٍ على الهرولة صوبه بقدميه..

كانت الشياطين والمردة التي تجوب الغرفة تدور حولنا كالمجانين، وهم يقتربون حينًا ويبتعدونَ حينًا.. أحيانًا كنتُ أحسُّ بلفح أنفاسهم وهم يكادون يصِلُون إليَّ لتَشُقَّ مخالبهم لحمي، وتُغْرَسُ أنيابُهم السوداء في رقبتي.. غيرَ أنَّ الشيخين «عياض» لمْ يَكُفَّا عن الالتفات عن اليمين وعن

الشمائل، حتَّى إذا ما وقَعَتْ عينا أحدهما السوداوان على أحد المَرَدَة إذا به يرتدَّ على أدباره في فزَعٍ، وكأنَّهم يُدْرِكُون ما يستطيع هذا الشيخ أنْ يفعلَهُ بهم إذا ما سوَّلَتْ نفسُ أحدِهم إليه بالاقتراب مِنِّي.. لمْ يكنْ ثَمَّ شيءٌ من الشيخين «عياض» سوى ذلك الالتفات، فلم يستخدمْ أحدُهُما أو كلاهما يدًا ولا قدمًا ولا سلاحًا طواهُ أحدُهُما في ثيابه.. بل كانت نظراتهما السوداء كافيةً لرَدْعِ هذه الكيانات الشريرة..

أسَرَتْنِي بُرْهَةٌ أخَذْتُ أراقبُ فيها ذاك الصراع المحموم بين المردة والحَفَظَة، حتَّى إذا ما أمِنْتُ توجَّهْتُ إلى المُكَبَّلِ، وأخذتُ أحُلُّ قيدَه بِحِرْصٍ كي لَا أزيد في وجَعِه، فيكفي المسكين ما رأى اليومَ.. أو لِنَقُلْ: ليكفِي المسكين ما لَمْ يَرَ اليومَ..

ما إنْ نَزَعْتُ عن رأسِ الرَّجُلِ القناعَ وعن وجهِه العصابة حتَّى رفع عقيرتَه بالصراخ والعويل، وقد أدْرَكَ أنَّ كيانًا مجهولًا غيرَ مرئِيٍّ يمارِسُ عملًا عنيفًا قُبَالَةَ وجهه.. فإنَّ أقْبِيَةَ الأمنِ المَلَكِيِّ الداخلِيّ مليئةً بشياطين الإنسِ والجِنِّ، وإنْ سَلِمَ من أحدِهما فلن يَسْلَمْ من الآخر.. وها هما شيطانان من شياطين الإنسِ تكوَّمَتْ أجسادُهما قَيْدَ ذراعٍ من باب الغرفة التي يراها لأوَّل مَّرة، وقد امتَلَأَ وجههما بالدماء، وتوجَّهَت أطرافهما في عدَّة زوايا عجيبة، وكأنَّهما حطَّا من عَلٍ فتهشَّمَتْ أطرافهُما من أثَرِ السُّقوطِ..

تُرَى من الذي صنع بهما هذا؟! ءالله أرسلَ ملائكةً من عنده ليُخْرِجُونه من الظُّلُمات إلى النور؟! من ظُلُمات الظلم والقهر والذُّلِّ والسِّجْنِ والدَّمِ إلى نورِ العدلِ والعِزَّة والعافية والحرية؟!..

بعد أنْ حَلَلْتُ قيدَ قدمَيه ونزعتُ الغمامة عن عينيه لِيَرَى ما لَمْ يَكُن يرَى، رفعتُ يَدِي لأحُلَّ قيد يديه المشدودتين لأعلى، وكأنَّه استفاق من صدمة ما رأى، فأخذَ يصرخُ ويضربُ بقدميه في غير اتِّجاهٍ، فصار يضربُ عدُوًّا غيرَ مرئِيٍّ، وهو لا يدْرِي أنَّ ما أرادَ أنْ يَسْتَهْدفَه لمْ يكُنْ سِوَى صِديقٍ غير مرئِيٍّ..

ابتَعَدْتُ عنه قليلًا، وأخَذْتُ أفكِّرُ ما أصْنَعُ به.. فإنِّي إنْ صَيَّرْتَه حرًّا قد يقتلونه بالأعلى، وقد يتَّهمونه بالهجوم على هذين المجرمين، ومِن ثَمَّ يقتلونه من غير محاكمة، كما هو في مكانه، صبْرًا.. غير أنَّهُ قد يحُول دون مواجهتي لبقيَّة المجرمين العاملين في هذا الفرع الأمنيّ، فقد يستثيرهم إلى رفع درجة استعدادهم وتأهُّبهم إلى درجة تصعب معها أخذ الحيطة والحذر، وقد يصيبني شرٌّ من حيثُ لا أدرِي ولا أحتَسِبُ، وأنَا لَمْ أزَل في بداية الطريق.. وهي طويلةٌ وملأى بالمهالك..

حسمتُ أمْرِي وتراجعتُ إلى باب الغرفة، وعالجتُ المزلاج وفتحتُ الباب وخرجتُ صحبةَ الشيخين «عياض»، تاركًا إيَّاهُ يُدِيرُ عينَيْه في

محجريهما، فاغرًا فاه، ترتعدُ فرائصه.. مع جسَدَيْن مُلْقَيَيْن على الأرض، وزمرةٍ من الشياطين التي لمْ تَكُفَّ عن الدوران والصياح بصوتٍ مُلتاعٍ، وكأنَّها «شياطين تسمانيا»..



... ولا خازِنًا

تَلَمَّسْتُ طريقي إلى خارج مقر الأمن الداخليِّ الملَكِيِّ مُقْتَفِيًا أثَرَ الطَّرِيقِ الذي ولَجْتُ منه، غيْرَ أنَّنِي عَرَّجْتُ في طريقي على بعض المكاتب والأركان بداخل المبنى كي أرسم له في مُخيِّلَتي خريطةً تُوَفِّر عليَّ الكثير من الوقت أثناء مداهمة هذا المكان في الغزوة المُقْبِلَة.. فأحصيْتُ عدد المكاتب والأفراد، وحدَّدْتُ مكان مكتب رئيس الأمن الداخلي ومكاتب نائبِيه.. هكذا أستطيع أن أحاصرهم وأن أتَفَلَّت من قبضتهم إذا ما أحكموا حصارهم حولي إذا ما أتيتهم مستقبلًا.. الآن أنا أعلمُ.. اليومَ أزداد قوَّةً..

رَجَعتُ إلى بيتي سعيدًا.. ولكن مرهقًا؛ فقد كانت تلك المواجهة شديدة الوقع على نفسي وقلبي.. لا على جسدي.. فالجسد قد تتعاوره الجروح وتجتمع عليه الأسقام، وهو مع ذلك ينجو.. أمَّا القلب فقد يفجؤه طاريءٌ فيُودِي به.. لذا فإنَّ قلب المحارب أنفعُ وأكثر أهميةً من جسده؛ فقد تصِحُّ الأجسام وتعتلُّ القلوب.. وما نفعُ الأجسام إنْ خَوَتْ من قلبٍ يضخُّ الإيمان والعزيمة في عروقها؟!.

ما إنْ دخلتُ من باب المنزل ذاكرًا اسم الله حتَّى استقبلتني العوامر مستبشرين مُكَبِّرين مُهَلِّلين.. فأجبْتُ استبشارَهم بمثْله، وأعدَدْتُ لهم وليمةً كبيرةً احتفالًا واحتفاءً بما أنجزتُهُ اليومَ، ودعَوْتُ إليها كلَّ عامرٍ في المنزل،

وشَدَّدتُ على كِبارهم أنْ يأتوا بصغارهم ورُضَّعِهم.. حتَّى أنَّنِي هَمَمْتُ أنْ أجوبَ طوابقَ العقار لأدعو كل عامرٍ مؤمن شارد يقطن ممرات العقار، غيرَ أنَّني كبَحتُ جماح نفسي، فإنَّنِي مع ذلك لا يجب أنْ أستقدمَ إلى المنزل من لا أعلم عن حاله شيئًا، وبخاصة إنْ لَمْ يكُن إنسيًّا.. فما أدراني أنهم لن يقوموا بأذِيَّتِي أو أذِيَّة أحد من العوامر القاطنين معي في منزلي ومنزلهم؟! فما قد أستحْسِنُه أنا قد لا يكون كذلك بالنسبة لشركائي في المسكن، ولا ينبغي عليَّ أنْ أُقْدِمَ على مثل ذلك الصنيع حتَّى أستشيرهم.. كما أنَّنِي لا أرغبُ أنْ يظنَّ العوامر أنَّنِي أُرَحِّب باستضافة عامرٍ من خارج المنزل في أيِّ وقتٍ، فيقومون هم باستقدام واستضافة أقربائهم ممَّن يعيشون خارج المنزل من غير أن آذَنَ لهم أوَّلًا.. نعم لا بُدَّ أن تكون تلك الأمور في غاية الوضوح؛ حتَّى لا ينعق بيننا غراب البَيْنِ، وكيْ لا يجد الشيطان بيننا موطأ قدمٍ..

بعد أنِ انتهَيْنا من الطعام شربنا بعض أكواب الشاي والقهوة، وتبادلنا أطراف الحديث قليلًا، ثمَّ اعتذَرْتُ منهم، فقد كنت متعبًا، ولا أُمانع من منح جسدي وعقلي بعض الراحة، فتوجهتُ إلى غرفة النوم، وألقَيْتُ بجسدي على المضجع، ورُحْتُ في سُبَاتٍ عميق.

***

كان المشفى الشَّعْبِيّ العام القريب من منزلي أحد أكثر مراكز تعذيب المواطنين وحشيَّةً وسادِيَّةً، فقد كانَ ملعبًا ترتع فيه الأسقام والأمراض في فرحٍ وحبور، لا يردعُها دواءٌ ولا يرفَعُها دعاءٌ، آمنةً من الفناء، عازمةً على البقاء.. كانت تلك الأمراض كالأسياد، لا تأتمر بأمر طبيب ولا تستجيب لاستجداء عقارٍ ولا تبتئس لصرخات مريض.. كانت الأسقام تسكن في كلِّ شيء، في الجدران والأسقف والأرض.. في الأسِرَّة والفُرُش.. بل وفي زجاجات العقاقير ومباضع الجراحين ومحاقن المُمَرِّضين.. كان المرضُ يغزو كلَّ شيء.. حتَّى قلوب الأطباء..

حتَّى أنَّ طُول مُكْثِ الأمراض ومُسَبِّبَاتها من مُختلف أنواع البكتيريا والفيروسات والطفيليات، ما كَبُرَ منها وما صَغُرَ، وطُولَ خُلْطَتِها بأهل تلك البلاد قد أكْسَبَهُم مَناعةً قوِيَّةً وأوْدَعَتْ فيهم حصانةً شديدة ضدَّ الكثير من الأمراض والأوبئة، فإنَّ الهِرَّ الذي تُرَبِّيه في منزلِك، ويعيشُ مُتْرَفًا في بيئة نظيفة ليس كذاك الكلب الأجرب الذي يجوب الطُّرقات ليل نهار، يبحث عنْ مأوًى له، يأكلُ من القمامة ويلتحف الشارع إلى جوارها، فالهِرُّ الأوَّل إذا ما خطَرَ المرضُ على عقله قد يُودِي به، أمَّا الكلبُ الثَّانِي فما يكَادُ شيءٌ يستطيع إيذاءَه ولا تعكِير صفوِ حياته!!.. ولا أدري أهذا من النِّعَمِ أمْ مِنَ النِّقَمِ؟!!..

وليسَ أوضح دلالة على ذلك من ذاك الوباء الذي اجتاح الأرضَ في أواخر العقد الثاني وأوائل الثالث من القرن الحادي والعشرين، فغزَا دُوَلَ العالم أجمَع، وألجأ الخلْقَ إلى منازِلِهم ودُورِهم وقصُورهم، وحرَّمَ عليهم الخُرُوج، وجعل الكثير مِن دُوَل العالم العظْمَى، أو التي كانت تظُنُّ بنفسها عَظَمَةً في يوم مَّا، جعلَ كثيرًا منها تجثو على رُكْبَتَيْها ذليلةً، وقد أخذَ الوباء رُغمًا عنها مئات الآلاف من المُصَابِين، وأقْبَرَ منهم عشرات الآلاف، في مدَّةٍ وجيزة لَمْ تُجَاوِز الخمسَة أشهُرٍ.. ذلك الوباء الذي تسبَّبَ به فيروس لا يُرَى أطلَقَ عليه العُلَماءُ اسم «كورونا»، عندما أرادَ أنْ ينزِلَ بساحة «مملكة العبيد»، وأتى وهو يحسب بنفسه سَطْوَةً وفُتُوَّةً، لما ألجَأ دُولَ العالَم العُظْمى إليه فيما مَضى، وها هو ذا في طريقه إلى بلدةٍ جديدة لِيُسْقِمَ أهلَها ويغتَالَ الحياةَ في عُيُونِهِم.. ولكِنَّ هذا الفيروس الساذَج لَمْ يكُن يعلَمُ أيَّ جحيم هُوَ على وَشْكِ أنْ يَطَأْهُ بِزَوَائِدِهِ التي تُغَطِّي جسمَه..

فقَد ذاق فيروس «كورونا» ذُلًّا لَمْ يكُنْ يحسَبُ يومًا أنَّهُ سيلْحَقُ بهِ وَيُطَوِّق به رقبتَه، إنْ كَانت لَه رقبة، وقَد لَقِيَ مِن أهل المملكَة أذًى لَمْ يختبرْهُ في حياته على مدارِ تحَوُّرِه منذُ كانَ فيروس «انفلوانزا» بريئًا.. فما أنْ دخل هذا الفيروس أجساد مَن كان يحسَبُهم ضحاياه، حتَّى لَقِيَ مُقَاومَةً عنيفَةً، وفُوجِئَ بجُيُوشٍ مِن الأجسام المضادة المسعورة من كُلِّ نَوْعٍ ولَوْنٍ، قدْ

طَّوَقَتْهُ مِن كُلِّ جانِبٍ وأخَذَتْ تتعاوَرُه، كما تتعاوَرُ المُفتَرِسَاتُ في الغابة غزالًا بريئًا لطيفًا!! ولَمْ يَنْجُ مِن تلك الفيروسات إلَّا النَّذْر اليَسِير، الذي استطاع الخروج من تلك الأجسادِ المَوْبُوءَةِ بصعوبة بالغة في عطسَةٍ أوْ نَخْمَةٍ أو بَصْقَةٍ، وهو يحمَدُ الله على النَّجاةِ!!..

لَمْ تكُنْ نجاة أهل «مملكة العبيد» من تلك الجائحة التي كادَتْ أنْ تُفْنِيَ العالَم ترجِعُ إلى جهود المُؤَسَّسَات الصِّحِّيَّة المسؤولة في البلاد، ولا لتَفَاني القائمين على النظام في أعمالهم من أجل الحفاظِ على حياة أبناء شُعُوبِهم، فإنَّ حياة الخلقِ وحالَتِهِم الصِّحِّيَّة كانت كما كانت دائمًا في آخر جَدْوَل اهتمامات المَلِكِ وأعْوَانِهِ.. ولكِنْ في آخِرِ الأمْرِ فقَد نسَبَ الدَّجَّالُونَ القَائِمُون على البلاد لأنفُسِهِم الفَضْلَ في انحسار وهزيمة تلك الهَجْمَةِ الشَّرِسَةِ لذلِك الفيروس المِسْكِين!!..

وفي إحْدَى جلسات العلاج النَّفْسِيّ الفيروسِيَّة تَحَلَّقَ مجموعةٌ من الفيروسات مِن مُخْتَلَف الأنواع، يَقُصُّ كُلُّ واحد منهم على أقرانه ما اختبَرَه مِنْ أذًى أثناء إمْرَاضِه لأحَدِ الخَلْقِ، إنْسِيٍّ كان أو حيوانِيٍّ، حتَّى كانت الكلمةُ لأحدِ فيروسات «كورونا» الناجية مِن المذبحة التي تعرَّضَتْ لها في «مملكة العبيد»، وقصَّ هذا الفيروس الأسيف كيفَ لاقَى مِن أهوالٍ هُو ورفاقه، سواءٌ لِمَنْ أُذِنَ له في الدخول إلى أجسام المرضَى، فقَضَى نَحْبَهُ على

أيدي وتحت أقدام الأجسام المُضَادَّة التي لا تعرفُ شفقَةً ولا رحمةً، أوْ مَنْ قُدِّرَ له أنْ يُمْسِي سجينًا في المعامِلِ، التي نقلَتْهُ إلى مقَرَّاتِ الأمْنِ المَلَكِيّ، حيثُ تَمَّ استِجْوَابُهُ، وكيفَ أنَّ أقرانَهُ قد تعرَّضُوا لأشدِّ أنواع التَّعذِيبِ في تلك المَقَرَّات، ولَمْ يَنْجُ منهم إلَّا القليل، وقد نَقَلَ إليه أحدُ أصدقائه قبل أنْ يُفَارق الحياة أنَّ المُحَقِّقِينَ في تلك المَقَرَّاتِ المُجْرِمَة قد تلَذَّذُوا بتعذِيبه واقتلاع أهدابه وزوائده الخارجية بمَقَصَّاتٍ معدِنِيَّةٍ، وكيف أنَّهُم أدخلوا عصًا غليظةً في فجوَتِه العصارية، وتَرَكُوهُ مُكَبَّلًا وهُو يُشَاهد بريق الحياة يخفُتُ فيه ببطءٍ!!..

غير أنَّ تلك المقاومة الشرسة التي لاقَتْها كتائبُ الفيروس الأبِيّ، الذي رفضَ الخضوع والاستسلام، تلك المقاومة التي لاقاها من الأجسام المضادة المسعورة المنتشرة في أجساد أهل «مملكة العبيد» لَمْ تَنَلْ مِنْه ولَمْ تَفُتَّ في أهدابه ومجسَّاته، ولم تُلْجِؤُه إلى الإذعان والهروب وتركِ ساحة الصراع، فلَمْ يكُن ذاك مِن خُلُقِه، بل كان مناضلًا ومقاومًا ومُضَحِّيًا في سبيل يومٍ إضافِيٍّ في رئةٍ بشرِيَّةٍ.. كانَ عزيزَ الجَوْفِ، على خلاف أهل «مملكة العبيد» الذين كانوا يستمْرِؤون الذلَّ ويتلذَّذون بالتعَرُضِ لمواطِن الإهانَةِ في كلِّ سبيل وَدَرْب.. حتَّى أنَّ تلك المقاومة التي أبدتْها أجسامُهُم لغزوات هذا الفيروس لَمْ تكُنْ عنْ عزمٍ منهم وإصرارٍ بحال.. بل كانَت رُغمًا عنهُم.. لَمْ

تمنع تلك المقاومةُ الشرسة الفيروسَ من أنْ يسلُبَ بضعة آلاف من أهل «مملكة العبيد» حياتهم، ولَمْ يقضِ نحبَه حتَّى أقْبَرَ الكثيرين مِنهم، فقد كان فيروسًا مناضلًا بحقٍّ، حتَّى آخر لحظة من لحظات حياته السَّعَوِيَّة!!..

***

كانت قلوب الأطباء في هذا المشفى - كما في جميع مشافي «مملكة العبيد»- قاسية كالحجارة، أو أشد قسوة، وإنَّ من الحجارة لَمَا يتفجُّر مِنْه الأنهار، غير أنَّ قلوب هؤلاء قد أبت إلَّا أنْ تُشَاطر قلوب السفَّاحين والمجرمين بما تراكمت فيها من قسوة وغِلظَةٍ وسادِيَّة ولا مُبَالَاة.. نعم، لَمْ يكن هؤلاء الأطباء يأخذون ما يكفيهم من أجرة نظير أعمالهم، فقد كانوا عبيدًا آخرين في سلسلة العبيد العاملين في الوظائف الحكومية، ولظى الظُّلم يَمَسُّ الجميع، من العامل إلى الطبيب، ولكنَّ هؤلاء قد نسَوا أو تنَاسَوا المعادلة التي تستقيم بها وظائفهم تلك أمام الله وأمام الناس وأمام المَلِك ونظامه.. فإنَّ ما يجب على الناس بجميع طوائفهم ودرجاتهم وأفهامهم وأجناسهم أنْ يهدموا كيانات الظلم والقهر والذلِّ، وأنْ يقضوا على هؤلاء القائمين على استمرار تلك الكيانات.. لا أنْ يحفظوا تلك الكيانات والمؤسسات الآثمة من الانهيار والفناء، ولا أنْ يدافعوا عن وجود وبقاء تلك الحفنة من المجرمين والمنتفعين والسَّفَلَة المارقين.. لذا فإنَّ العمل

تحت راية هذة الأنظمة والحكومات لا يكون خيرًا بالضرورة، ففي هذا العمل بقاء لتلك الأنظمة، وثبات لمُلْك المَلِكِ وزبانيته.. ولكن إنْ لم يكُنْ أهل الحقِّ قادرين على استحداث مؤسَّسات موازية تُفَاصِلُ مؤسسات تلك الأنظمة وتفتَرِق عنها، في جميع المجالات التربوية والتعليمية والصحِّيَّة والإعلامية والأمنية، أو بعضها، إذَا لم يكُن هذا مُمْكِنًا وكانَ من الضَّرُوري على البعض أنْ يعمل في بعض تلك المؤسسات الحكومية تحت راية تلك الأنظمة فيجب على من رأى في ذلك ضرورة أنْ يُعِينَ النَّاس وأنْ يُخَفِّفَ عنهم، وأنْ يكونَ عينًا لهم على النظام وقوانينه، فيَدُلُّهم على ثغراته وعَوَرَاته، ويأخذ بأيديهم المُتْعَبَة إلَى المَوَاطن التي يُؤْتَى منها هذا النظام.. لا أنْ يكون سيفًا صلتًا مُسَلَّطًا على رقاب الخلق، لا يدفعُ عنهم شرَّ الأنظمة الفاسدة ولا هو مَنَع عنهم شرَّهُ هوَ.. وقد كانَ جلُّ مُوَظَّفِي «مملكة العبيد» على تلك الشاكلة غير المُحْتَسِبَة، من نَوْع «المُوَظَّف البَغْل» الذي لا يسلمُ الناس من شرِّه ولا ينتفعون به، وهو مع ذلك يُبْقِي على النظام الفاسد ويحفظُهُ من الفناء ويُطِيلُ في عُمُرِهِ.. ثمَّ بعد ذلك يملأُ الدنيا صراخًا وعويلًا أنْ «أدركوني فأنا موظَّفٌ مسكين فقير لا أملك لنفسي ولا لغيري شيئًا»!!..
ولم تكُن الأطباء استثناءً من ذلك..

***

هبَّتْ نسماتٌ لطيفاتٌ في ظاهرها، وهي تحمل في باطنها سمًّا ناقِعًا من الجراثيم ونواقل الأمراض القاتلة، هبَّتْ من أحدِ نوافذ المَشْفَى التي حطَّم زجاجَها القِدَمُ والضمائرُ الخَرِبَة، فانسابَت في أرجاء المَشْفَى، منتَقِلَةً من طابِقٍ إلى آخر، ومن غُرْفَةٍ إلى أخرى، تَقْسِم الأسقام والأوبئة بين ساكِنِي المَشفى وزائريها على السواء.. فمن دخل المشفى زائرًا اليوم سيدخلها حتمًا مُقِيمًا مِن غَدِه، وسيكون السبب في إقامته بها اليومَ هو غالبًا زيارتُه لها بالأمس!.. كانت النسمات تدخل في فم هذا وأنف ذاك، فيسعلُ الأوَّلُ ويعطس الآخر، ثمَّ تمُرُّ برضيع فتنفذُ إلى أعماقه مؤذنةً بإقبارِه عن قريب..

سِرْتُ مع تلك النسمات في طرقات المشفى صحبةَ الشيخين «عياض»، وقد تمَثَّلْتُ نفسي مَلِكًا يتفَقَّدُ أحوال الرعِيَّةِ.. لمْ تَكُن المشفى أفضلُ حالًا من زرائب البهائم؛ فقد كانت القطط تجوب فيها، بينما تتمدَّدُ الكلابُ تحت أشعة الشمس في حديقتها الخارجية الخالية من الزهور والنباتات المبهجة، والملأى بفروع من الأشجار الكسيرة التي نكَّسَتْ رؤوسها حتى لامَسَت الأرض، فهي من الأرض وإلى الأرض تعود، وكأنَّها تبعثُ رسالة إلى كلِّ داخلٍ يُؤَمِلُ نفسه بالشفاء والعافية أنِ اعتبِرْ، فهذا هو مآلُك لا محالة؛ فالمَشْفى أوَّل منازل القَبْر!!.. كانت طرقات المشفى ملأى بالقمامات وبقايا الأطعمة والعقاقير التي يتركها الزائرون والمرضى والعاملون على

السواء.. فنظافة المشفى كان من آخر الأمور التي قد يفكِّر فيها أحدٌ أو أنْ يبحثَ عنها!..

كان بعض المرضى وذويهم يفترشون أرض ممرات طوابق المشفى؛ إذ لم يكُن لهم مكان، لا مقاعد ولا أسِرَّةً تكفي، والموجود منها غير صالح لِمَا صُنِعَ من أجلِه.. الجميعُ يَئِنُّ من آلامِهِ.. الكبير والصغير، الرجال والنساء، المرضى والزائرون.. وحدهم هم العاملون من الأطباء والمُمَرِّضِين كانوا يتضاحكون غير مُكْتَرِثِين لما يدور من حولهم، وكأنَّهم لا يعترفون بألَم هؤلاء ولا بمعاناتهم.. أيَكون اعتيادُ الأطباء ومساعديهم على مشاهدة ومعايشة تلك الآلام مبرِّرًا لهم على أنْ يتخلَّوا عن مشاركتهم لمرضاهم همومَهم، وأنْ يتحَلَّوا بتلك اللامبالاة التي قد لا توجد حتَّى في عالم الحيوان؟!!.. فقد تعلَّمَتْ المرضى أن تُحْسِن وفادة الأسقام التي هي رفيقة درب لهم، كما تعلَّم الأطباءُ إشاحة وجوههم عنها، وكأنَّها لا تعنيهم ولا هم معنِيُّونَ بها..

تجاوَزْتُ في طريقي بعض أولئك المُعَذَّبين.. امرأةً تحمل فوق كتفها صغيرًا غائر العينين، لا يُحَرِّكُهما وكأنَّه لا يدري أنَّ اللهَ قد خلقها له من أجل أن يرَى بهما، كانت عيناها تدور في مِحْجَرَيها كالمجنونة، وكأنَّها تُعَوِّضُ ثبات عينَيْ صغيرِها بفَرْطِ حركة عينَيْهَا.. كانت تبحث عن طبيب يتصَدَّق

عليها بنظرة إلى ولدها المُسَجَّى على كتفها؛ عسى أنْ تَرُدَّ إليه تلك النظرات بعض أمارات الحياة التي بدأت تذبُل في عينيْه.. تجاوزتُها لأمُرَّ بجوار مُسِنٍّ قد آيَسَ من إيجاد سَرِيرٍ يُلْقِي عليه جسدَه الذي أنهكَتْهُ السُّنون والأسقام، فافترَشَ الأرض مُتَلَمِّسًا فيها بعض الحُنُوِّ الذي خَلَتْ منه قلوب ملائكة الرحمة، عسى أنْ يكون اقترابه منها والتصاقه بها - أي الأرض- تعجيلًا بعودته إليها.. وقد وقَفَتْ إلى جواره عجوزٌ تأبى إلَّا أنْ تُغْدِقَ عليه مشاعِرَ ملأى بالوفاء والمودَّةِ، التي لطالمَا تشاركاها لسنواتٍ تطاوَلَتْ وأوشَكَت على الانتهاء.. كانت تُمْسِكُ بيَدِها زجاجة محلول، يخرج منها أنبوب يصِلُ إلى ذراع الرَّجُلِ.. كانت تحملُ الزجاجة بيدٍ مُرَتَعِشَةٍ تعِبَتْ من طول مُكْثِهَا مُعَلَّقَةً في الهواء.. غير أنَّها لا تشتكي، ولا تئِنُّ؛ فقد أخبرها أحدُهُم أنَّ في هذه الزجاجة شفاء زوجها، فهي تمسك بها وكأنَّها تمنع بها روحَه من مغادرة جسده.. وهي لا تدري أنَّ ما بداخل تلك الزجاجة لا يُبْرِيءُ ولا يُغْنِي من مَرَضٍ!!..

راحتْ عينايَ تدور في المكانِ، تبحث عن أحدٍ مَّا، من شأنه أن يكون مسؤولًا عن تلك الفوضى الضاربة في أركان المشفى، عن هذه الآلام التي تضِجُّ بها تلك الأجساد المُعَذَّبة، عن هذه الأرواح التي توشك على مغادرة تلك الأجساد النحيلة المتهالكة.. ثَمَّ مسؤول يجري هنا وهناك، تراهُ لِوَهلةٍ

ثم يختفي، فمثل هذا «الموظف البَغل» لا تراه إلَّا بطَرْفِ عينك، حتَّى إذا ما أتْبَعْتَ رأسَكَ عيْنَكَ واتَّجهتَ إليه بكُلِّيَّتِك لمْ تَرَه إلَّا طيفًا ثُمَّ لا يلبث أنْ يختفيَ.. و«الموظف البَغل» تعرفه بسيماه، تجده ضحوكًا مَرِحًا والناس يبكون ويتَلَوَّوْن من الألم، تَراه لامُبَالِيًا وكأنه يعيش في عالم آخر حالِمٍ، والدنيا تنطبقُ على رؤوس ساكنيها من حوله..

لَحَظَتْ عيناي بعض المبتسمين في آخر الرواق، فعلِمْتُ أنَّهم من العاملين بالمشفى، فأسرعتُ إليهم الخَطْوَ، حتَّى إذا بلغتُهم وجدتُ حجرةً من تلك الحُجُرات التي خُصِّصَت للكشف على المرضى، دخلت، فإذا برَجُل في بدايات العقد الخامس من عُمُره، جالسًا على كرسيٍّ خشبيٍّ متهالك، واضعًا إحدى قدمَيه على الأخرى، وكأنَّه في عِزْبَةِ أبِيه، يرتدي معطفًا أبيضَ من تلك المعاطف التي لا يرتديها الأطباء إلَّا لِيُعَظِّمَهم غيرُهم، ممسكًا بجريدة من تلك الجرائد الملكية الصفراء التي تُسَبِّح بحمد الحاكم وتُقَدِسُ له.. كان يطالع الجريدة في سأمٍ، وهو يتنقل بين صفحاتها وكأنَّه يريد أن يقتل الوقت ليمضي سريعًا، كما يقتل مرضَاه، حتَّى يتسَنَّى له أن يترك تلك المقبرة المُسَمَّاةِ بالمَشْفى زورًا، ويذهب إلى المشفى الاستثماري الذي يعمل به بعد دَوَامِه الحكومي لكي يمتص دماء المرضى بها، بالضبط كما يترك أرض المشفى الشَّعْبِيّ العام تمتص دماء المرضى

الذين يتركهم نُهبَةً لآلامهم وأسقامهم من غير علاج ولا حتَّى مواساة..

ثمَّ سمعتُ صوتَ أنينٍ يأتي من جهة اليسار، فنظرتُ فإذا بشيخٍ مُسْتَلْقٍ على سرير معدنيٍّ نقَّالٍ، يتقلَّبُ على ظهره وجنبيْه من الألم، يستغفر ربَّه ويُحَوْقل وهو مُمسكٌ بجَنْبَيه من فَرْطِ ما ألَمَّ به من ألَمٍ.. كان الطبيب ينظر من آنٍ لآخر إلى الرَّجُل في ضيقٍ، وقد أزعجَتْه تلك الأنَّات، التي ودَّ لو أنَّهُ أخرسَها في جَوْفِ صاحبها.. زَفَر الطبيب وهو يُقَلِّب الجريدة بين يديه، والرَّجُل يتلَوَّى مُتَوَسِّدًا حذاءه، الذي رُبَّما هو كل ما يمتلكه..

تقدَّمْتُ بضع خُطواتٍ حتَّى أصبحتُ إلى جوار هذا الطبيب، ثمَّ مَدَدْتُ يدي إلى الجريدة فانتزعتُها من بين يدَيْه، وألقَيْتُ بها على الأرض، فأجْفَلَ وأخذ ينظر حوله متسائلًا عمَّا حَدَث، فانحنَيْتُ على أُذُنِه هامسًا:

- اتَّقِ الله في عملك..

نهض من على الكُرسِيِّ كمن لدَغَتْه أفعى، وأخذ يُجِيلُ ناظِرَيه في أرجاء الغُرفة عسى أن يرى ذاك الذي وسوس له.. أيكونُ شيطانَهُ؟! ولكنَّ الشيطان لا يوسوس بالخير.. أتكون نفسي؟ أيكون صوت ضميري الغائب؟! ولكنَّني «موظف بَغل» قد مات فيَّ الضمير من قديم.. فمن يكون ذا إذًا؟!..

لم أُمْهِلْه طويلًا، فاقتربتُ منه مُجدَّدًا، وهَمَسْتُ بأُذُنِه:

- اتَّقِ الله في خلقِ الله..

التفتَ خلفه كالمصعوق، فعاجلتُه بصفعة شديدة على صدغِه، فكادَتْ رأسهُ أن تدور حَوْل مِحْورها من قسوتها، فأطلق صرخةً مُدَوِّيةً، ويَمَّمَ وجهَه شَطْرَ مدخل الغرفة مُؤَمِّلًا نفسه بالفرار من المجهول، غير أنَّني اعترَضْتُ طريقَه، ومِنْ ثَمَّ فقد انهالَتْ عليه الصفعاتُ، حتَّى لَم يَعُدْ قلبُه الآثمُ ذاك يحتمل، فهوى على الكُرْسِيِّ مُحَطِّمًا إيَّاه..

اجتَذَبَتْ تلك الجَلَبَةُ بعض العاملين في المَشْفَى من البِغال، فهرعوا إلى الغرفة، وتزاحموا بها وهم يحاولون معرفة ما قد ألَمَّ بصاحبهم.. وأخذوا يتدافعون وهم يحاولون إفاقته، غير مُكْتَرِثين بالسرير المعدني الذي راح يهتزُّ بما فوقه من جسدٍ مُسَجًّى، من شدَّة تدافعهم، حتَّى انقَلَبَ السرير النقَّال على جانبه طارحًا الرَّجُلَ المريض من فوقه، ليسقط على أرض الغرفة مُحْدِثًا دَوِيًّا لم يُصْغِ إليه أحدٌ، فأمسى صدغُه الأيمن مُلتصقًا بالأرض، مُمَرَّغًا في التراب، بينما سقط حذاؤه على صدغِه الأيسر، فانتهى الوجهُ الذي كرَّمَه الله إلى أنْ باتَ بين التراب والحذاء، في مشهدٍ مأساويٍّ ساخر لِما آلَتْ إليه أحوال العباد في «مملكة العبيد»..



أسباب مِن الأرض.. وسببٌ مِن السماء

أصبح الناسُ يتحدَّثون - وهم من قديمٍ لَمْ يُصَبَّحُوا- بشأن تلك الحوادث المتعاقبة، التي لم تشهدْ المملكةُ مثلَها من قبلُ.. فقد ذاع بين الناس أنَّ أُناسًا من أصحاب الجبايات قد تسلَّط عليهم مُتَسَلِّطٌ، فسامَهم سوء العذاب، فألجأ بعضَهم إلى أنْ جلسَ في بيته بين النساء، وأفقَدَ آخرِين النُطقَ، وأزالَ عن البعض الآخر العقلَ الذي لمْ يكونوا يستخدمونه إلَّا فيما فيه أذًى للعباد..

كما شاعَ بينهم أنَّ هناك من يتَقَصَّدُ أربابَ السوطِ والعصا من الشُّرُطة والعاملين معهم من العيون والأدِلَّاء، فشرَّدَ بهم عن اليمين والشمائل، وطفق مسحًا برقابِهم ومرَّغَ أنوفهم في التراب، وأزال عن وجوههم مسحة الكِبْر، وكسَرَ عيونهم إلى الأرض ووأدَ فيها نظرة التعالي والازدراء، التي كانوا يعَذِّبون الناس بها في كلِّ وقت وحينٍ، وأينما تَوَلَّوا، بمناسبة وبغير مناسبة..

ومن وقتها صار الجباةُ والعُتاةُ لا يسيرون إلَّا في جماعاتٍ؛ خشيةَ أنْ يصيبهم ما أصاب أصحابهم من قبل، ولا يسلكون طريقًا إلَّا وهم يتلفَّتون حولهم، ينظرون في وجَلٍ من طرَف خفِيٍّ هل من أحدٍ يترَصَّدهم..

وتكحَّلَت عيونُهم بفزَعٍ قد نسَوهُ دهرًا، ورآهُ الناسُ في عيونهم جليًّا، يكادُ يُزْرِي بصاحبه، وقد حِسبَ الناس لطول عهدهم بسطوة وقهر وظلم هؤلاء العُتاة أنَّ الفزع لا يجوز أن يَجِدَ طريقَه إلى قلوبهم، ولا أن يسكن نفوسَهم، ولا أن يركُزَ عصاه في عقولهم وجوارحهم..

وأخذ قِلَةٌ من الناس يتهامسون فيما بينهم أنَّ الله قد أرسل إليهم ملائكةً من السماء، تُقِيمُ العَدْلَ فيهم، فتنصر المظلوم، وتَشُدُّ على يدِ الظالم، تأخُذ بناصية المُسْتَضْعَفِين وتُبْقِي رؤوسَهم عالية، وتكسِر هامَ العُتَاة وتجعل أمَّهم هاوِية.. غيْر أنَّ أهل الديانة والحكمة لَمْ يَرَوْا يدَ اللهِ في ذلك، ولَمْ يجِدُوا لمثل تلك الملائكة موطأَ قَدَمٍ في تلك الأحداث، وإنْ استبشروا وسعَدُوا بما أصابَ ويُصِيبُ الظالِمِين من نُصُبٍ وعذاب.. فأهل العلم يعرفون أنَّ الله لا يرسل ملائكته لنُصْرَة المُقَصِّرين ودَعْمِهم، إنَّ الذين لا يأخذون بالأسباب ولا يتوكَّلون على الله حقَّ تَوَكُّلِه لا يُنْصَرُون بسبب من السماء، حتَّى يستَوفُوا الأخذ بأسباب الأرض.. هذه سُنَّة الله في أرضه كما هي في سمائه، فالنصر ليس كالرزق، فالأوَّل لا يتَنَزَّلُ إلَّا على مُسْتَحِقِّيه، لا يكفُلُه الله إلَّا لِمَن أعْمَل له ساعدَه وعقلَه وقلبَه، أمَّا الثَّاني فقد كَفَلَه الله للخلقِ جمِيعِهم، حتَّى البهائم..

وعلى الرُّغم من أنَّ عامَّة الناس كانت تكره هؤلاء الجباة وأولائك

العُتاة، حتَّى وإن أظهروا خلاف ذلك وسبَّحوا بحمد الملِك الذي يأمرُ هذا بقهر العباد وإرهابِهم، ويأمر ذاك بالسطو على أموال الناس وأملاكهم، وعلى الرُّغم من أنَّه لمْ يَعِشْ أحدٌ في «مملكة العبيد» إلَّا وقد حدَّثَ نفسه حينًا بتَمَنِّي زوال هذه الطُّغْمَة الظالمة القاهرة، إلَّا أنَّه بعد ذياع هذه الأحداث والأخبار الأخيرة تنازع الناسَ خاطِرَان متناقضان.. وعلى الرُّغم من أنَّ هذَين الخاطرَيْن إنَّما هما على أطراف أقطابٍ متنافرة لا تجتمع، إلَّا أنَّ فطرةَ أهل «مملكة العبيد» المُنتكِسة والسائرة على خلاف ما جَبَلَ اللهُ عليه بنِي آدم، تلك الفِطَرة العجيبة التي أعاد تشكيلَها الجبابرةُ والطغاةُ والغزاةُ على مرِّ الدُّهور منذ أوَّل عهدهم بأنظمة الحكم، فجعلها تفِرُّ من الحقِّ فرَّ الحُمُرِ من القَسْوَرَة، وتلتَمِس للظالم سبعِين عُذْرًا أو يزيد، فإنْ لَم تجِدْ له عُذْرًا قالتْ «لَعَلَّ له عُذرًا»!!، بينما تَعِيثُ فسادًا في أنفسها التي بين جوانحها، وتسعى في فساد ذات البَيْن، تخشى الاتحاد، وتهوَى التَّفَرُّقَ والتشَرْذُم، يعلو صوتُها على صوت أصحابها، وإذا ما واجهَتْ يومًا ظالمًا لا تُحِسُّ من أصحابها من أحدٍ ولا تسمع لهم رِكْزًا.. استطاعت تلك الفِطرة الذليلة أنْ تجمع بين الشتيتَيْن وأن تُؤَلِّفَ بين المتنافِرَيْن، في مزيجٍ عجيبٍ سقِيم، ثُمَّ سقَتْ هذا المزيج الخَرِبَ لقلوب العباد حتَّى تَشَرَّبَتْه نفوُسهم، ونبتَتْ منه لحومُهم وعظامُهم.. لَمْ يعلموا - أوْ لعلَّهم عَلِموا وجَبُنوا- أنَّ

أيُّما جسدٍ نَبَتَ من ذُلٍّ فالقَبْرُ أوْلَى به.. لا، بل إنَّ دفنَ أجساد هؤلاء الذين صاروا مادَّةً للهَوان، كرامةً لا يستحقونها، وإنَّه لحقيق بهم أنْ يُتْرَكُوا على ظهر الأرض، منبوذين، تنهشُ جِيَفَهم السباعُ والضواري والهَوَامُّ والسَّوامُّ، وإنَّ كثيرًا من تلك المخلوقات لَتُنَزِّه أنفسَها عن أمثال تلك الجِيَفِ، كي لا تَنْبُتُ أجسادُها وأجسادُ أبنائها من لحوم ودماء هؤلاء العبيد، فيصيرون لمثل ما صاروا إليه من هوانٍ ومذَلَّةٍ، وشريعة الغابِ لا تأذَنُ بذلك، ولا ترحمُ مَنْ تَخَلَّقَ به..

تَرَدَّدَ الناسُ في «مملكة العبيد» ممَّن سمع بتلك الحوادث المتتابعة بين طائفَيْن، طائف من الله وآخر من الشيطان، فالأَوَّلُ قد أثلَجَ منهم الصدور وألْهَجَ ألسنتَهم بذكر الله «الحمد لله» و«الله أكبر»، وأحاطَهم بحالة من الحُبُور والسُّرور؛ فقد رَأَوا بأعينهم عاقبة الظُّلم والإجرام وأهله، وعَلِمُوا أنَّه لا ينازِع اللهَ أحدٌ في أرضه وشريعته إلَّا أوتِيَ من حيْث لا يدري، وأصِيبَتْ مقاتِلُهُ، حتَّى إذَا أمِنُوا العقوبَةَ وتَمَادَوا في إساءة الأدَبِ، وحتَّى إذَا ظَنَّ القائمون على أمور البلاد والعباد في «مملكة العبيد» أنَّهم قادرون عليها أتاهم أمرُ الله على كلِّ أحوالهم، وهم نائمون وهم قائمون..

حتَّى إذا تسامَتْ أرواحُ العباد في سماء الأمل، وتَطَلَّعَتْ نفوسُهم إلى قابِلٍ، وقَدَّرُوا الخيرَ علَّهم يجِدُوه، إذَا بطائفٍ من الشيطان يأتِيهم، فيَذْهَبُ

بما وجدوه في نفوسهم أدراجَ الرياح، وتُحَلِّق في سماء قلوبهم سحابة قاتمةٌ من الخوف والوَجَلِ، فلا تكادُ تكتمل فرحَتُهم حتَّى تزول، ولا تكاد ترْتَسم بسماتُ الأمل على شفاهِهم حتَّى يُعْرَف الفرحُ والحبُور في مُحَيَّاهم حتَّى تعلو قسَماتِ وجوههم نظراتُ الفَزَع والتَّوَجُّس.. كانوا قومًا لا يعرفُ الاستبشار إلى قلوبهم طريقًا.. وإنْ سَلَكَتْ البشارة يومًا سبيلها إلى قلوب أحدهم لم يلبَث أنْ يلهجَ بلسانه مُتَعَوِّذًا «خيرًا.. اللهمَّ اجعَلْه خيرًا»، وكأنَّه يدري أنَّ الطُمَأنينة لا تأتي إلَّا بِثَمَنٍ وتضحِيَةٍ، فقد غلَبَتْ الحياة المادِّيَّة القاسية التي لا روح فيها على حياة قلوبهم وحياة أرواحهم، فبحثوا عن راحة قلوبهم بما في أيديهم من أعراضٍ زائلةٍ، فرجعوا خائبين مخذولين، فلا هم أعملوا سواعدهم وعقولهم في الأخذ بأسباب الأرض، ولا هم أعملوا قلوبَهم وأرواحَهم في الأخذ بأسباب السماء.. فأُسْقِطَ بهم في بئرِ مَذَلَّةٍ ليسَت كبِئر «يُوسُف»..

كانوا يعرفون أنَّ الاستبشار الذي تَجَلَّتْ بعضُ آثاره على وجوههم وأنَّ هذا الحُبُور الذي لامسَ شغاف قلوبهم، وأنَّ هذه الخِفَّةُ التي تلَبَّسَت بها أرواحهم، لا بُدَّ وأنْ يُتْبَعَ هذا الاستبشار بكثير من العَنَتِ والكَبَدِ والقهر، فقد اعتادوا على طول مُكْثِ الظلم والقهر والذُّلِّ في بلادهم، وفي نفوسهم، وأنَّ الاستبشار وما كان سببًا فيه ضيْفٌ مُرْتَحَل، إنْ قَدَمَ عليهم يومًا لا يلبَث

أنْ يتحَوَّلَ عنهم إلى غيرهم ويُوَلِّهم ظهره، مُظْهِرًا الشماتَةَ في مَن ظَنَّ مُنْهُم أنَّه باقٍ..

كان خوف أهل «مملكة العبيد» من سياط الجلَّادين يحُول بينهم وبين معرفة أيَّام الله ورؤية آياته الواضحات في الكون ومراقبة أقداره النافذة في كلِّ بَرٍّ وفاجرٍ.. فباتوا جميعُهم في عُقْر دارهم مُنْكَمِشِين في وَجَلٍ، يترقَّبُون ما تأتي به الأقدار مِن بَعدُ، يقتُلُ كلُّ واحدٍ منهم ابتسامتَه الوليدة على شفتيه بِيَدِه، لا بِيَدِ المَلِكِ، ويَئِدُ استبشاره واطمئنانه في قلبه؛ خشيةَ أنْ يطَّلِعُ على ما في قلوبهم الزبانيةُ، فيسُوقونهم إلى جهنَّم الدُّنيا وبئس المصير..



فِي قلبِي ضجيجٌ يَصُمُّ أُذُني

مضتْ أيَّامٌ كدَهْرٍ مُذْ رأيْتُ زوجي وأطفالي، وألَـمَّ بقلبي شعورٌ بالفقد والحاجة إلى الأُنْسِ والاطمئنان، فلم يكُن وجود الشيخين «عياض» والعوامر من حولي – على كثرتهم وازدحام منزلي بهم– ليُعَوِّضني عن لحظة من لحظات السَّلام تلك التي كنت أجلس فيها مع أهلي فيما مضى..

طاف عقلِي حولَ كعبة الذكريات التي يمَّمْتُ وجهي شطرها، ورُحْتُ أمُدُّ إليها يدي عسى أنْ أستقي من عَبَقِها الفوَّاح ذِكْرَى تُقِيمُ صُلْبَ روحي وَتَشُدُّ على قلْبِي، وقد بدأتُ أشعُرُ بالوحشَةِ والغُرْبَة؛ فليسَ ثَمَّ صاحبٌ ولا أنيسٌ أُشْرِكُه في أمري وأبُثُّ إليه بعض شِكَاتِي.. كانت الجنُّ على كثرتهم في منزلي ذوات أرواح باردة، على الرُّغمِ من أنَّها خُلِقَتْ من نارِ السَّمُوم.. وكُنْتُ أنا – مَنْ خُلِقتُ من الطين البارد– يشتعل وجداني نارًا ولا أجِدُ من يمُدُّ إلَيَّ بِيَدِه ماءَ الحياة أسكُبُهُ في قلبي فأجِدُ لذَّة بَرِدِهِ وسلامِهِ..

والشيخان «عياض»، على الرُّغْمِ من مظهرهما شبه الإنسِيّ إلَّا أنَّنِي أزْعُمُ أنَّهما أكثرُ برودةً ووحشةً من الجنِّ أنفُسِهِم؛ فقد كانت العوامرُ أكثر تفاعلًا معي منهما..

كَبَحْتُ جماح أفكاري عند هذه اللحظة؛ خشيةَ أنْ يتمكنَّ أحدُ الشَّيخَيْن

«عياض» أو كلاهما من قراءة شيءٍ ممَّا يدور في رأسي، وكيف أنَّنِي أراهما أكثر برودةً من الجنِّ، فيتَخَلَّيَا عن حمايتي ويُسْلِمَانَنِي للمرَدَة والغيلان تنال مِنِّي، وأنا الإنسِيُّ في عالم الجنِّ لا حول لي ولا قوَّةٍ.

***

أسندْتُ كتِفِي إلى أحدِ الجُدْرانِ، ورُحْتُ أراقب الرائِحَ والغادِي.. يمُرُّ من أمامي أحَدُهم يتبعُه قرينُه، ويمُرُّ آخرُ يَجُرُّ من خلفه مجموعةً من الشياطين يأنسون به ويأنسُ بهم.. وقد يحدث أنْ يَمُرَّ ذاكرٌ من أهل الله، لا يكادُ قرينه يحاذِيه حتَّى يخنسُ صريعًا له ضُرَاط.. وقد أرى إحداهُنَّ تتهادى وتتمايَل في الطُّرُقات يتبعها قرينها وآخرون!! لا أدري إنْ كانوا يُوَسْوِسُون لها أيضًا أم أنَّهم يراودونها عن نفسها؟! كنتَ أرى إحدى هؤلاء السافرات ومِن خلفها شياطين الإنس والجنِّ، تسوقهم سَوْق البهائم، لا يغُضُّون عنها الطَّرْفَ.. آهٍ من هؤلاء النِّسوة، لمْ يَسْلَمْ منهُنَّ إنْسٌ ولا جانّ!!..

كنتُ غارقًا في مراقبتي للسائرين في الطرقات في ساعات النهار الأولى، منهم من راح مُتَوَكِّلًا على مولاه، فأوَى إلى رُكْنٍ شَدِيد.. ومنهم من تَوكَّلَ على طاغِيَةٍ فَلَحِقَ به، ومنهم من تَوَكَّلَ على نفسِه فوُكِلَ إليها.. حتَّى بَدَتْ لي زوجي متجاوزَةً باب العقار الذي تقطُنُه أمُّها، تمسك بيديها صغيراي،

وهما يتقافزان كعهدهما كثعلبين لطيفَين صغيرَين، لا يعلمانِ عن الحياة الدُّنيا إلَّا اللَّهوَ، ولا يُبْغِضَانِ فيها إلَّا ما أتَى على حلواهما أو لعبهما أو مشاهدتهما لأفلام الكارتون..

كاد قلبي أن يقفِزَ من صدري كأرنَبٍ مشاكس جلس على جمرةٍ، ولَمْ أدْرِ إلَّا وأنا أسير نحوهم وكأنَّني مُسَيَّرٌ لا مُخَيَّرٌ.. مادًّا ذراعايَ على طولهما، يسبقانني إليهم، يحدو بيَ الشوق حدوًا، وفي قلبي ضجيجٌ يصُمُّ أذُنِي.. منذ متى والقلبُ يُصْدِرُ مثل هذا الصوت، أهُوَ صوت اعتلاج المشاعر المزدحمة فيه أم أنَّ ما فيه من دماء تغلي؟!.. أهو صوت الخوف أم صوت الرجاء؟!! أمْ تُرَاه صوت اللهفة والإقبال؟!..

ظلَّتْ ذراعايَ مُعَلَّقَتَيْن أمامي وأنا أسيرُ نحوهم، حتَّى إذا ما اقتربْتُ منهم إذا بقلبي يخفق خفقةً شديدةً، حسِبْتُ فيها أنَّه توقَّف لوهلة، ثمَّ عادَ لِيَجْتَرَّ الدماء التي سبقَ له أنْ ضخَّها في عروقي، وكأنَّه ندِم على ذلك.. خفقةٌ طردتْني من جنَّة النَّظر إلى أحبابي كما طردتْ ثمرةٌ أبوَيْنا من جنَّة الخُلدِ.. خفقةٌ أعادتني إلى واقعي الذي لا يراه سوايَ ولا يعلمُه أحدٌ غيرِي.. أتُرَانِي أستطيع اعتناقهم وضمَّهم إلى صدري كما اعتَدْتُ ذلك كلَّ صباحٍ ومساء؟! أيَجوز لي أنْ ألمَس وجوهَهم الصغيرة ذات القَسَمات الملائكيَّة تلك من غير بأسٍ؟! كيف لي أنْ أقول لهم ها أنا ذا أمامكم كما أنَّكم أمامي، لا

يفصل بيننا سوى قَدْر ذراع؟ كيف لي أنْ أقول لهم أنَّني هنا من أجلهم، أنَّني عدْتُ إليهم بعد أنْ فرَّقَتْ بيننا الجنُّ واتَّخَذَتْنِي أسيرًا لديها في عالمٍ غير مرئيٍّ؟!..

تلك الخفقةُ الآثمة التي نبتتْ في قلبي كنبتة شيطانيَّة فَسَقَتْ في جنَّةِ الفؤاد فأَتَتْ عليها وأجهَزَتْ عليه، ضَنَّتْ تلك الخفقةُ بالدماء، فحبستْها في القلب، فلا هي تركتها تسري في عروقي ولا هي أنبَتَتْ بها في القلب جنَّاتٍ غنَّاءَ أستعيضُ بثمرها عن لوعة الفِراق ومرارة الإبعادِ.. أنشأتْ تلك الخفقةُ في أوصالي رجفةً، فشعرتُ بالحياةِ تتفَلَّتُ من أطرافي، فِرِجْلَايَ لا تقوَى على الانتصابِ، وذراعاي الممدودان أمامِي لا يجِدَان للصمود سبيلًا، فهَوَيَا كما هوى القلبُ، وقد أيقنَا أنْ لا مِسَاسَ..

علا الصَّدرُ مِنِّي في تنهيدةٍ، عسى أنْ تَلْكُزَ ذلك القلب الكسول، فيدفعُ عن نفسه ما أَلَمَّ به من وجَعٍ أفلَجَهُ.. آهٍ من هكذا ثمن! الآن أُدْرِكُ أنَّ الحياة عبدًا أقلُّ كُلْفَةً من الحياة حُرًّا.. قد قالها من قبلُ أحدُهُم «لو أنِّي أعرف أنَّ البحر عميقٌ جدًّا ما أبحرت».. ألا سُحقًا للجهل، وسحقًا لشجاعة الجَهلِ..

خطَتْ بِيَ أقدامي إلى الوراء من غيْر أمْرٍ مِنِّي سَبَقَ إليها، وتسابق ماءُ العينَيْنِ إلى الفِرَار من سِجْنِهِ عسى أنْ يجِدَ في حُرِّيَّتِه ما كان يرنو إليه.. كنتُ

أظُنُّ أنَّني من الحُرِّيَّة في درجاتها العُلَا، وأنَّ الأسْرَ عنِّي بعيد، لكنَّني الآن أُدْرِك أنِّي أسير، أسيرٌ لدى كلِّ شيءٍ حولي، أسيرٌ لدى قلبي، أسيرٌ لدى جسدي، أسيرٌ لدى الجنِّ وعالمهم، أسيرٌ لدى الشيخَيْن «عياض»، أسيرٌ لدَى أعدائي الذين لا يعلمونَ أنَّني أسومُهم سوء العذاب، أسيرٌ بائس في عالمٍ ضاقَ حتَّى كادَ أنْ يخنق روحي.. نعم إنَّني أسيرٌ، ولَكِنَّنِي مُحْتَسِبٌ..

لَكَمْ قرأنا واختبَرْنا أنَّ الصراع مع أهل الباطل مُكْلِفٌ، وأنَّ النصر لن يأتي من غير ثمن يدفعُه أهل الحقِّ من أعمارهم وأنفاسهم وجوارحهم وأعراضهم وأموالهم وحرِّيَّاتهم.. نعم، فالطريق إلى مُغالبة أهل الباطل وامتلاك أكتافهم ليست مفروشةً بالورود العَطِرَة وتَحُدُّها الحدائق الغنَّاء، بل هي طريق وَعْرَةٌ، يكادُ سالِكُها أنْ تُدَقَّ عنقُه في كلِّ خُطوة يخطوها، يراقبُ الموتُ أنفاسَه، ويَعُدُّها، وكأنَّهُ يضِنُّ بها عليه، طريقٌ مليئة بالشوك والحَسَكِ الذي لا يكَلُّ من تمزيق أقدام سالكيه من أهل الحقِّ والتضحية والفِداء.. طريقٌ زَلِقَةٌ من كثرة الدماء التي تسيل على تربتها، دماءٌ أخذتْ طريقها خارجةً من عروق أجساد المناضلين المتفَرِّقة على جانِبَي الطريق.. طريقٌ على جانبَيه مَدًى يسكُنُه العدُوُّ ويقطعُهُ رائحًا وغاديًا، لا يُحَوِّلُ نظَرَه عن السالكين ليَقْنِصَهم ويقطَعَ عن الخلقِ خيْرَهم وهدايتهم..

نعم، كنَّا نعرف ذلك كلَّه، ولكنَّنِي لم أكُنْ أعلم أنَّي سأخوض تلك

الحرب وحدي، أرتحلُ فيها من ساحَةٍ إلى أخرى، أحملُ سلاحي وأرمي به، وأُلَقِّمُهُ، وأُضَمِّدُ جراحي، وأُعِدُّ زادي، وأشُدُّ من أزرِي، وأكُونُ قائِدي، وكذا تابِعِي.. أكونُ وحيدًا في معركة ليست لِي وحدي، ومع ذلك فإنَّني أخوضها وحيدًا.. أو هكذا أحسِبُ..



ما بَالُ هذا الأَسِيف؟!

مرَّتْ عليَّ أيامٌ عصيبة، وكأنَّها مرَّتْ فَوْقِي، فسحقتْ عظمي ولحمي، وأصابت من روحي ونفسي.. لمْ أجِد من أنيس ولا رفيق دَرْبٍ ولا صاحِب همٍّ يقتسم معي ما أُلاقيه.. نعم، قد حاولَ بعض العوامر من إخواني مواساتي والأخذ بيدي إلى رحابة الطمأنينة، بعد أنْ كادْت روحي أنْ تُزْهَقَ من ضيق الأَسْرِ وشدَّة الغُرْبَة..

مكثْتُ أيَّامًا أتَزَوَّدُ لمِثْلِ ما قدَّمْتُ، لمْ أكُنْ في حاجةٍ إلى زادٍ من مالٍ أو من عَتادٍ، فقد كفاني اللهُ ذلك طالمَا كفَّ أعيُنَ النَّاس عنِّي، ولكنَّ الزَّاد الحقُّ هو زاد الإيمان، زاد الرُّوح، زادٌ يسكن القلبَ ويسوق الجوارح إلى مواطن رضى الله، زادٌ يأخذ بما تفَرَّق من الروح والجسد في ضروب الوحشة والظلام، ويجمع شتاتهما على اليقين والصبر..

عَكَفْتُ على كتابِ اللهِ، أستقِي من مَعِينِه الذي لا ينضُب، وأنْهَلُ من مَوْرِدِه الصَّفِيِّ ما فُتِحَ لي به من الحكمة.. كنتُ به حالًّا مُرْتَحِلًا، لا أكادُ أنتهي منه حتَّى أعود إليه، أتلوه آناء الليل وأطراف النهار.. تسكُبُ المُقَلُ مِنِّي ماءَها تارةً حتَّى تتساءل العوامرُ «ما بال هذا الأسيف؟!».. وينفرجُ الثَّغْرُ مِنِّي مُضِيئًا تارةً أخرى حتَّى يتهامسون فيما بينهم «لَعَلَّهُ جُنَّ أخيرًا!!»..

كتابُ الله رحلةٌ لا يُشَمِّرُ لها عبدٌ إلَّا أُوتِيَ فضْلًا عظيمًا ويُوَفَّقُ إلى فتحٍ كبيرٍ..

وأقمتُ نفسي بين يَدِي الله، مُتَّخِذًا صلاتي مركبَ نجاةٍ، فيها أبتَهِلُ لِرَبِّي، وأتَضَرَّع إليه، وأكسرُ حَوْلِي وقُوَّتِي وحدَّ سيْفِي على عتبَةِ بابِه، وأضَعُ عن كاهِلَيَّ عالَمَ الأسباب، وأُمَرِّغُ وجهي في تراب العزَّة حتَّى يرضَى..

ثمَّ اصطحَبْتُ قلبي في جَولَة بينَ صفَحاتِ كُتُبٍ اصفَرَّتْ أوراقُها، كُتِبَتْ بشغافُ القلبِ وبمِدادِ الروحِ.. سَطَرَ فيها أُناسٌ ارتَحَلُوا إلى ربِّهِم وحطُّوا رحالهم ذاك عند مَلِكٍ كريم، سَطَروا فيها كلماتٍ تُذِيبُ القلبَ شوقًا، وتُزِيدُ الروح خِفَّةً، تسمو بها إلى بارئها، فتجثو وتسجد في حبٍّ وخوف ورجاء تحت العرش..

وبعد أنْ سَرَتْ رِقَّةٌ في القلب، وازدادَتْ مُضغَةُ الجَسَد طراوةً ولينًا، وأمسَتْ سهلةَ الانقياد لخالقها، عكفتُ على أوراق أخرى، ليسَت كسابقتها، تضمن توازن الروح والجسد، تشُدُّ على السَّاعدِ، وتقبضُ على القلبِ، تَشْحَذُ الفِكْرَ وتُمْضِي العزيمة.. فرُحْتُ أجولُ بَينَ غَزَواتِ الرَّسُول ومعارك الأمَّة من بعده، أطوفُ بين ساحات النِّزال، فأشهدُ ضربَ الرقَابِ والبَنانِ.. أتَنَقَّلُ بين سِيَرِ أبطال الأمَّة وغُزاتِها، أرُومُ صِلَةً وأبتَغِي وِصَالًا..

أَقَمْـتُ في دَارِي سـبعَةَ أيَّـامٍ، عـسْكَرْتُ فيهـا، وأعْـدَدْتُ رُوحِـي وقلبـي وعقلي لمواصلة النِّزَالِ.. جدَّدْتُ النِّيَّةَ وأحْكَمْتُ الحِسْبَةَ، واسْتَعَنْتُ بـالله.. ولَمْ أنْسَ أنْ أنظر إلى العوامر الساكِنِينَ في سُقُفِهِم، تعلُو ثغْرِي ابتسامةٌ تقول «جزاكم الله خيرًا.. وإنْ ظنَّ بعضُكم بي مسًّا من الجُنون.. أراكـم بخير».. ومَضَيْتُ ألوي على شيءٍ.. كثير..



لا يدخلِ الجنَّةَ صاحبُ مَكْسٍ

لمْ يكُنِ القائمون على أمور البلاد والعباد في «مملكة العبيد» يعملون شيئًا في سبيل الله قطُّ، بل كلُّ شيءٍ بثَمَنٍ، ولِكُلِّ عملٍ ما يُقَابله، ودائمًا ما تكون الأعمال والأقوال في صالحِهِم هُم، ولَمْ تكُن في صالح العامَّة من أهل البلاد، وما كان يُصِيبُ العامَّة مِنْ خيرٍ فإنَّه يأتِي عَرَضًا، غيرَ مقصودٍ لذاته، كانَ خيرًا لا بُدَّ مِنهُ!!..

لمْ يكُنِ الأحياء في «مملكة العبيد» هم مصدر التمويل الذي تمتلأُ به جيوب المَلِكِ وأعوانه وتزداد أرصدتهم في مصارف الشرق والغرب، فحسب، بل كان هؤلاء الطُّغاة يغصبون الأموال والممتلكات من الأحياء والأموات على السواء، فليس بالضرورة أن تكونَ حيًّا تُرْزَقَ حتَّى يتسَلَّطَ السَّارقُونَ على ما لَدَيْك، بل حتَّى وإنْ فارقَتْكَ الحيَاةُ وأمسَيْتَ جِيفَةً لا تملك من أمْرِ نفسها شيئًا فهناك دائمًا ما بإمكانك أنْ تُقَدِّمَه لأسيادك وهناك ما يُمْكِنُهم أن يسلُبُوك إيَّاهُ ولا بُدَّ..

كان النِّظام الذي أقامه هؤلاء المجرمون مُصَمَّمًا على إذْلال الخلقِ جميعِهم ما أظَلَّتْهُم سماءُ المَمْلَكَة.. بل ليْسَ علَيْكَ أنْ تكون إنسَانًا لتُسْلَبَ كلَّ شَيْءٍ، فحتَّى لو كُنْتَ مِنْ ذوات الأربَعِ فسيجدونَ لكَ دَوْرًا ليَتكَسَّبُوا مِنْ

ورائك!!..

كان كلُّ شيءٍ محظورًا مُجَرَّمًا ومُحَرَّمًا في «مملكة العبيد»، إلى أنْ يَرى القائمون على النِّظام خلافَ ذلك.. التجارةُ محظورة، إلَّا في المجالات التي يأذنون فيها وعلى الوجه الذي يرتضونه.. القراءة مُجَرَّمةٌ، إلَّا فيما يبُثُّونه من سموم في صُحُفِهِم وما يسطُرُه السَّحرةُ من أعوانهم.. الابتكار والاختراع والتطوير ممنوع، قد يُودي بصاحبه ويُورِدُه المهالِك..

ولَمْ يكُن ثَمَّ شيء مجَّانًا وفي سبيل الله أو يُحْتَسَبُ في صنيعِه، بل كان الشعار الذي تُسَاقُ به البلاد سَوْقَ البهائم «مَنْ ليسَ لدَيْه مال لا تلْزَمُه الحياة» أو كما يقول بعضُهم «اللي معوش ميلزموش».. فمَنْ لم يكُن قادرًا على البذل مِن ماله ومِن كرامته لأجل أنْ يحصل على الفتات فالقبر أولَى به.. ومَنْ حَسِبَ أنَّه بالمَوت قد يتفلَّتَ هكذا من سطوة هؤلاء المجرمين فقَد وَهِمَ.. بل إنَّه حتَّى لَنْ يَرَى مثواه الأخير ولنْ يعرِف مِقعدَه أفي الجنَّة أمِ النَّار إلَّا بعد أنْ يدفع ذوُوه رُسُومَ دفنه وجنازته والتصاريح الخاصة بذلك، ويبذلون الكثير من المال لاستخراج شهادة وفاته وإزالة اسمه من قوائم الأحياء في مُخْتَلَف الوزارات والهيئات في المملكة.. ثُمَّ تقوم إحدى هيئات الجبايات بحصْر أملاكه إنْ وُجِدَ، فيقومون بالاستيلاء على قِسمٍ كبير منها، ويُوَزِّعون ما تبقَّى على ورَثَتِهِ، بعد أنْ يقتَطِعُوا مِن نصيب كلِّ واحدٍ منهم

جزءًا في مقابل الرسوم والضرائب وما شاؤوا من شيءٍ بعد..

حرصَ الظَّلَمةُ القائمون على أمور المملكة منذ زمن بعيد على تأسيس وزارة خاصَّة بغصب الناس أموالهم، وفرض الرقابة على كلِّ شيءٍ يمتلكونه وكلِّ نشاط يمارسونه.. يحرصون من خلال تلك الوزارة على ألَّا يكون ثَمَّ شيءٌ مجَّانًا وبغير مقابل.. فإذا أَرَدْتَ أنْ تعمل بالتجارة فلا بُدَّ أنْ تدْفَع من مالك أوَّلًا، بائعًا كُنتَ أو مُشْترِيًا أو وسيطًا.. وإذا أَرَدْتَ أنْ تتعلَّم فعليك أنْ تدفعَ أيضًا، وإذا أَرَدْتَ أنْ تتركَ التجارة أو التعليم فعلَيْكَ أنْ تدفع كذلك.. ومهما كان عملُك فلَنْ تأخذ راتِبَك كاملًا، لا بُدَّ وأنْ يُقْتَطَع منه القدرَ الذي يَرْضَى به النِّظام - وأنَّى لَهُ الرِّضَا- مقابِل أنْ أذِنَ لك في العَمَل ابتِدَاءً.. عليكَ لِزَامًا أنْ تدفع مِن مالِكَ لأجلِ تأمينك الصِّحِّيّ، ولا تحسَبَنَّ أنَّكَ بهذا ستحصل عليه خالصًا مِن دُون الأذى إنْ احتَجْتَ إلَيه، بل لَنْ تحصُلَ علَيْه إلَّا بعد أنْ تدْفَعَ مِنْ مالِكَ المزيد، وعندها ستكون في مَوْطِن اضْطِّرَارٍ وسَتَدْفَعُ مالَكَ كُلَّه إنْ رَغِبَ النِّظَامُ في ذلك رُغْمًا عنكَ، ومِنْ بعد ذلك ستحظَى برعاية صِحِّيَةٍ ردِيئَة تتمَنَّى مَعَها المَوْتَ ولَنْ تجِدَهُ قبل أنْ تبذُلَ مِنْ مالِك أَكْثَر..

كانَ كُلُّ شيءٍ يمتلكه أهل «مملكة العبيد» مُسَجَّلًا لدى تلك الوزارة؛ وظيفتك وراتِبُك ومُدَّخَرَاتُك ومحَلُّ إقامتِك وسيَّارتك وأولادُك ومَا لَهُم،

وتجارتك وبَيْعُك وشراؤُك وهاتِفُك وما تُقَدِّم إليك من خدماتٍ وما لا تُقَدَّم.. وإنْ أرادُوا عدَّ أنفاسِكَ علَيْك فسيقومون بهذا حتمًا.. جميع ذلك وأكثر مُدَوَّنٌ في سِجِلَّاتِ وزارة «الضرائب والمُكُوس»..

***

ازدادَتْ التَّدابِير الأمنِيَّة في المملكة مُؤَخَّرًا بعد أنْ ذاع خَبَر استهداف عُمَّال النِّظام ومؤسساته، وصارت الشُّرُطة يجوبون الطُّرُقات في مركباتهم طيلة الوقت، وأخذُوا يُضَيِّقُون على النَّاسِ كثيرًا، فيوقفونَهم للتَّفْتِيش، ويعتقِلُونَهم لِأَقَلِّ شُبْهَة، وبِدُونِها.. كما كثَّفَ النِّظامُ حراستَه لمُنْشَآته الحيَوِيَّة، ورفع مِن درجةِ استعداده واستعداد أفراده إلى درْجَةٍ غيْر مسبوقة منذُ عهدِ الثَّوْرة الأولى، منذ ما يزيد عن عقدٍ من الزَّمان..

كان مبنَى وزارة الضرائب والمُكوس في عاصمة المملكة مِن أكثر البنايات مَنَعَةً وهيْبةً؛ فتلك البناية الشَّاهقة هي إحدى الأذرع الحديدية التي يقهر بها النظامُ أبناءَ البلاد، وهي - أي تلك البناية- تُمَثِّل إحدى الغايات العُلْيَا التي من أجلها يعيش المجرمون الطُّغاة، فهم يعيشون تلك الحياة الدُّنيا من أجل جمع الأموال مِنْ كُلِّ سبيل، جنبًا إلى جنبٍ مع إشباع شهوة التَّسَلُّط والشُّهرة والقَمْع، مع إحساسهم بواجبهم تجاه قهر أهل الحقِّ ونشر

الإلحاد والفواحش، وتلبية أوامر أسيادهم من الكفرة والمارقين في الشرق والغرب.. وهل يعيش الطُّغاة والمجرمون إلَّا بذلك ولأجل ذلك؟!!..

كانَ مبنَى وزارة الضَّرائب والمُكُوس - كما هي العادة في إنشاء البنايات ذات الشأن- مُشَيَّدًا على مساحة كبيرة، ويُحاطُ بأسوار مرتفعة، يعلوها سياج من الأسلاك الشائكة التي تسري فيها كهرباء تكفي لإضاءة مدينة بأكملها، ويحاط المبنى بكاميرات للمراقبة، لا تَدَعُ ذبابةً تطير إلَّا وأذِنَتْ في مرورها بسلام في الفضاء المُحِيط.. وكانت البناية تقَع في وسط منطقة مَلْأَى بمنشَآت النِّظام الحاكِم السِّيَادِيَّة والشُّرُطِيَّة والأميريَّة، فكانت المنطقة بأكملها تحظى بحراسة شديدة، ولا يستطيع أحدٌ مِن المَدَنِيِّين التَّفْكِيرَ في الاقتراب فضْلًا عِن الشُّرُوع فيه..

كانَ اللَّيلُ قد أسبَغَ على الدُّنيَا قتامَتَهُ، وألجَأَ الكائنات جميعَها إلى دورِها وجحورِها، إلَّا مِنْ بعضِ البُومِ والخفافيش التي شَبَّتْ على عِصْيانِ الظُّلْمَةِ منذُ العَهْدِ الثَّانِي بعد الطُّوفان.. السُّكون قدْ حلَّ مكانَ الهَواء، فللهواء صوتٌ وإنْ سَكَنَ، أوَتِ الرِّياحُ إلى أقطابها التي تَهُبُّ منها، وتَخَلَّتْ عن أماكنها لأجْلِ الظَّلام والسُّكون..

خَطَوْتُ في تَؤُدَةٍ، وأنا أضعُ يدَيَّ في جَيْبَيّ سروالي، وأنَا أُدَنْدِنُ فِي نفسِي

«سَلَكْتُ طريقي ولا لَنْ أحيد.. عَزَمْتُ المَسِيرَ بِعَزم الحديد.. ووَدَّعَ دُنْيَايَ قلبٌ عنيد.. تَوَجَّهَ طَرْفِي لأرض الأسود».. حتَّى لاحَتْ لِي تلك البنايات السِّياديَّة، واحدةٌ تُلْوَ الأخرى.. أخَذْتُ أُجِيلُ نَظَرِي فيها حتَّى وَقَعَ ناظِرَيَّ على الواحِدَة التي أبْغِي..

اقْتَرَبْتُ منها في غَيْر عَجَلَةٍ، وألْقَيْتُ نظرةً على رَفِيقَايَ عن جانِبَيَّ، وتَقَدَّمْتُ حتَّى أقَمْتُ نفْسي قُبَالَةَ البَوَّابة الحديدية الكبيرة التي ترتفع إلى خمسة أمتار.. كانت البوَّابة مُغْلَقَةً، ولَمْ يَكُن ثَمَّ منفَذٌ للعبور من خلالها، وكانَ يقف من أمامها ثلاثةٌ من أفراد الأمن المُتَحَفِّزين المُزَوَّدِين ببعض الأسلحة الخفيفة.. وكانت سيَّارةٌ تابعة لِقُوَى الأمن تجوب الشَّوارع المحيطة بتلك المنشآت من آنٍ لآخر؛ لرَصْد أيِّ مُحاولَةٍ للتَّسَلُّلِ، وللإشراف على فِرَقِ الأمنِ المُكَلَّفَةِ بحماية جميع البِنَاياتِ في المنطقة..

أذِنَ الظَّلَامُ لِنَسْمةٍ رقيقةٍ أنْ تَهُبَّ لوهلةٍ، فشعَرْتُ ببرودةٍ لذيذةٍ مُنْعِشَة تلامس عُنُقِي ووجهي في تلك الليلة من ليالي فصل الصيف الذي كادَ أنْ يُوَلِّي.. وكانَ الجُنُود الذين يقفون قبالة البوَّابة من الخارج يقطعون الصمتَ الذي أسكنَهُ اللَّيلُ وجهَ الأرض، أحيانًا بتبادل أطراف الحديث، ولا بأس ببعض المِزاح..

اقتَرَبـتُ مـن البوَّابـة الحديديـة وجمعـتُ قبـضة يـدي وطرَقْـتُ طـرقتَيْن متتابِعَتَيْن عليها.. التَفَتَ أفرادُ الأمنِ الثلاثة إلى الورَاء، بينما أرسلَ صاحبٌ لهم صوتَهُ من خلف البوَّابة متسائلًا عمَّنْ طَرَقَ وما يُرِيد.. نفى أحدُهُم أنْ يكونَ أحدٌ منهم هو الطَّارقُ، وحسِبَ الذين هم خارجِها أنَّ من بالداخل يمازِحُونهم، كما ظنَّ مَنْ بالدَّاخِلِ أنَّ أصحابَهُم بالخارجِ إنَّما يَصْنَعُونَ مثِيلَ ذَلِكَ.. انتظَرْتُ بُرْهةً وأعَدْتُ الكَرَّةَ، فعَلَا سبابُ مَنْ بالداخل لأصحابهم بالخارج، وهنا فُتِحَ بابُ حديديٌّ صغير يُمَثِّل جزءًا من البوَّابة الكبيرة، وخرج منه أحد أفراد الأمنِ وهو يُمازح أصدقاءهُ ويُطْلِقُ عليهم سيْلًا من السُّباب، وما لَبِثُوا أنْ تناسَوا أمر الطَّرْق، وقد أحالَ بعضُهُم إيَّاه على بعض..

تركتهم يتحدَّثُون وهُم يُعَبِّؤُون صدورهم بنسماتٍ مُنعِشةٍ مُفْعَمَةٍ بالسلام والهدوء، ودلَفْتُ من الباب الصغير لأجد بقية أفراد الأمن، بعضٌ منهم يقف بالداخل، والبعض الآخر يجلسُ في غرفة الأمنِ إلى جوار البوَّابة، يتسامرون ويحتسُون الشَّاي والقهوة التي تعينهم على اليقظة وإبقاء عقولهم متَوَقِّدَة..

تجاوزتهم باتِّجاه البناية الضخمة ذات الخمسة عشر طابقًا.. كان باب المبنى الرئيسي ذو الواجهة الزجاجية موصدًا، ولْم أتَمَكَّن مِن فتحه، فرُحْتُ أدُور حَوْل البناية عسى أنْ أجِد إلى داخلِها منفذًا.. فإذا بباب معدِنِيٍّ صغير إلى الجانب الأيمن مِن البناية، فأدرتُ المقبض ففُتِحَ.. أجَلْتُ بصري في

الجوار لأرى هل من أحدٍ يلحظُ أمْ لا، ثمَّ دخلتُ وأعدْتُ إغلاقَه خلفِي..

كان الباب يُؤَدِّي إلى سُلَّمٍ ضيِّقٍ، قَدَّرْتُ أنَّه سُلَّم الخدمات، فارتَقَيْتُ، وعالَجْتُ الأبواب المُوصِلَة إلى المبنى حيثُ المكاتب فوجدتُها جميعًا مفتوحةً، فليس ثمَّ سببٌ يدعو لإحكام غلقها والبناية تحت حراسة شديدة ومراقَبَةٌ بالكاميرات، وكذا البنايات والشوارع المُحِيطة.. أتْمَمْتُ صعودِي إلى الطابق الأخير، وجُلْتُ في المكاتب، كانتْ ملأى بالملفَّاتِ، مئات الآلاف منها، هنا توجد جميع المعلومات عمَّا يمتلكه هذا الشَّعب المسكين، هنا حيث توجد المعلومات والبيانات التي تُمَكِّن السَّارقين من غصب أموال الناس بالباطل، ولو أنَّهم استخدموا تلك البيانات لجمع أموال الزكاة والجِزية الشرعية من الناس لكان خيرًا لهم ومرضاةً لرَبِّهم، ولكن من قال بأنَّهم يأبهون لأمر الله ونهيِه؟!! بل إنَّهم أهملوا جمع الزكاة وأوجدوا لها الضرائب والمُكُوس والجبايات بديلًا، فزهدوا فيها، ثمَّ جرَّموا جمعها بين الناس، ثمَّ حرَّمُوا جمع الصدقات، حتَّى أمسى الفقير لا يكاد يجِد مِنْ فقرِه مهربًا، بعدَ أنْ غُلِّقَتْ أبواب البَذْل والخَيْر في وجهه..

كانت غايتي من زيارة تلك البناية هي تدمير تلك المعلومات التي يُحْسِن هؤلاء المجرمون استخدامها، وتلك البيانات تقبع هنا في تلك الملفَّات وعلى أجهزة الحاسب الآلي تلك وفي غرفة التَّحَكُّم حيث الذاكرة

الإليكترونية الرئيسية.. لَمْ يكُن من سبيل إلَّا بالتَّطْواف على جميع تلك الملفَّات لتمزيقها وإعطاب تلك الأجهزة الحاسوبية بسرعة وإتقان، وذلك عن طريق إضرام النيران في المبنى بكامله.. إذا اشتعلَتِ النيران في طوابق مختلفة من البناية واتسعَتْ رقعة الحريق فإنَّه سيأتي على قدر كبير من الملفَّات والحواسيب في أقصر وقتٍ مُمْكِن..

دخَلْتُ إلى أحدِ الغُرَفِ المكتَبِيَّةِ وأجَلْتُ نظَرِي بها؛ محاولًا أنْ أجِدَ ما أستعين به على إشعال النيران.. ولَمْ أكُنْ أدري أين يَقَعُ المَقْهَى حيثُ يعُدُّ العاملون به المشروبات المُخْتَلِفَة لمُوَظَّفي البناية، فلا بُدَّ وأنْ تكون به قارورة غازٍ أو أكثر، أستطيع الاستعانة بها على إضرام النِّيران، على الرُّغْم من خطورة تلك الخُطوة عليَّ.. تحسَّسْتُ أدواتي التي ضمَّنْتُها في حزامِي، وأخرجتُ من بينها قدَّاحتي، نصَبْتُها أمام وجْهِي ونظَرْتُ إلَيها، وقارَنْتُ بين حجمها الضئيل وبين حجم البناية الضَّخمة، وقلتُ في نفسي «أتَسْتطيع تلك القدَّاحة الصغيرة أنْ تملأ البناية على ما فيها نارًا؟!»..

كان هناك بعض المَرَدة الراقدون هنا وهناك، منهم مَن افتَرَشَ الأرْضَ ومنهم مَن افتَرَش سقْفَ الغُرُفَاتِ، كانُوا جميعهم مِن الجِنِّ الكافِرِ حتَّى يَدْعَمَ الرسالة التي تقوم بها تلك البناية في إقامة أحد أنظمة الإجرام.. كانَ بعضُهم متيَقِّظًا، وآخرُون على وَشْكِ النَوْمِ، فلَمَّا دَخَلْتُ عَلَيْهم صحبَةَ

الشَّيْخَيْنِ «عياض» حتَّى فرَّ طائرُ النَّومِ من فوقِ رؤوسِهم، وتَلَفَّتَتْ إلينا الأنظار ولَوَوا إلينا أعناقهم، ورَمَقونا بنظراتٍ مليئةٍ بالشَّكِّ والدَّهشَةِ والغَضَب، وكأنَّهم يتساءلون فيما بينهم «ما الذي أتى بهذا الإنسيِّ وهذَيْن الحَفظَة في تلك الساعة؟!!».. وذَهَبَ بعضُهُم يُوقِظ من سبقَ عليه النَّوْمُ، وما هي إلَّا بضع دقائق حتَّى امتلأت البناية بجميع طوابقها بأعداد من المَرَدَةِ والغيلان تزيد عن الحصر..

جُلْتُ في أرجاء الطابق الخامس عشر أبحثُ عن غرفة المَقْهَى، فَلَمْ أجِدْ لَها أثرًا به.. فقمتُ بحمل الملفَّات الورقية وصنعت منها كَوْمَةً مرتفعة، ثمَّ قمت بتقطيع أسلاك الحواسيب الآلِيَّة بخنجري وحملت وحدات النظام الخاصَّة بكُلِّ واحدٍ منها ووضعته على تلك الكومة من الأوراق، ثمَّ التَقَطْتُ ورقَةً مِن بينها وأشعلتها بقدَّاحتِي، ثمَّ أشعلتُ بها ثانيةً فثالثةً، ثمَّ ألقيتها على كَومَة الأوراق تلكَ.. فلَمْ تَمُرُّ دقائق حتَّى اشتَعَلَتِ الأوراق عن آخرها..

كانَتِ النِّيران تنتشِر سريعًا، وكانَتْ تمتَدُّ إلى الآثاث والفُرُشِ، وهنا أدْرَكْتُ أنَّه يَجِب علَيَّ أنْ أتحرَّكَ بسُرْعَةٍ كبيرة قبل أنْ يلحظ أفراد الأمنِ النيران التي بدأتْ تلتهم الطوابقَ واحدًا تلو الآخر، فيَعْمَلُون على إخمادِ الحرِيق قبل أنْ يأتِيَ على المَبْنَى بكامله، كما آمُلُ..

***

قدَّرْتُ لنفْسِي خمسَ دقائق فحسبُ، أقضِيها في كُلِّ طابقٍ، ولا أزيد عن ذلك، حتَّى أستطيع أنْ آتِيَ على أكبر قَدْرٍ من البيانات قبل أنْ يكتشفوا أمري وأنَّ خطبًا ما يحدُث.. وكُنْتُ قد جَمَعْتُ ما وصَلَتْ إليه يداي من ملَفَّاتٍ وحواسيب وجعَلْتُ منها كَوْمَةً واحدةً في أحد الغُرَفِ الدَّاخِلِيَّة التي لا تُشْرِفُ على السَّاحاتِ الخارِجِيَّة التي قد تُرَى مِنها النِّيرانُ.. غَيْرَ أنَّنِي رأيْتُ أنَّ في هذا ضياعٌ للوقت، وهو ثمِينٌ، فعَمَدْتُ إلى صُنْعِ عِدَّةِ أكْوامٍ مِن الأوراق في كُلِّ طابقٍ، كُلُّ غُرْفَةٍ مكتَبِيَّة على حِدَةٍ، بدلًا مِن حَمْلِ الأوراق والحواسيب مِن غُرْفَةٍ لأُخْرَى..

اشْتَعَلَتْ نيران الغَضَب في أعيُنِ الشَّياطين، وتَعَالَتْ أصواتُهم بالخُوَارِ والرُّغاءِ والفَحِيحِ والصُّرَاخِ.. ورأيْتُ بعضَهم يُحاوِل النَّيْلَ مِنِّي، غَيْرَ أنَّهم لا يلبُثُون أنْ يُصْعَقُوا ويَرْتَدُّوا على أعقابِهِم خاسِئِين.. كما رأيتُ البعضَ منهم يحاول إطفاء النِّيرانِ بالنَّفخِ فيها، وكانوا ينفُخون بقُوَّةٍ، وقَدْ رأيتُ منهم في ذلك قُدُرَاتٍ عجيبة، غيْرَ أنَّ نفخَهُم ذاكَ لَمْ يَزِدْ على كَوْنِهِ إذْكاءً لتلك النِّيرانِ، تمامًا كما يَصْنع نافِخُ الكِيرِ في مَوْقِدِهِ.. وكأنَّ الشَّياطين قد فُوجِئَت بذلك، فهَرَعَتْ تبحثُ لأنفسها عن سبيل للنجاة مِن ذلك الجحيم المُسْتَعِر الذي بدأت أولى جذَواتِه تَذْكَى.. النَّارُ جُنْدٌ مِن جنود الله، لا يقِفُ أمامها جبَّارٌ وإنْ خُلِقَ منها.. فها هِي الجنُّ قدْ خُلِقَتْ مِن نار السَّمُوم، ولكِنَّها مع

ذلك لا تُطِيقُهَا، كيف وقد تَخَيَّرها الله مِنْ بين صُوَرِ العذَاب جميعِها لكَي يُعَذِّبَ بها مَنْ كَفَرَ بِهِ وجَحَدَ أُلُوهِيَّتَهُ، وعصَاه..

تَرَكْتُ الشَّياطينَ تعدُو وتتقافَزُ فِي كُلِّ اتِّجاهٍ كالفَراش المبثُوثِ، وقد رأيتُ النَّارَ وقد نشَبَتْ في بعضِهم فأحرَقَتْهُم وهُم يعوُونَ كالذئاب ويرفعون وجوههم إلى أعلى ويصرخون، وقد صمَّتْ أصواتُ صُرَاخِهم سمعي، حتَّى كادَ قلبي أنْ ينخَلِعَ مِن فَرْطِ الهَلَعِ الذي كادَ أنْ ينتَقِلَ إلَيَّ.. ترَكْتُهُم ونزَلْتُ إلى الطَّابِقِ الرَّابعِ عَشَرَ، فَطُفْتُ بِهِ باحثًا عن غُرْفَةِ المَقْهَى، ثمَّ أخَذْتُ في جمع الأوراق والملَفَّات والحواسيب في مُنْتَصَفِ كُلِّ غُرْفَةٍ، وبعد أنِ انتَهَيْتُ مِن جمعِها مَرَرْتُ عليها مُشْعِلًا فيها النيران.. وهكذا انتَقَلْتُ مِن طابقٍ إلى آخَرَ مُمْضِيًا ذات الصَّنِيع..

كانتِ النيران تنتشر بسرعة كبيرة، أسْرع ممَّا قدَّرْتُ لها، وامتلأتِ الطَّوابقُ الأربعة العُلْيَا بالدُّخَانِ الذي وَجَدَ لنفْسِه طريقًا إلى خارجِ المبنى.. حالَ الظَّلامُ في باديء الأمر دونَ روية الدُّخانِ الأسود الخارجِ من طوابقِ البناية العُلْيَا، غيْرَ أنَّ رائحة الحَريق سُرْعانَ ما زَكَمَتْ أُنُوف جميع من كان بالقرب من البناية، كما أنَّ وهَجَ النيران بدأ في الظُّهور من النوافذ التي بدأ زجاجها يتكسَّرُ مُحْدِثًا دَوِيًّا عاليًا مِنْ فَرْطِ الضَّغْطِ الجَوِّيِّ المُرتَفِعِ داخِلَ البنايَة مِنْ جرَّاءِ الحَرِيقِ..

رأى أفراد الأمنِ النِّيران تلتهم الطَّوابق العليا، فقاموا بمهاتَفَةِ قُوَّاتِ الإطفاء، ولَمْ يُحَاوِلُوا دُخُول البِنايَة خشْيَةَ أنْ تَمَسَّهُمُ النَّارُ، وما هُمْ منها بخارجين.. نَظَرْتُ مِن أحَدِ النوافذ، فرأيتُهم يعدُونَ في كلِّ الاتجاهات، ويتواصلون مع بعضهم وآخرين عن طريق الهواتف اللاسِلكِيَّة.. أدْرَكْتُ أنَّ قُوَّات الإطفاء ستكون هنا عن قريبٍ، وأنَّ علَيَّ أنْ أُسْرِعَ أكثر، فعَزَمْتُ على إشعالِ طابقٍ وترْكِ آخر عسى أنْ تنتقِلَ إليه نيران الطَّابِقِ الأسفَل منه..

جَدَدْتُ في العَمَلِ والبَحْثِ حتَّى وجدْتُ ضَالَّتِي الأولَى في الطَّابِقِ السَّابع.. دخلتُ إلى غرفة المَقْهَى، فوجَدْتُ قارورة الغاز تنتظرني، فقمتُ بالتَّأكُّدِ من غَلْقِها وإزالة خُرطومها، ثمَّ قمتُ بحَمْلِها على كتِفي، وتَنَقَّلْتُ بها مِن طابقٍ إلى آخرَ، حتَّى وُفِّقْتُ إلى العُثور على ضالَّتِي الثَّانِية، غرفة التَّحَكُّمِ في الحواسيب وشبكتِها الإليكترونية في الطابق الخامِس.. قمتُ بوضع القارورة، وفَتَحْتُ صمَّامَ الأمانِ على آخِره، وتَوَجَّهْتُ إلى مكاتب هذا الطابق وجمعتُ منها كَوْمَةً من الأوراق والملَفَّات وأشعلْتُ فيها النِّيران، ثمَّ أسرعتُ بالنزُول إلى الطَّابِقِ الرَّابعِ لأصنعَ مثل ما صَنَعْتُ بسائر الطَّوابق..

كانتْ أصواتُ أبواق سيَّارات الإطفاء قد بدأتْ تتعالَى، تُنْبِأُ عنْ وَفْرَةٍ في أعدادها، فعَزَمْتُ على الرَحِيل، وما أنْ وطَأتْ قدَمَايَ الطَّابقَ الأوَّل حتَّى سَمِعْتُ دَوِيًّا هائلًا، انحَنَيْتُ على إثْره وقَدْ ظَنَنْتُ أنَّه قَدْ يمَسَّنِيَ مِنهُ سُوءٌ..

كانت القارورة قد انفجرَتْ مُدَمِّرَةً كلَّ شيءٍ في نطاقها، ومُحَطِّمةً بعض الجُدران المُحيطة بها..

وفي طريقي إلى أسفلِ البناية قابَلْتُ أحدَ فِرَقِ الإطفاء في طريقهم صاعِدِين يحملون مُعِدَّاتهم على أكتافِهم.. مَرَرْتُ إلى جِوارهم، مُتَمَنِّيًا لهم السَّلامةَ مِن الأذى والإخفاقَ فيما هم بِصَدَدِه..

تلَمَّسْتُ طريقي إلى خارجِ البناية، ثمَّ إلى خارجِ الأسوار المُحِيطَةِ بها بصعُوبَةٍ بالغَةٍ؛ مِن شِدَّة الزِحام، وأنا أتَصَبَّبُ عَرَقًا، غيْرَ أنَّني اصطدَمتُ أكثر مِن مرَّةٍ بأفراد الأمنِ والإطفاء، الذين لَمْ يتَنَبَّهُوا إلى أنَّ جَسَدًا غَيْرَ مرئِيٍّ قد اصْطَدَمَ بهم، فقَد كانَ الخَطْبُ عظِيمًا، وكانت البناية قد أمسَتْ بُرْجًا من النِّيران يخرجُ منها الدُّخانُ من جميع نوافذها.. كانَ منظَرًا تنخَلِعُ له قلُوب أهل الباطِلِ وتَقَرُّ له عيُون أهل الحقِّ، فها هي أحد تلك المؤسَّسات الشيطانيَّة تتهاوَى، لِيَنْقَطِع عن الناس شَرَّها.. إلى حِين..



كُلُّهُ بالقـانون

كـان «همَّـام البطِـين» أحـدَ أولئـك المنتَفِـشين الـذين امـتلأت بطـونهم وجيـوبهم بـدماء النـاس ومعانـاتهم.. كانـت أرصـدتُه في المـصارف وأملاكـه ونفـوذه يـزداد بـشكل طَـرْدِيٍّ مـع زيـادة فقـر النـاس ومعانـاتهم.. كـان رجـلَ أعمال كبير، ورجل سياسة قدير!! ورجـل تـشريع مِـن دون الله حقيـر.. كـان أحدَ أولئك الذين يُمَثِّلُون الشعب في تلك المجالس الصُّوريَّة التي لـيس لهـا دورٌ إلَّا تفـصيل القـوانين التـي بهـا يمـارس المجرمـون دَوْرَهـم في الـسلب والنهب والتجَبُّر على الخلق في إطارٍ مُنْضَبطٍ حسْب ما يَرَونَـه في كـلِّ مرحلـة تمُرُّ بها المملكة.. فإذا ما تغَيَّرت وتيرة سَيْر الأمور في فتْرةٍ زمَنِيَّةٍ مَّا فـلا بـأس بتعديل تلك القـوانين المطَّاطـة لتـسمح بمزيـد مـن الـسَّرقة والقَهْـر.. و«كُلُّـه بالقانون»..

تسلَّق «البطِين» كما تسلَّق غيره من أعضاء مجـالس النُّـوَّاب علـى أكتـاف الناس، واتَّخَذَ من أحلامهم وآمالهم وفقرهم ومعاناتهم سُـلَّما يرقـى بـه إلـى أعلى درجات الانحطاط والنَّذالة.. تبوَّأ «البطِين» مكانتَـه تلـك بعـد أنْ وطَـأَ علـى أعنـاق المـساكين وخـانَ الأمانَـةَ التـي قلَّـدَها إيَّـاه هـؤلاء المُغَفَّلُـون السُّفَهاء.. نعم، لَمْ يكُن لِمِثْلِ هذا أنْ يحـوزَ تلـك المناصِـب إلَّا بقِلَّـةِ بـصيرة أهـلِ دائرتـه وقِلَّـة ديـانَتِهِم – علـى الـرُّغم مِـن أنَّهُـم يظُنُّـونَ عكْـسَ ذلـك

بأنفُسِهم!!- وضحالة تفكيرهم وعدَم منطِقِيَّة، وعشوائيَّة أفعالهم.. جميع تلك الخِلَال التي لا تجوز إلَّا للمُغَفَّلين ساهمَتْ في تَوْسِيد الأمْر إلى غَيْر أهلِه، وإذَا وُسِّدَ الأمرُ إلى غيْر أهله فانتَظِرْ السَّاعة، ولكنْ يبدو أنَّ ساعةَ أهلِ «مملَكَة العبيد» قد جاءَت مُبَكِّرًا، أو هكذا حَسِبَ بعضُهُم!! فما كانَ البأسُ الذي يَرَوْنَه ويعيشُونه في كلِّ لحظات حياتهم إلَّا بُرهانًا على أنَّهُم رُبَّما قد قامَتْ قيامتُهُم وآلَ مصِيرُهم إلى جهنَّم وبِئس المصير، بعد كُلِّ هذا العنَاء!!..

ينشَط أمثال هذا «البطين» في أوقات الانتخابات البرلمانية، فتراهم يقطعون الأرض ذهابًا وإيَّابًا، ويعقدون الاجتماعات والمؤتمرات، والمؤامرات، ويُجَيِّشُون المُغَفَّلِين والمُجرمين والبلطجيَّة والمنافقين، فيُنجِزُون لهم الكثيرَ من الأعمال القَذِرة، في الخفاء وفي العَلَن.. تلهجُ ألسنتُهم بالوعود والعُهود، ويقطعون على أنفسهم المواثيق، ويُقسمون بالله كذبًا وهو يعلمون، يستَخِفُّون بعقول العامَّةِ، التي هي في الأصلِ خفيفةٌ!!، ويُمَنُّونهم وَيَعِدُونَهم، وما يَعِدُونهم إلَّا غُرورًا..

إنَّ هؤلاء إنَّما يتصدَّرون كلَّ مشهدٍ ذي بالٍ في «مملكة العبيد»، تحت سمع ونَظَر الملِكِ ونِظَامِه، بل وبِرِعايَةِ هذا الأخير ومبارَكَتِه وتزويره، وما تلك الانتخابات إلَّا ذريعة للتزوير وإحدى مراحِلِه.. إنَّ نظام المَلِك يضمَن

أَلَّا يُوَسَّد الأمرُ إلى غير من هُم على تلك الشاكلة مِن الخوَنة والمجرمين، هكذا يبقى النظام قائمًا على أرض العبيد، حيًّا في نفوسهم، مُتَسَلِّطًا على رقابهم، باقِيًا رُغْم أنوفِهم..

بعدَ أنْ أخَذْتُ استراحةً قصيرة مِنْ بعدِ أنْ قمْتُ بعمَلِيَّةِ بناية الضَّرَائِبِ والمُكُوس تلك، التي أتَتِ النِّيرانُ عليها بالكُلِّيَّة ودمَّرَتْ جُلَّ البيانات المُسْتنَدِيَّة والإليكترونية فيها، أخَذْتُ أُراقب سير الأمور وكيف سيتعامل النظَام مع تلك المُتَغَيِّرَات التي ألجأتُه إليها، ووَجَد نفْسَهُ مُقْحَمًا في حوادِث لا يستطيع فكَّ طلاسِمِها..

كانَ نظامُ المَلِكِ يقوم على القمعِ والإرهاب، وأداتُهُ الأولى التي يلجأ إليها في التَّحَكُّم في الناس هي السَّيْف، لا يفهمُ هذا المأفون والمجرمون مِن حَوْلِه إلَّا لُغَةَ الخوف والتَّنْكِيل.. وهذا ما أقدَمُوا عليه كرَدَّةِ فِعلٍ لتلك الحَوَادِث المُتَعَاقِبَةِ، فكثَّفُوا مِنْ وُجُودِ عناصر الأمْن والشُّرطة في الشَّوارع والطُرُقات والميادين، وعزَّزُوا تلك العناصر بأعداد كبيرة وآلِيَّاتٍ مختَلِفة من القُوَّاتِ العسكَرِيَّة الأميريَّة وقُوَّات «مُكَافَحة الشَّعْبِ»، وضَيَّقُوا الخِناق على الخلقِ، وأكثَرُوا مِنْ إيقاف المارَّةِ وتفتيشِهم، وقَبَضُوا على بعض مَنْ حسِبُوا أنَّ لهم صِلَةً بما يحدُث، وَزَجُّوا بالكثير مِنْهُمْ في المُعْتَقَلَات ومقَرَّاتِ الاستجواب الخاصَّةِ بالأمْنِ المَلَكِيِّ الدَّاخِلِيّ، ولَقَى النَّاسُ مِنهم عنَتًا

شديدًا وقَمْعًا لَمْ يَخْتَبِرُوهُ مُنْذُ عهدِ الثَّوْرَةِ المبتُورة الفائتة مُنْذُ أكثر من عقدٍ مِن الزمان..

كان حَنَقِي يزدادُ يومًا بعد يومٍ على هذا النِّظامِ المجرم وسياساته في كلِّ مجالٍ مِن مجالات الدُّنْيَا والآخِرة، وعقَدْتُ العَزْمَ على المُضِيِّ قُدُمًا في التَّنْكِيل به والإثخانِ فيه قَدْرَ الوُسْعِ والطَّاقَة، وأعْدَدْتُ العُدَّةَ مِن جديدٍ، وذهبتُ لزيارة «البطين»..

***

كان «البطين» يمتلك الكثير من العقارات والقصور والأندية، ولَمْ أكُنْ محيطًا بجميعها، بالطبع، فأنا لَمْ أكُنْ مِن قبلُ مُتَّبِعًا أو مراقبًا له عن كَثَبٍ، غير أنَّ صحائف خزاياه وجرائمه لَمْ تَكُنْ لتَخْفَى على أحَدٍ، بل إنَّه كثيرًا ما يفخَرُ بجرائمة وتجاوزاته تلك وإفسادِه في الأرض على شاشات التِّلْفَاز وعلى صفحاتِ الجرائد وأمام العامَّةِ في كُلِّ مكانٍ تَطِؤُه قدماه، لا يسْتَحْيِي مِن أحدٍ، ولا يهابُ أحدًا..

تخَيَّرْتُ مِنْ قائمة ممتلكاته قصْرًا في قلب العاصِمَةِ، وكان التَّسَلُّل إليه ميسورًا، على الرُّغْمِ مِن كثرَة الحُرَّاسِ والخَدَمِ، وكِلَاب الحراسَةِ.. كانَ للقَصْر حديقة كبيرَةٌ، يقطعُها الراكبُ في ساعاتٍ ولا يكاد، وفي منتصفها

يرتَكِزُ القصر بأعمدته الرخاميَّة العالية، وشُرُفَاتِه الواسعة نصف المستدِيرة، التـي تتوسَّـطُها شُـرْفةٌ هـي الأكثـر اتِّـسَاعًا مِـنْ بينِهـا، وهـي التـي يقـف فيهـا «البطين» مُتَطَلِّعًا ومراقبًا لجَنَبات قصره المُتَرَامِي..

كانَ القصْر ذو الطوابق الثلاثة فسيحًا مِن الداخل، مُغَطَّاةٌ أرضِيَّتُه بالرخام الثمين، به الكثير مِن الأعمدة الرخامية المستديرة الضخمة، كتلك التي تُمَيِّز المعابد الفرعونيَّة بأرضِ مِصر، وتتناثر التُّحَف والأصنام وأعمال الخَزَف في أرجائه، بنظامٍ يبدو عشوائيًّا، وتُغَطَّى بعض الأرجاء ببُسُطٍ ذات أليافٍ ناعمةٍ طويلـة تغـوص فيهـا الأقـدام، أحسِبُ أنَّهـا مِـنْ صُـنْعِ الأتـراك أو الفُـرْسِ، والأثاث جميعُهُ كلاسيكيٌّ قديم، تبدو عليه الأصالة والنفاسة.. ويقود سُلَّمٌ رخاميٌّ لولَبِيٌّ طويلٌ إلى الطابق الثاني حيثُ غُرَف الإقامة والاستضافة والمكتبَة والموسِيقَى!! وقدْ تعَجَّبْتُ مِن هذا «البطين»، أيَسْمَع الموسيقى أو يتذَوَقُها؟!! فعلى الرُّغم مِن يقيني بأنَّ الموسيقى هي رسول الشيطان النَّاعِم إلى قلب المرءِ وأنَّ ضرَرَها على أبناء الأمَّة أعظَمَ من نفعها الذي يزعُمُه بعض المشتَغِلين والمهووسين بها، إلَّا أنَّ هذا «البطين» كان جافِيًا، غيرَ ذِي ذَوْقٍ، كان جعْظَرِيًّا جوَّاظًا صخَّابًا، ليس مِن أهل المعازِف على كُلِّ حالٍ.. ولكِنَّ هذا هو دَيْدَنُ كلِّ مُحْدِثِ نِعْمَةٍ مِن بعد فَقْرٍ مع دناءَةِ نفسٍ وفِطْرَة مُنْتَكِسة، فيحاول مَن كان هذا حاله وذاك أصلُه أنْ يبدو للغير صاحب ذوْقٍ

رفيع وأصْلٍ غير وضيع، فيَتَشَبَّع بما لَمْ يُعْطَ ويُسارع في ارتداء ثوْبَي زورٍ، أوْ أكثر، على قَدْرِ استطاعَةِ قلْبِه الآثِم ونفسِه اللَّئِيمَةِ، فتجِدُهُ يبادِر إلى شِراء أشياء والتَّحَلِّي بمظاهر يحسَبُها تُمَيزُ أهلَ الحظْوَةِ والغِنَى.. فإنَّه يمتلك في قصره ذاك صالة للألعاب الرياضية، تضُمُّ أجهزةً حديثة، وهو - كما يُشِير إلى ذلك اسمُهُ ورَسمُهُ- صاحب بطنٍ عظيمة تسبِقُهُ أينَمَا ذَهَبَ، كما يمتلكُ حمَّامَ سباحةٍ يغبِطُهُ علَيْه الأبطال الأولِيمبِيُّونَ، فيرتدِي بنطال سباحة قصير ونظَّارَةً شمسِيَّةً ويستلقِي على كرسِيِّ الاسترخاء وإلى جانبه كوب العصير وزجاجة الخَمْرِ، وهُو مع كُلِّ هذا لا يعرِفُ السِّباحة ولَيْسَ مِن أهلها!! كانَ رجُلًا فارغًا مُصْطَنَعًا لا قِيمَةَ له إلَّا لجمع المال وقهر الناس وممارسة سُلْطَتِه عليهم.. وبأمثال هذا كان المَلِكُ يُوَطِّدُ أركانَ مُلْكِه وسُلطانِه..

لمْ يكُن هذا المأفون في قصرِه حين أتَيْتُهُ، فعَزَمْتُ على انتظارِه رَيْثَما يعود، فأسُومُه ما سَامَ مَنْ كانُوا مِنْ قبلِهِ.. وطالَ مُكْثِي عِنْدَه، ولَمْ أكُنْ لأبتَئِسَ لأجْلِ ذلك؛ فقَد حَرِصْتُ على إمضاء أوقاتٍ جيِّدَةٍ في أرجاء هذا القَصْر.. ومِنْ ذلك أنَّني كنتُ أبدأَ يومِي بالصلَّاةِ والذِّكْرِ، ثمَّ أتَرَيَّضُ ما شَاء اللهُ لِي في حديقة القَصْرِ التي يبلُغُ مِن الخَيْل الرَّاكِضِ فيها الجَهْدُ، ثُمَّ أتَسَلَّلُ إلى غرفة الطَّعامِ وأتناوَل من الطَّعام المخزون في الثلاجة، والتي ضَمَّنَها ما لذَّ وطابَ مِمَّا يُعَوِّل عليه «البطين» في ملأ هذه البطن العظيمة.. وبطبيعة

الحال كان تناولي للوجبات متفرِّقًا بشِدَّةٍ تبعًا لِمَنْ يروحُ ويأتِي على غرفة الطَّعام والثلَّاجة المُودَعَةِ بها.. وكنتُ أتَخَيَّرُ لنفسي مكانًا قصِيًّا بعيدًا عن الأعيُنِ لأنامَ فيه لَيْلَتِي، وكُنْتُ أتَجَنَّبُ الغُرُفَاتِ، على الرُّغْمِ مِن كثرتِها؛ حتَّى لا يفجؤنِي أحدُهُمْ مِمَّنْ قد يستخدِمها.. نعم، إنَّهم لا يرَوْنَنِي ولا يستطِيعونَ النَّيْلَ مِنِّي وإنْ جَهَدُوا، ولكِنَّنِي لمْ أُرِدْ أيضًا أنْ أُثِير الشكوكَ، فيبلُغُ ذلك «البطينَ»، فيُحْجِمُ عن القُدُومِ، فيَشُقُّ ذلك عليَّ..

مَكَثْتُ على ذلك مُدَّةَ خمسةِ أيَّام، اخْتَبَرْتُ فيها بعض النَّعِيم الذي يتمَرَّغُ فيه هذا المُجْرِم على حِسابِ المظلومين والمقهورين.. وكذا طُفْتُ بيْن الغُرُفاتِ مُحَيِّيًا العَوامِرَ الساكنِين في السُّقُفِ والحدائِق، ولاعِنًا المَرَدَةَ والشياطين الرائحين والغادين في القصر وفي الخلَوَاتِ.. حتَّى كانَ اليومُ السادس الذي أتى فيه «همَّام» إلى القصر في سيَّارته السوداء الفارهة..

كانَ وقتَ الغروب حينَ وطَأَتْ قدماه داخل القصر، وكان رجلًا بذيئًا كجميعهم.. تبًّا لهم، ألا يستطيع أحدُ هؤلاء المجرمين أنْ يَدَعَ اللَّعْنَ والسُّباب والبذاءة من فِيهِ؟!! نعم، كيف يدَعُونها وهي إنَّما تَقَرُّ في قلوبهم وتملِكُ علَيْهم نفوسَهم؟!!.. منذ اللحظة التي دخل فيها القصر وهو يَسُبُّ هذا ويلعنُ ذاك ويبصق في وجه هذا، ويوَجِّه صفعةً لهذا وركلَةً لذاك.. كانَ الجميع يهابونه، فَهُمْ يعرفون أنَّه لا دينَ له، ولا خُلُقَ، إلَّا سَيِّئًا، كانوا يعرفون

أنَّه يَتَقَوَّى بعلاقتِه الوطيدة بالمَلِكِ وكِبار رجال المملكة، وهو مِنْ قبل هذا مجرم ونذل..

دَلَفَ الرَّجُلُ - ولَمْ يَكُن في الحقيقة رجلًا ولا ذَكَرًا- إلى مكتبه الفسيح ذي المكتبة الكبيرة التي تغطى جدارَيْن كامِلَين من جدران الغرفة الأربع.. وعلى الرُّغم من هذا العدد الهائل من الكتب والأوراق فإنَّه لمْ يقرأ منها شيئًا قطُّ، فقد كان من أكثر الناس زهدًا في العلم ومصاحبة العلماء، كان «البطينُ» آيةً من آيات الدهر في الجهل والجهالة، بل كان يعمَدُ إلى أهل العلم والحكمة في جميع المجالات، ولا سِيَّما الدينية منها، حيثُ يقوم بإذلالهم واحتقارهم والحطِّ مِن شأنِهم وإظهارهم بمظهر الجاهل قليل الخِبرة الذي لا يعرف شيئًا عن الحياة والواقع الذي يعايشه..

تَبِعْتُه إلى داخل الغرفة حيثُ تَوَجَّه حاملًا حقيبته السوداء الكبيرة إلى خزانة معدنية ضخمة إلى اليمين من مكتبٍ خشبيٍّ فَخْمٍ، قام بالضغط على بعض الأزرار في لوحة مفاتيح الخزانة، ثمَّ قام بفتح بابها الكبير، وأخذ في إخراج أموالٍ تستَعِصي على العدِّ والإحصاء، وأودَعَها الخزانةَ لتستقر بها إلى جِوار أُخْرَيَاتٍ سبقتها إلى جَوْفِ الخزانة التي تُبَارِي كِرْشَ «البطين» في القَدْر الذي يمكن لها أنْ تبتلعَه بداخلها!!..

بعد أنْ أنهى «البطينُ» طقوسَ إيداع الأموال التي غَصَبَها في يومِه ذاك مِن هنا وهناكَ، في خِزانَتِه، تلك الطقوس التي تبدأ بحَمْلِ الأموال في شَغَفٍ ولهفَةٍ يحسُدُه عليها «مجنونُ ليلَى»، ويكتُبُ فيها «ابنُ شدَّادٍ» مائةَ مُعَلَّقَةٍ في حقِّ محبوبته «عبلة»، ومرورًا بعدِّها مرَّاتٍ تُلْوَ أخرى، وما يتخلَّلُ ذلك من عمليَّة جَمْعِ الرحيق من هذا الورق البنكنوتيّ ذِي الفئات والألوان المختلفة، فيدُسُّ أنفَه بين الأوراق مُسْتَنْشِقًا، وكأنَّ تلك الأموال غَنِيَّةٌ بالأكسجين كغِنَاها في نفسها، وقد يتبَع ذلك لعقٌ لبعضِ الأوراق التي يجذبُ «البطينَ» مظهرُها وملمسُها، فبدا ككلبٍ أُلْقِمَ عظمةً فهو يعكُفُ عليها لعقًا وتقبيلًا.. ثمَّ يتلو ذلك لحظةٌ هي أكثر اللحظات مرارةً وقسوةً على قلبه وعقله الصغير الذي لا يحتَمِل!! لحظة أنْ تُفارق أناملُه الأموال إلى باطن الخزانة، فترتَدُّ أناملُه إليه مرتَعِشَةً ترتجفُ في حسرةٍ وألَمٍ، يذوقُ فيها مرارة الفقد وقسوة الحرمان، وتَوَدُّ تلك الأنامل لو أنها انطلقت مرَّةً أخرى فتلَقَّفَت تلك الأموال فاحتَضَنتها بباطل الأكُفِّ وتضَرَّعت إليها ألَّا تفارقها إلى أنْ يَطِئَا سويًّا عَتَبَة القَبْرِ..

راقَبْتُ «البَطِينَ» في مَلَلٍ، حتَّى انتهى مِن تلك الطقوس التي يقوم بها كلُّ عبدٍ للدينار والدرهم، حتَّى أغلَقَ خزانته وانطلقَ إلى غرفة نومه، ثمَّ تَوَجَّه إلى دورة المياه المُلْحَقة بالغرفة، وقام بفَتْح صنبور المياه لكي يملأ

المَغْطَس استعدادًا للاغتسال احتفالًا بتلك الصفقة القذرة الجديدة التي تقاسم عوائدها مع الملك وبعض رجاله..

تَبِعتُه إلى داخلِ دَوْرة المياه وصاحِبَيَّ إلى جانِبَيَّ.. كانت الشياطين تجوب الدورة في بهجة وانشراح، وما إنْ دَلَفَ الرجل حتَّى هُرِعَتْ تلك الشياطين إليه، فكانت الكلاب تلعق أقدامه وما تَصِلُ إليه من جسده، والأفاعي تلتف حول ساقه صعودًا ونزولًا في مَرَحٍ وكأنَّها في نُزْهَةٍ، وسَارَعَتْ بعض الشياطين التي كانَتْ مُتَشَبِّثَةً في السَّقف بالقفز والجلوس على كَتِفَيْه وهي تهزُّ ذُيُولَها في فَرَحٍ، واضعةً أياديها السوداء المرعبة على رأسه وعلى وجنَتَيْه.. أحسَسْتُ بصدق وإخلاص شديدَيْن فيما تُقَدِّمُه شياطين الجِنِّ تلك إلى شيطانِ الإنسِ ذاكَ، أمَّةٌ بعضُهُم من بعض.. غير أنَّ اليوم الذي سيتنكَّرُون فيه لبعضهم ويتبَرَّأُ كُلُّ فريق مِن الآخر ليس ببعِيدٍ.. لَمْ تعرف تلك الشياطين يومًا معنى الصَّعق، فأنَّى لهم أنْ يُصْعَقُوا وصاحبُهُم لايعرف معنى ذِكْرِ الله، لَمْ يَذْكُرْه يومًا ولَم يسمَعُوه منْه، لَعَلَّ ذلك أنْ يكون مِنْ حُسْنِ الجِوَارِ وصِلَةِ الأرحَام!!..

وما إنْ تَنَبَّهَت الشياطين إلى دخولي صُحْبَةَ الشَّيْخَيْنِ «عياض» حتَّى كشَّرُوا عن أنيابهم، وعلا صياحُهم وفحيحُ ثعابينهم ونباحُ كلابهم، وأخذوا بالنزول مِن عليائهم، حتَّى تحَلَّقُوا وأحاطُوا بنا وهم يُفَكِّرُون كيف سيبدأون

هجومَهم علينا، فقرَّرْت أنْ أُسْمِعَهُم ذِكْرَ اللهِ لأوَّل مرَّةٍ في حياتهم.. وقد كان؛ فما أنْ سمعوا ذكر الله حتَّى صُعِقُوا جميعًا، وولَّوْا مدبِرين لهم صُراخ وعويل وضُرَاط..

أمالَ «البطينُ» جذعه إلى الأمام وتفَقَّدَ بأطراف يُمناه الماء الذي ملأ المغطَسِ لِتَوِّهِ، ثمَّ وجَّهَ يدَيْه إلى أطراف سرْواله استعدَادًا للخروج مِنه والدخولِ تحت الماء الباردِ المُنْعِش.. عَلِمْتُ أنَّ تلك اللحظة هي المناسبة لِي لكَيْ أُباشِر ما أنا بصَدَدِه؛ فإنَّني لَمْ أكُنْ على استعدادٍ لرؤيَةِ أكثر ممَّا رأيتُه منه، فإنَّ رؤية بطنِه العظيمة تلك كافيَةٌ بأنْ تُثِيرَ في نفسِ المرء رُهاب الأماكنِ المُغْلَقَة والضَّيِّقة، وما يُصَاحب ذلك من اشمئزاز وقَرَفٍ..

خطَوْتُ حتَّى أقَمْتُ نفسي على قَفَاه، ومِنْ ثَمَّ قُمْتُ بدَفْعه دفعَةً شديدة إلى الأمام، حتَّى اصطَدَمَتْ رُكْبَتَاه بجدار المِغْطَسِ، وهَوَى على وجهه، الذي اصطدَم بصفحة الماء، فطَبَع على وجهه صفعةً أُولَى، حاوَل من بعدها أنْ يُدِيرَ وجهَهُ إلى الخلف ليَجْعَلَه قُبالَة الهواء كي يستطيع التِقَاطَ أنفاسه التي قطَعَتْها المُفاجَأة، وكي يرَى وَجْهَ ذلك الذي دَفَعَه، غيْر أنَّني عاجَلْتُه بصفعة أخرى بيمِينِي، تَلَتْها أُخْرَيَاتٌ مع بعض اللكَمات المُوجِعَات.. كانَتْ رأسُهُ التي هي بحجمِ كُرَّة سلَّةٍ قد أمسَتْ بذَاتِ لونِها - أي كرة السلَّة- الأحمر مِن كثرَةِ الصَّفَعاتِ واللكمات، وقد احتَقَن وجهه بشدَّةٍ وامتَقَع وهو

يحاول جاهدًا أنْ يجِدَ فُسحَةً مِن الوقت كيْ يسرقَ نَفَسًا.. غير أنَّه لَمْ يكُن ماهرًا في التقات الأنفاس كمهارته في التقاط حقوق العباد.. كان يشعُرُ بأنفاسه تُسْرَق منه ولا يستطيع لاستعادتها سبيلًا، ولستُ أدرِي إنْ كان قد شَعَرَ في مثل تلك اللحظات العصيبة التي لمْ يسبق له أنْ اختبَرَها بمِثل ما شعر به المُستَضعَفون مِمَّن كان يسلُبُهم أموالهم وما لَهُم وأنفسهم مِن قبلُ، ولا يجِدُون لِرَدِّ ذلك مِن سبيل.. آهٍ لو أنَّني استطعتُ النفَاذَ الآنَ إلى عقلِهِ وقلبِهِ فأرى ما تُخَالِجُه الآن مِن مشاعِر شَتَّى، ليس مِن بينِها ما يُثْلِجُ صدرَه ويُهَدِّئُ مِن رَوْعِه.. تُرَى كيفَ هو الآن وأنفاسه تُسْلَبُ قسرًا مِن رِئَتِه التي أمسَتْ مستَغِيثَةً بكُلِّ مُغِيثٍ؟!! كانَتْ أنفاسهُ تخرج في الماء مُسْرِعَةً على شكلِ فقاقِيعَ وكأنَّها تفِرُّ مِن رِئَةِ مجذومٍ..

لمْ أكُنْ أحتاج إلى أنْ أُلْقِيَ بِثِقَلِي عليه لكَيْ أُثَبِّتَه بداخل المغطَس حتَّى تخرجَ أنفاسُه؛ فقَدْ تكَفَّل ثِقَلُهُ وكتلتُه العظيمة بذلك، فلَم يكُنْ يستطيع النهوض مع توالي الضربات والصفعات.. ما أعظمُه مِن جسَدٍ وما أوهنُه!! جسَدٌ أثقَلَتْه الذنوب والمعاصي، جسدٌ غُذِّيَ بالحَرام حتَّى نبَتَ مِنْه.. جسَدٌ كلُّ عضوٌ فيه قد اقتات على آلام وآمال الضعفاء والمساكين.. جسدٌ النار أوْلَى به..

لَمْ يُمْهَلْ «البطين» للصراخ وطَلَبِ النجدة، فقد تكفَّلت أنفاسُه المَسلوبة

بقَطْع الأمل في قيام أحباله الصوتية الغليظة ذات الصوت الذي يشبه نهيق الحمار إذا ما تداخل مع خُوَار البقر، بالقيام بوظيفتها في الصراخ والعويل والتأسُّف على عُمُرِه الذي شارفَ على النفاذ..

مَكَثْتُ قليلًا حتَّى هدأ صَدْرُ المُجرم، وتوقَّفَتْ فقاقيع صدره عن الخروج من أنفه وفَمِه، وهدأ جسدُه الضخم وتوقَّف عن الحركة، وقد أخذ يتمايل على سطح الماء بِخِفَّةٍ لَمْ يعهدها في حياته وقد كان أَوَّلُ عهده بها في أولى لحظات قيامَتِه التي قامت لِتَوِّها.. سدَّدْتُ نَظَرِي إلى جَسَدِه الضخم الذي يَزِيد على جَسَدِ فيل رضِيعٍ وقد ملأَ المَغطَس بكُتْلَته الضَّخمة، ساجِدًا بجبهَتِه على صفحة الماء، تلك الجبهة التي لمْ تسجد لخالقها قطُّ إلَّا في مناسبات معدودة رياءً وسُمعةً ظاهرةً على مُحَيَّاه، لا تخفى، يعرفُها كلُّ ناظرٍ وإنْ كان مِن أهل الغفلة والسفاهة..

تركتُه على حاله تلك، ومَضَيْتُ خارجًا، تنازعني مشاعرُ متباينة مِن الأسف على حاله تلك التي آلَ إليْهَا، وكيف أنه جعل لأهل الحقِّ حُجَّةً عليه، وما رَجَعَ عمَّا أفنى فيه عُمُرَه مِن الظُّلْم والسرقة والإفساد في الأرض حتَّى أُقِيمَتْ عليه.. كان بَيْن يَدَيَّ لا حَوْل له ولا قوَّة، أقَلِّبُه ظهْرًا لِبَطْنٍ كيفَ أشاء، ولَمْ تستَطِع جُثَّتُه العظيمة تلكَ أنْ تدفعَ عنه السُّوءَ وإنْ جَدَّتْ، هذا في حياته، فكيْفَ حالَ مَوْتِه؟!! أتُرَى أهل الشرِّ مِن أمثَال هذا المَقْبُور يدرِكُون

أنَّهُم كـذلك – أهـلِ شِـرٍّ– أمْ أنَّهـم يقطعـون دروب الظُّلُمـات كالـسكارَى لا يدرُون إلَّا وقد وصَلُوا إلى منتهاها مِن الظلم والبغي والعدوان وهمْ مع ذلك يحسبون أنَّهم على حقٍّ وأنَّهم يُحْسِنُون صُنْعًا؟!!.. أتُـرَى الحُجَّـة قـد قامَـت على أمثال هؤلاء؟!! أمْ ماتَ وهُـو لا يـدري فيـمَ قُتِـلَ؟!! أتُـرَى قيامُـها عليـه لازمًا أمْ يجب عليـه أنْ يـدفعَ ثمَـنَ مـا اقترفَـتْ يـداه مِـن آثـام في حـقِّ الـبلاد والعباد، سواءٌ أقَام عليه أحدُهم الحُجَّةَ أم لم يُقِمْها؟!!..

سدَّدْتُ إليه نظري؛ لأُلقِي على جسده العـائم ذاك نظـرَةً أخيـرة قبـل أنْ أوَلِّيه ظهري لأترك هـذا المكـان الآثـم بمـا فيـه مِـن شـياطين لتعـودَ فترتـع في أرجائه، ولم يفُتْنِي أنْ ألحـظَ بطـرف عينِـي رأس ثعبـانٍ شـيطانِيٍّ يخـرج مِـن فتحـة المجـرور ليراقـب الأحـوال إلـى مـا صـارتْ، حتَّـى إذا مـا زال الخطـر وانصرَفْتُ صُحْبَةَ الشيخَيْن «عياض» نقل الخبر إلى زمـرة الـشياطين فعـادُوا إلى ما كانوا عليه..



لَيْلُ الغِوايَةِ.. مُظْلِمٌ

كانت التدابير الأمنيَّة التي يأمرُ الملِكُ زبانِيَتَه باتِّخاذها تزداد سوءًا وشِدَّةً يومًا بعد يَوْمٍ، وكانَت الشُّرَطة والدَّرَك وأفراد الأمن يتَسَلَّطون على الخلق ويتَعَرَّضُون لهم بشتَّى أنواع الأذى والإهانة والانتقاص والقمع، بكلِ سبيلٍ وفي كلِّ دربٍ، حتَّى ضاقَت الأرضُ بخلقِ الله بمَا رَحُبَتْ.. فعلَى الرُّغم مِن أنَّ أهل «مملكة العبيد» كانوا على درجةٍ كبيرة مِن احتمال أقصى درَكَات الذُّلِّ والهوان، وقد كانُوا يُبْدُون فيما مضى مرونةً شاذَّةً مُنْكَرَةً في ذلك، وكانوا يستَمتِعُون حقًّا بالمُغْتَصِب الذي لا يستطيعونَ إلى نزع شَوْكَتِه عن خواصِرِهم سبيلًا، حتَّى أمسَى قطاعٌ كبير منهم لا يستطيعون أنْ يَمِيزُوا بهجةَ الحياة الدنيا إلَّا ورؤوسهم مسحوقة تحت الأحذية وأنوفهم ممَرَّغة في الوَحْل، وأمسى قطاعٌ كبير منهم أيضًا يُعَرِّضُون للمَلِكِ أقفِيَتَهم وأقفية الخلقِ مَعَهُم وهم يتَغَنَّوْن بحِكمَتِه وما يجود عليهِم به من هِباتٍ وأُعطيات، وكيف أنَّ ذلك الذلَّ الذي يرَوْنَه في كلِّ لحظَةٍ مِن لحظات حياتهم البائسة تلك ليس إلَّا وله حِكْمَةٌ وفائدة ومِيزَةٌ لا يدركُها أكثُر الخلقِ لجهلِهم وبدَاءَةِ رأيِهِم، ولو أنَّهم أدركوا ما يعُود عليه مِن ممارسات ذلك المَلِكِ النبيل لسألوه المزيد ولقالوا له مِن قلوبهم «نحنُ معكَ ومِن خلفِكَ أبَدَ الدهر».. وعلى الرُّغم مِن تلك الحال التي وصلَ إليها أهل «مملكة العبيد» مِن تعايُشٍ

مع المُـذِلِّ – مِـنْ دونِ الله– والـذُّلِّ ومظـاهِرِه، إلَّا أنَّهـم اكتَـشَفُوا بعـد تلـك التدابير الأمنية القمعيَّة الجديدة أنَّ هذا القدْرَ مِن الذُّلِّ لَمْ يكن نهاية المطاف حَوْلَ مقَامِ الهوانِ بالنسبة إليهم، وأنَّه دائمًا هناك المزيد منه، فكلَّما ظنَّ أحدُ هؤلاء الساذِجين أنَّه مِن غير الممكـن لهـم أنْ يختبِروا ذُلًّا وإهانـةً أكثر ممَّـا وصلُوا إليه – بمجهودهم ومباركتهم– إذا بهم يستيقظون مِن غفلَتِهم تلك على ضَرْبٍ جديد وقدرٍ أعظَم مِن الذُّلِّ الذي لم يكونوا يتصوَّرُونه فيما مضى، حتَّى في أحْلَك أيَّام ذُلِّهم السَّالفة..

كان أهل «مملكة العبيد» يرتجفون مِن الخوف ومِن المجهول وممَّا قد يحمله لهم الغدُ القاتم القادم.. كان إذا صحا أحدُهُم من نَومِه ارتجَفَت أوصاله لأنَّه لا يزال على قيد الحياة، واسمه لا يزال مُقَيَّدًا في دفاتر الملِكِ وزبانيَتِه، وإذا أوى إلى فراشه لا يغفَلُ، ويهابُ طائرُ النَّومِ أنْ يَحُطَّ على أهداب عينَيْه لِيُغْلِقَها؛ كي لا يمَسُّه طائفٌ مِنَ الذُّلِّ مِمَّا أصابَهم.. وإنْ غفَا طائرُ النَّوْمِ يَوْمًا فأغلَقَ عيْن أحِدِهم فأصَابتْه غفوَةً، لا يلبَثُ أنْ يتمَثَّلَ له المَلِكُ أو أحدُ زبانيَتِه شيطانًا مريدًا يطاردُه في نَوْمِه كما يتَعَقَّبُه في صَحْوِه، فلا يمكُثُ غَيْرَ بعيدٍ حتَّى يشيحَ لطائر النَّوم اللعين ذاك، فيطِير مبتَعِدًا غير مأسوف على فَقْدِهِ، ويبقى المسكين مِن أهل «مملكة العبيد» وحيدًا فَزِعًا متكوِّرًا على نفسه في فراشه، يأبى عليه طائرُ النوم أنْ يزوره في ليلتِهِ تلك

وفيما تَقْدُمُ عليه مِنْ لَيَالٍ..

***

هبَّتْ نسماتٌ ماكراتٌ في تلك الساعة المتأخرة من الليل، نسمات جريئات لا تهاب سطوة الظَّلام ولا تكترثُ لحظر التجوال الذي يفرضُه وقتما شاء على مَن يشاء.. وكأنَّ تلك النسمات الساهرات قد تلَقَّت جرأتَها تلك مِن مُرتادِي ذلك الشارع العريض المُظلم، والذي تصطفُّ على ضِفَّتَيْه الحانات والملاهِي الليليَّة.. كان شارع «الدنيا» كاسمِه، دنيئًا ولا يخطوه إلَّا كلُّ دنيءٍ.. يعرِفُه كلُّ أحد، ولا يستطيعُه كلُّ أحَدٍ.. شارعٌ طويلٌ حتَّى ليَظُنَّ الغريبُ ألَّا نهايةَ له، يفتح ذِراعَيْه في أوَّلِهِ للباحثين عن مُتعَةِ الجسَدِ وعن لذَّة النَّظَرَ إلى كلِّ حرامٍ، يرتادُهُ الآثمون ويعملُ فيه مَن لا خَلاق لهم من أشباه الرجال والسافرات، ويقوم على حمايته زبانية المَلِكِ منَ شُرُطة السياحة..

يجتذبُ «شارعُ الدنيا» ذاك الغاوين مِنْ كلِّ حدبٍ وصَوْب، فيأتيه الفاحشون مِنْ أرجاء المملكة، بل ومِن خارجها، وبخاصَّةٍ مِن دُوَل الذَّهَبِ الأسود.. فقد اشتُهِرَ هذا الشارع بما فيه مِن حانات وخمَّاراتٍ ومراقِصَ، وبمَنْ فيها مِن ساقطاتٍ سافرات وراقصات وأخدانِهِنَّ مِن أرباب الطَّبْل والمِزمار وفاحِشِ الأقوال والأفعال و«هزِّ الوَسَطِ على الواحدة والنصف»!!..

وكانَ كبار أهل الفجور والفتنة الذين أخذُوا على عواتقهم العارية عبءَ إشاعة الفواحش بين الناس، وقد كانوا يقومون بهذا العمل المجرم حقَّ قيام ويبذلون مِن أجله الغالي والنفيس ولا يألُون جهدًا في سبيل الحيلولة بين الخلق وبين شرع ربِّهِم وبين أخلاقهم وقِيَمِهم ومبادئِهِم وفِطْرَتِهِم، عوامل حفظ النفس تلك التي أمسى الكثيرُ منها غائبًا عن عقول وقلوب الناس.. وكانَ إخلاصهم في إنجاز تلك الأعمال الآثمة إخلاصًا يكاد أنْ يكون خالصًا عَرِيًّا عنْ الخَيْرِ وإنْ دقَّ، إخلاصًا حُقَّ لأهل الخيرِ والصلاح أنْ يغبطوهم عليه!!.. كان كبار أهل الفجور هؤلاء يتَّخِذون مِن تلك الدُّور سَكَنًا لهم، وملجأً يلجأون إليه بعد الفراغ مِن بذل العرَق والدَّمِ مِن أجل إخراج العباد مِنْ دينهم..

كان بعضٌ مِن أولئك المارقين الخارجين عن أمْر الله مِمَّن حَرَفَتْ أعمالُهم السينيمائيَّة التي ينسبونها زورًا إلى الفنون مئات الآلاف مِن شباب وفتيات الأمَّة عن الطريق القويم وعن طاعة ربِّ العالمين، وقد تفرَّقَتْ أعمالهم في كلِّ أنحاء المعمورة وقدْ كُتِبَ لها القبولُ في الأرضِ وأحاطَ بها غضبٌ وسخط مِن السماء، فتسلَّلَتْ كلماتهم وتأوهاتهم وأراذل أفعالهم كلَّ بيْتٍ، وحطَّتْ على ناصيةِ العبادِ لتأخذَ بها إلى مواطِن الرَّدَى والهلَكِة، كما يحطُّ غراب الخراب على أطلال قومِ عادٍ وثمودَ.. وهل يكونُ البِغاء

والداعية إليه فنًّا؟!! أيكون أمثال هؤلاء القوادين والساقطات دُعاة فضيلة وخير وإيمان؟! أتكون أعمالهم تلك داعيةً إلى الرُّقِيّ والتحَضُّر والوسَطِيَّة؟!.. حقًّا، لا يَحِقُّ لك أنْ تتعجَّبَ مِن قولِهم، فإنَّ الدعاةَ في المؤسسة الدينيَّة كانُوا يُصِرُّون على ترسيخ تلك العقيدة الخَرِبَة في عقول أهل «مملكة العبيد»، بل والممالك والجمهوريات التي تجاورهم ويستطيع لحن القول منهم أنْ يصِلَها.. وقد سدَّدُوا وقارَبُوا ونجحوا في بلوغ مَرَامِهم، كيفَ لا وقدْ بذلُوا مهجة قلوبهم ونور أعينِهم مِن أجل ذلك؟!! حتَّى أمسى مجتمع «مملكة العبيد» خليطًا عجيبًا مِن الديايِثة والسافرات والمنخلعينَ مِن دينهم، وهم يحسبون أنَّهم على الضِّدِّ مِن ذلك.. ففي «مملكة العبيد» كان الدعاة والبغاة على دقَّةِ طبلٍ واحدةٍ أو إنْ شِئْت فقُل على «هزَّةِ وِسْطٍ» واحدة، فقد كانت فتاوى أهل الدين ونظريات أهل الاقتصاد وأهواء أرباب السُّلْطة تُشَكَّلُ بـ «هزِّ الوِسْط»، في غُرَف الحانات والمراقص المُغلَقة..

قطَعْتُ شطرَ «شارع» الدنيا راجلًا، واضعًا يداي في جيوب سترتي، أغمِضُ عينَيَّ مِن حينٍ لآخر وأرفع وجهي لتُظاهِرَ النُّجومَ في كَوْنِها العميق، وأبُالغ في استنشاق الهواء وكأنَّني أودُّ أنْ أجمعَه في صدري ولا أُبْقِي منه مقدار ذرَّةٍ لأحدٍ، وبخاصة مَن يرتاد مِنهم هذا الشارع.. أو كأنَّني أبحثُ بأنفِي عَنْ نَسْمَةٍ بريئةٍ تستحي، وسط تلك الرياح الساكنة في مظهرها، العاتية

في سطوتها وفتنتها، فقد كان السكون والظلام يغَلِّفان الأجواء، أمَّا ما يكون خلف هذه الجدران فله شأنٌ آخر، حيث تفوح رائحة الخمر التي تصيب الأسوياء بالغثيان، وإنْ كانوا مِن ذواتِ الأربع، ولا أدري كيف تغزَّلَ الشُّعراء بالخَمْر وما فيها وفطرة الله تأبى قبولَها، تلك المياه النجسة التي لا يكون لِذي لُبٍّ أنْ يحبَّها مِن أوَّل نظرةٍ أو رشفَة.. إنَّ الولَعَ الذي ينشأ بين الخَمْر ومُعَاقِريه إنَّما يكون كالحبِّ والحياة التي تطولُ بين زوجَينِ لا يُطِيقُ كلٌّ منهما الآخر، غير مُحْتَمَلَةٍ ولا سبيل لتركها.. لا يكْرَعُ ما في الكأس إلَّا مَن غابَ قلبه، ولا تفارق أناملَه إلَّا وقد غاب عقلُهُ.. وبين تلك القاذورات البشريَّة كان النجوم والقدوات والمُرَبُّون والمُسَيِّرون لـ «مملكة العبيد» وما فيها ومَن فيها!!..

كان يقطع طريقي مِن آنٍ لآخر سيارة تقف إلى جانب الرصيف، لتترَجَّل منها سافرةٌ قد سرَق أحدٌ ملبَسَها، أو لعلَّها قد نسيَتها في المنزل مِنْ فرطِ العَجَلَةِ، لا نَوَدُّ أنْ نُسِيءَ الظَّنَّ بخَلقِ الله!!.. ثم يقطعون الرصيف إلى بابٍ مُظلِمٍ وكأنَّه بيت مغارةٍ لماردٍ أسطوريّ، ولو أنَّه قد أُسْنِدَ إلَيَّ أنْ أنتَقِي مكانًا يصلُح لسُكْنَى الشياطين، لم أكُنْ لأتَخَيَّر مكانًا أكثر مناسبة مِن تلك المراقص.. فقط يبدو ذلك مِنْ أشكال بواباتها وتصاميمها وأضوائها الخافتة التي تثير الفزع والريبة في النفوس..

بدا لي مِن بعيدٍ أحدُ تلك المراقص، كان مِن أكثرها شُهرةً؛ إذ يرتادُه الكثيرون من كِبار أهل الفِسق والبِغاء.. إنَّ مجتمع الفنِّ المزعوم ذاك ليس إلَّا مجتمعًا موبوءًا آخر، ولكنَّ مرتادِي هذا المرقص كانوا مِن أكثرهم سفالةً وبَغْيًا، ولو أنَّ اللهَ لمْ يُخبرْنا عن الشياطين في كُتُبِه وعلى ألسِنة رُسُلِه لظننَّا أن تلك الزُّمْرَةَ الفاسدة هم مِن بقِيَّتِهم، أو لعلَّهم مِن المردَة الذين يُصَفَّدُون في شهر رمضان.. ولكنَّ العجيب أنَّ أولئك القوم كانوا أنشط ما يكونون في هذا الشهر، لا لصيام ولا لقيام، فأنَّى لأمثال هؤلاء أن يعرفوا كثيرًا أو قليلًا عن تلك العبادات؟!! بل كانوا ينشطون في إخراج ما وَقَرَ في قلوبهم السوداء تلك من إباحيَّة وقباحة في مرآهم وفي مضامين أقوالهم، فقط ليُفسِدوا على الخلق ليالٍ لا تأتي إلَّا مرَّةً في عامِهم..

كانت لافتة المرقص تتقافز عليها أضواء شيطانية، تنتقل من حرفٍ إلى آخر، فما أن يُضِيءَ حرفٌ حتى يُعْتِم آخر، فيقرأ الرائح والغادي اسمَه «ليالي العُمُر» وكأنَّه يُدْعَى إليه.. كانت الغواية في اسم المرقص كما كانت في أضوائه، تأسر عيون المارَّة ونظراتهم، وتدعوهم ليسقطوا في شَرَكِها، حتى إذا ما دخلوا الباب بشمائلهم لم يخرجوا إلَّا وهم يتقافزون على أدبارهم، وقد تغيَّر في قلوبهم شيءٌ، ولم تعُدْ تلك المُضْغَة التي خرجوا بها هي ذاتها التي دخلوا يحملونها.. بل هي أخرى قد أفسدها المفسدون!!..

وقفتُ قُبالةَ الباب الحديدي الأسود، وقد امتدَّ سوادُه إلى ما أحاط به، فامتزج سواد الباب مع ظلام الليل لِيُضْفِيَا على المكانِ رهبةً وقتامةً لها وخزٌ في القلبِ وكأنَّه بين يَدَي عِفريتٍ يَعتصرُه ويُنْشِب فيه أظفاره السوداء الطويلة التي تشبه مخالب جارحٍ ليسَ مِن عالم الإنسِ..

كان يقفُ أمام الباب مِن الخارج ذَكَرَان من العماليق، ما بين أقصى كتف أحدهما إلى كتفه الأخرى مسيرة كذا وكذا مِيل، ليسا من الرجولة في شيء، قد تكوَّمت على أعتاقهما كُتَلٌ من العضلات التي إنَّما تربو لأمثال هؤلاء على حساب المروءة والشَّرف، وقد عقدا سواعدهما على صدريْهِما، ينقلون أنظارهم ووجوههم من مكانْ لآخر، مراقِبين الرائح والغادي، وتعلو وجوههم نظرةٌ قاسية مُتَحَدِّيَةٌ لا يُدْرَى ما المقصود بها ولِمَ الحاجة إليها، وكأنَّهم يسْتَعْدُون المارَّةَ ويُنذرونهم شيئًا مجهولًا لم يحدث ولَم يُقَلْ!!..

وقفتُ بحِذاء أحدِهما، وعقدتُ ساعِدَيَّ أمام صدري أنا الآخر، ورفعت رأسي أرميه بنظرة استخفاف، نزلتُ بها إلى أُخمص قدمَيه.. ما هي إلَّا دقائق معدودات وأرى ما يصنع هذان الماردان البشريَّان حِيال الجحيم الذي سأفتح عليهما أبوابَه السبعة، قبل أن يَلِجَاها في آخرتِهما..

لـمْ أَلْبَثْ غير بعيد حتَّى وقفت إحدى تلك السيارات الفارهة أمام

الملهى، وترجَّلَ منها رجلٌ ليس كذلك، وامرأة ترتـدي حـذاءً ذا كعـبٍ كأنَّـه حَرْبةٌ تنكُتُ بها الأرض، غير أنَّها لا تبـالي بـأنين تلـك الأرض التي ستشهد يومًـا مَّـا علـى أفعـالهم ومـا فعلـه العبـاد عليهـا.. تقـدَّمَت المـرأة التـي كانـت تتمايل بشدَّةٍ، ولا أدري أكانَ تمايلها لغياب حذاء مناسب أم لغيـاب عقلهـا، غيـر أنَّني لحَظْتُ الرجـل الـذي لـمْ يكـن كـذلك يغـدو مِـن ورائهـا مُتَرَنِّحًـا، فعرَفـتُ أنَّ سـهرتيهما قـد بـدأت مُبَكِّـرًا، حتَّـى مـن قبـل أنْ يلِجـا إلـى داخـل المرقص..

وما أن رأياهما اللَّوْحَان اللذان يحرسان مدخل المرقَص حتَّى ارتـسمت على وجوههما ابتسامة ترحيـب، ومـدَّا أيـديهما بإشـارةٍ للمـرأة أنْ «تفضَّلي بالدخول»، بحفاوة بالغة، وكـأنَّ قَسْمًا مـن المُتعـة قـد نالَهُمـا.. عجيـبٌ أمـر هؤلاء، فهُم مِن جملة العبيد أيضًا، ليسوا مِن العبادة باستثناء، قد رَضُـوا مـن المتعة بالفُتات، وكأنَّ وقوفهما هكذا كالأصنام على عتبة وكر الشياطين ذاك كافيًا ومُرْضِيًا لنفسَيهِما الدنِيَّة، تنتشِي ممَّا يقومان بـه عقولُهمـا البدائيـة التـي تتعاظم إليها عقول الهَوام والسَّوام..

كانـت شـياطين الجـنِّ كـذلك رائحـة وغاديـة بكثـرةٍ في الطُّرقـات، وأمـام الحانـات، تـدخل وتخـرج مِـن غيـر اسـتئذان، تتمايـل ذات اليمـين وذات اليسار، لا رادع لها، وكأنَّها في فردَوسِها قد أُحِلَّ لها ما حُـرِّمَ علينـا.. لـمْ أُلْـقِ

لها بالًا، واقتَصَرْتُ في النَّظَر إليهم؛ فقد اعتادَت عينَاي مرآهم على مدى خمسة عشر شهرًا مُذْ وقعَتْ عيناي عليهم أوَّل أمري.. ألقَيْتُ نظرةً عابرَةً بعينَيْن تبحثان عن الاطمئنان والغوثِ والمَدَد، على حارِسَاي عن يميني وشمالي، وما أنْ هدأ قلبي حتَّى سارَعتُ بالدخول عقِب الرجُلِ الرقيع الذي ليس برَجُلٍ، وألقَيْتُ نظرةً أخيرة على الجسدَيْن المُنْتَفِخَيْن المركوزَيْن أمام باب المرقَص، وقد خُيِّلَ إلَيَّ أنَّه قد نَبَتَ لكِلَيْهما قرنان فوق رؤوسهما، فقُلْت في نفسي «تالله هذه القرون لمن مقتضيات وظيفتهم»، واستدبرتُهما يستشعران قرونَهما ودخلتُ..

***

دخلتُ من باب الملهى الليلي، فأجَلْتُ نظريَ في المكان الفسيح، فشعرتُ بسخونة تلفَحُ الداخلَ على حين غرَّة بعد أن كان يختبر انتعاشًا بالخارج مِن جرَّاء نسمات الليل الباردة، القادمة من عُمْق الصحْراء القريبة من هذا المكان البعيد الذي وُقِفَ على الفحشاء وما يُقَرِّب إليها مِن قول أو عمل.. وعلى الرُّغم من أن الملهى كان مُزَوَّدًا - ولا بُد- بالكثير من أجهزة المُكَيِّفات، إلَّا أن الحرارة كانت مرتفعة، قد انبعَثَتْ من الأجساد المتلاصقة على ساحة الرقص، ومن أدخنة السجائر والأرجيلة، ومن أفواه السكارى التي تحترق بما في جوفها من مُسْكِرات مُلْهِبة..

كانت الطاولات تتراصُّ عن يمين باب الملهى وقُبالَته، يجلسُ عليها عشراتٌ، بل مئاتٌ من الأجساد المترنِّحة، التي تتقافز من وقت لآخر وهي تصيح من الانفعال والنشوة، ينادي بعضهم بعضًا أنْ أفيضوا علينا من وجوه الأُنْسِ والانبِساط ما جِئْنَا لأجْلِه.. يرفعون أيديَهم الممسكة بكؤوسٍ مَلْأَى بماءٍ ليسَ بماءٍ، أحمر وأسود وأصفر ولا لونَ له، يكرعون ما فيها دفعةً واحدةً وعلى مَهَلٍ، يتلذَّذون بما جاوزَ حلُوقَهم تارةً وتقشعرُّ أجسادُهم منه وتصطَكُّ أسنانهم وتَنْسَدل أجفانهم من فَرْط لهيبها تارةً أخرى، وما أن يُقَاسون مرارة البلع واستغاثة حُلُوقهم وحَلاقِيمهم حتَّى تُعْمِل عملَها في رؤوسهم، فتُنْسِيهم ما كانوا يُقَاسُونه منذ لحظاتٍ معدوداتٍ، فيَعودون ويُعِيدون الكرَّةَ أنخابًا بعد أنخابٍ..

وتَقَع إلى يسار المدخَل ساحة الرقص، التي يتراقص عليها الراقصون والراقصات، ومِن خلفهم تتراقص أصابع أرباب الطَّبْل والزَّمْر، ومن فوقهم تتراقص أضواء شيطانية قُزَحِيَّة، تخرج من مصابيح كالكُرةِ تتراقص هي الأخرى كرأسِ مجنونةٍ شعثاء، تُدِيرُه من جهة إلى أخرى كأنَّها في «زارٍ» تجْهَدُ لإخراج الشيطان الساكن فيها، أو لعلَّها أن تكون هي الشيطان ذاتَه، تُلْقِي بأضوائها التي لا تزيد المَرْأى إلَّا قتامةً، ولا تُلْقِي بأضوائها إلَّا على مواطن السوء، أضواء تُخْرِج الناس من النُّور إلى الظلمات، أضواء لم

تُخْرَقْ لإنارة الكون، بل لِسَرِقة ضيائه..

وعلى تلك الساحة تتوالى الفقرات السافرات، من راقصة تتلوَّى في غُنْجٍ وفجور، إلى فِرَقٍ راقصة هي الأخرى ذكورًا وإناثًا يتقافزون هنا وهناك، ومُطربين ومُطربات يخضعون بأقوالهم وأصواتهم، يتنهَّدون ويتأوهون في لوعةٍ تارة، ويصرخون في شبقٍ جنونيٍّ أخرى..

جُلْتُ بعَيْنَيَّ في أرجاء الملهى، وتنقَّلْت بين الموائد والطاولات، واصطدمتُ بأجساد السكارى والمائلات - رغمًا عنِّي- فَلَمْ يُعِرْنِي أيًّا منهم أدنى اهتمام، فلم تكن عقول أكثرهم في رؤوسهم، ولعلَّهم قبل أن يدخلوا تلك الحانات والمراقص يودعون عقولَهم وضمائرَهم وقلوبهم ومروءتهم - هذا إن حازَ أيُّهم أيًّا منها أصلًا- قسم الودائع والأمانات عند الباب وقبل الولوج إلى منطقة الإثم والعدوان..

رثَيْتُ لحالهم، وما أفنوا أعمارهم في سبيله، فعن قريب سوف يعلمون حقيقة ما قدَّموا وحقيقة ما ينتظرهم.. أكثرهم كان ضائعًا، هائمًا، قد يمَّمَ وجهه شَطْر الدنيا، لا يلوي على شيءٍ إلَّا الاستزادة من متاعها، لم يكُن ضلال العباد يعنِيه في شيء، فقط ضلاله هو ما يكترثُ له.. هؤلاء لَمْ أكُن لِأَقْرَبَهم ولا لِأمسَّهم بسوء لا يستطيعون معه عَوْدًا؛ عسى أن يتوبوا يومًا فيتوب الله عليهم.. أمَّا الآخرون وهم من كانوا من كبار المفسدين في

الأرض، مِمَّن أحبوا أن تشيع الفاحشة بين العباد، الدُّعاة لها، القائمون العاملون عليها، الذين يهتمُّون بضلال الخَلْق وإضلالهم، أولئك لم أكُن لأدَعَهُم يتمادَون في غيِّهم وضلالهم وإجرامِهم، ما استطَعْتُ إلى ذلك سبيلًا.. هؤلاء هم من رَكَزْتُ أجسادَهم ووجُوهَهم في مَرْمَى نيرانِي وغَضَبِي..

لبَثْتُ فترةً طالتْ في تَصَفُّحِ الوجوه الكالِحَةِ، حتَّى اهتَدَيْتُ آخِرًا إلى طاولةٍ يجلسُ عليها مجموعة من أكثر أهل الإجرام قُبْحًا وسفالَةً.. كانتْ حالتُهم كحال غيرِهم من التمايُل والصِّياح والضَّحِك الماجِن والأقوال والأفعال المُنْكَرَة.. كانوا سبعةً من أقْذَر أهل الفنِّ المزعوم دفعًا لعجلَةِ التَّحَرُّر والمجون وتشويه أهل الحق والعدْل.. اثنان منهم يمتلكان شركات ضخمة للإنتاج السينيمائي، يوقفون كلَّ إمكانيَّاتها في سبيل نشر الفضيحة ومحاربة الفضيلة، ينفقون من أموالهم - التي ستكون عليهم حسرةً- ما يزيد على العدِّ والإحصاء، ولكِنَّهم بالطبع يستعيدونها أضعافًا مضاعفةً، مكافأةً لهم لكي يستمروا في سَيْرهم وفي رسالَتِهم.. بقيَّتُهم - رجالًا ونساءً- كانوا من «المشخصاتِيَّة» الذين يلعبون الأدوار الماجنة التي تُوكَل إليهم مِن قِبَل كُتَّابٍ هُم دعاة للخراب، أصحاب أقلام حِبْرُها السُّمُّ الناقع، يتفنَّنُون في إغواء العامَّة والقضاء على البقِيَّة الباقية من دينهم..

لمْ أُطِلِ الوقوفَ إلى جانبهم، فقد أحسستُ بأنَّ نفْسي قد بدأتْ تضيق، فقط لقضاء أقل من خمس دقائق في هذا المكان المُوحِش، وإن امتلأ لآخره باللحم البشَرِي الرخيص مِن كلِّ لون.. ولا يجبُ أنْ أُغْفِلَ الأعداد الكثيرة مِن الجنِّ والشياطين الذين عجَّ بهم المكان وضاق بأهله، كانوا في كلِّ مكان، متشبِّثون في السُّقُفِ وعلى الجُدران، يجلسون فوق الموائد وتحتها، يكرعون المسكِرات مع شُركائهم من الإنس ويلْعَقون وجوهَهم..

عزَمْتُ على إنجاز ما أتَيْتُ من أجْلِه سريعًا، فاسْتَلَلْتُ مُسَدَّسي من الحزام الجلدِي.. وأطلَقْتُ النيران..

***

كنتُ حريصًا على ألَّا أصيب أحدًا غير أولئك الذين أتَيْتُ من أجْلِهم، فأنا لستُ هنا لمعاقبة العصاةِ وردعِهم، حتَّى وإن كانُوا من المُجاهرين، لَمْ يأتِ وقت هؤلاء بعد، وليست تلك هي السبيل المُثْلى لإعادة هؤلاء إلى جادَّة الإيمان ومُعَسْكره.. ولكنَّي أتَيْتُ مِن أجْل الدُّعاة إلى الفتنة والمجون، مَن يحملون في أعناقهم أوزارَ أجيالٍ يَتْلُو بعضُها بعضًا، ويُزيدون الناس بُعدًا عن سبيل الله، إنَّهم ليسوا إلَّا قُطَّاع طريق يترَصَّدون الخلق في طريقهم إلى خالِقهم، ولا يجب أن يكون لمِثْل هؤلاء على المؤمنين سبيلٌ..

وقفْتُ منهم على مسافة ذراعٍ، وصوَّبْتُ فُوَّهة مسَدَّسي إلى رأس الأول مِنهم، وبعد أنْ تثَبَّتُّ مِن عدم وجود أحد المارة مِن خلفه اعتَصَرْتُ الزِّنادَ.. وقد قصَدْتُ إلى عدَم إلحاق كاتِم الصوتِ به؛ فلِعَزْف الرَّصاص وأزيزِه لحنٌ شَجِيٌّ في أُذُنِ مَن هو خلف الفُوَّهَة، ورهبةٌ وقُنوطٌ لِمَن هم أمامهَا.. دوَّى صوتُ الرصاص عاليًا، وكأنَّ عقول السكارى قد أيْقَنَتْ أنَّ الغياب عن الإدراك في تلك اللحظات ترَفٌ لا يجوز، فانتفضَتْ أجسامُهم وتَصَلَّبَت أعناقُهم واستطَالتْ، ورَكَزَ كلُّ امرِيءٍ منهم ناظِرَه أمام وجهه؛ فقد أدرَكَتْ عقولُهم ما كان يحدُث، ولكنَّها أبَت التَّصْدِيقَ، كانَتْ عقولُهم تُؤَمِّلُ نفسَها أنَّما هذا محضُ حُلُمٍ، سريعًا ما ينقضِي، ويعودون مِن بعده إلى سيرَتِهم الأولى.. لَمْ تستفِقْ عقولُهم مِن خواطِرهم وأمانِيِّهم تلك إلَّا مع صوت الرصاصة الثانية، دوَّتْ في أعماق آذانِهم.. عندها أيقَن العقلُ ألَّا مكان للأمَلِ وألَّا مجالَ للنَّجاةِ، وهَوَت قلوب البعض مِن أقفَاصِها، وبلغَتِ قلوب آخرين الحناجر، وزُلْزِلُوا زلزالًا شديدًا، وظنُّوا بشركائهم من الإنس والجنِّ الظُّنونَا، فليسَ منهم مِن أحدٍ بقادرٍ على أنْ ينجِيَهم من مصيرهم المحتوم ذاك..

ومع دَوِيِّ صوت الرصاصة الثالثة غابت العقول وانزَوَت القلوب، واتَّخَذَت الحناجر والأقدام زمام المبادرة، فضَجَّتِ الأصوات وعلا

الصُراخ والصياح وارتفعت أصوات البكاء والنحيب والنشيج، وحاولتْ بعضُهُنَّ شقَّ جيُوبِهِنَّ، فقط لِيُدركوا حينَها أنَّ جيوبَ ملابسهِنَّ سافرةٌ مكشوفة أصلًا.. سابقَتْ سيقانٌ الريحَ إلى جُدْران الملهَى، تبحثُ عن المخرَج، وقد أبَتْ عليهم عقولُهم أنْ تقودَهم إليه، كما أبَتْ عليهم مِن قبلُ أنْ تقودُهم إلى سواء الصراط.. بينما عجَزَتْ سيقانٌ عن البقاء مُنْتَصِبة، فخرَّتْ بأصحابها إلى الأرض، فافترَشُوها، وأخذَ بعضُهم يزحفون على أيديهم عسى أنْ يهتدوا في ظلمات المرقَص إلى سبيل النجاة.. فوَطَأ بعضُهم بعضًا، وفرَّ كلُّ امرِيءٍ منهم مِن أخيه وصاحبتِه ومَن كان يَظُنُّ أنَّه يُغْنِيه..

لمْ أكُنْ لأُمْهِلَ مَن أتَيْتُ مِن أجلِهم كثيرًا، فقد توالَت الرصاصات السبع في نَظْمِها، فحصَدَتْ أرواحَهم تِباعًا، حتَّى مِن قبل أنْ يدركوا ما أصابهم.. انْقَطَع دَوِيُّ الرَّصاص، وبقِيَ الصُّوات والعويل والنحيب.. فأعَدْتُ سِلاحي إلى حزامِه، وخَطَوْتُ إلى المَخرَج متجنِّبًا الأجساد التي تَسَمَّرَت في أماكِنِها وعجَزَتْ عن الحَرَاكِ للنجاة.. قد خذَلَتْهُم عقولُهم وقلُوبُهم وأرجُلُهم في الدنيا، فما هُم بفاعلين في يومٍ تشخَصُ فيه القلوبُ والأبصار؟!! وإنِّي لأرجو أنْ يكون هذا درسًا لهم ولِمَنْ خلفَهُم أنَّ مَن قَطَع سبيل الخلْق إلى بارِئِهم قطَعَهُ الله وشَرَّدَ به بِيَدِ أولِيَائِه.. هلُمُّوا فارجِعوا إلى ربِّكم وعُضُّوا

على أنامِلِكم من النَّدَم وأصلِحُوا.. وإيَّايَ..

ولم يفُتْنِي حين خرجتُ من باب الملهى اللَّيْلِي المنكوب ذاك أن أُلقِيَ نظرةً على صاحباي اللذَيْن خلَّفتُهُما ورائي عند دخولي، هذان الثوران ذَوَا القرون.. لمْ يكن لهما مِن أثر يُذْكر، فقد أسلما ساقَيْهما إلى الريح مع دوِيّ أوَّل رصاصة.. تالله ما خابَ ظنِّي بهم..



إنَّ للعِلْم عواقِبُـه

لم يكُنْ على كثْرة ما أوقَعْتُه مِن عقابٍ على أهل الظُّلْمِ مِن أعوانِ المَلِك باختلاف مراكزهم وتخصُّصَاتهم الإجرامية، لمْ يكُن ثمَّ أثرٌ يُذْكَر في الخلقِ!! بل كانَتْ آثُار ذلك على الضِّدِّ ممَّا كنْتُ آمُلُ؛ فقد ظَنَنْتُ أنَّ مراقبةَ أهل الغيِّ والضَّلال والظلم وهُمْ يُسَامُون سوء العذاب، ويُقْذَفون مِن كلِّ جانبٍ، وأنا أُمْعِنُ الإثخانَ فيهم وأدُسُّ أنوفَهم ونواصيهم في التراب وأُوارِي أجسادَهم تحتَه، ظنَنْتُ أنَّ مثلَ ذلك قد يدفع أهلَ «مملكة العبيد» إلى الانتفاض مِن أجل كرامتهم وحُرِّيَّتهم، مِن أجل دِينِهم المُتَفلِّت مِن بين أيدِيهم، مِن أجل مستقبل أبنائهم والأمَّةِ مِن بعدِهم.. ولكنَّ شيئًا مِن هذا لم يحدُث!! فقد ظلَّ العبيدُ عبيدًا، بل زاد خوفُهُم وتَغَوَّلَ، وودَّ كثيرٌ منهم لو أنَّ الحوائط قد ازداد سُمْكُها ليُمعِنوا في الاختباء داخلها.. ما بالُ هؤلاء؟! كيفَ تَمَكَّن هذا الوَهَنُ مِن قلوبهم؟! كيف انطمسَتْ بصائرُهم وانطفأت جذَواتُ الحَمِيَّة في قلُوبِهم؟!.. ألَا لعنَةُ الله على الدنيا إنْ رَضِيَ المرءُ فيها بالذُّلِّ قدْرَ ساعَةٍ مِن نهار!!..

أم تُرَاهم لم تصِلْهم رسالتي، وما صرختُ به عاليًا بصفعاتي وركلاتي وضربات هراوتِي ودوِيِّ رَصاصاتي؟! أتُرَاهم بعد ذلك لا يزالون في غفلةٍ؟! أمْ أنَّهم يتصَنَّعون ذلك؟! نعم، لعلَّهم؛ فإنَّ للعلمِ عواقبُه، ومَن عرَف اهتمَّ،

ومَـنْ رَضِـيَ بالجهـل بـاتَ هـاديءَ البـال، لا يُـنَغِّص عيْـشَه شـيءٌ، ألَـمْ يُقَـلْ «المجانين في نعيم»؟!!..

أمْ أنَّهم لا يعرفون ما عليهم فعله، وما يجب عليهم أنْ ينجِزوه في سبيل الانعتاق مِن رِبقَة الذُّلِّ التي طالَ تطويقُها لأعناقهم وأعناق أبنائهم وآبائهم مِن قبل؟!.. قد يجهلون مِن أين عليهم البدءُ، وكيف تكون الخطوة الأولى في هذا السبيل، وكيف ينتقلون مِن مرحلة إلى أخرى تليها، ومتى تنتهي مرحلةٌ ومتى تبدأ أخرى.. نعم، إنَّهم يأملُون ويحلمون، ولكنَّهم لا يُحرِّكُون ساكِنًا ولا يُؤَيِّدون مُتَحرِّكًا.. لعلَّهُم في انتظار نبيٍّ يُبْعثُ فيهم فيقودهم إلى الخلاص ممَّا هم فيه، ولكِنْ أنَّى يُبْعثُ مثلُ هذا؟!! ليسَ مِن قبلِ «عيسى» عليه السلام في آخر الزمان مِن نبِيٍّ.. أمْ تُرَاهم يرقُبُون فارسًا يأتيهم على صهوة جوادٍ أبيضَ أو أدهمَ، أو على ظهر دبَّابة يدُكُّ بها حصون عدُوٍّ مَلَك أزِمَّةَ أمورنا ولبس مِن جلودنا وسَلَخَنا إيَّاها، وتظاهرَ بعدَ كلٍّ أنَّه لنا وبِنا ومِن أجلِنا!!..

أتُرَانِي ضَلَلْتُ الطريقَ وأخطأتُ السبيلَ، أمْ أنَّني أتعجَّلُ جَنْيَ الثِّمارِ؟!!.. إنْ أثمَرَتْ أشجارُ نِضَالِي قطُّ!!!..

***

كنتُ أشعُرُ بوَحْشَةٍ تَعِيثُ في روحي فسادًا، وَتُفَرِّق ما اجتَمَعَ عليَّ مِن شتات قلبِي، روحي ثائرة، نافرة، لا تستقرُّ على حالٍ ولا يهدأُ لها بالٌ.. تكادُ الوَحدةُ أنْ تُقْبِرَ روحي على الرغم مِن كثرة الأحياء مِن حولي.. لا أكادُ أجِدُ لروحي غذاءً يكفيها لتبرأَ مِن وحشتِها وتأنَسَ بعد وَحدَتِها.. أشعرُ وكأنَّ شيطانيَ اللعين قد بدأ يتغَوَّلُ عليَّ، فتكون له جولاتٌ بعد أنْ كان قد أيِسَ مِن الظَّفَر بإحداها.. إنَّما يأكلُ الذِئبُ مِن الغنم القاصية.. وقد أغْرَبَتْ بِيَ الطريقُ واستبدَّتْ بِيَ الوحشة، وليسَ مِن مؤنسٍ من بنِي جِلدَتِي.. حتى مَن كنتُ آنسُ بهم قَبْلًا مِن العوامر لمْ تَبْقَ صُحبتُهم لي تكفي، فلم تعُد مجالستُهم ومؤانستُهم تغني كثيرًا الآنَ.. كيف بأولادي وزوجي الذين لَم ألقَهم كما يلقى الرَّجلُ ذويه منذ ما يقرُب مِن عامَين؟! أما آن لأبيهم أنْ يرجِعَ مِن سفرِه الذي طالَ أمَدُه واتَّسَعَ بَوْنُهُ؟! أمْ تُرَاه يقضي، هناك بعيدًا مِن غير عَوْدٍ؟!!.

كان انتقالي مِن عالم الإنس إلى عالم الجنِّ قد قطَع بيَ السُّبُلَ إلى مجالسة ومؤانسة بني آدم، مَن عرَفتُ منهم ومَن لم أعرِف.. حتى أولئك الذين كنتُ أعلمُ منهم أنَّهم يحملون ذات الهمِّ الذي أحملُ ويحلُمون بذات الحُلُم الذي لا يفارقني، لم ألْقَ أحدًا منهم مُذْ خَطَتْ بي قدماي إلى عالم الجنِّ والشياطين، فأنا مسافرٌ لدى البعض وميِّتٌ لدى آخرِين، ومفقودٌ

مجهولُ الحال والمآل لدى البقِيَّة..

حتَّى المسجد الذي اعتَدْتُ الصلاةَ فيه وقضاء بعض اللحظات المُسَلِّيات مع بعض مُرتاديه لم أقربْه منذ ذلك الحين.. وكأنَّ الحياة قد انقطعتْ بي، وقد صِرْتُ إلى عالم غير عالم الأحياء..

اشتَقْتُ إلى المسجد وإلى الشيخ «ياسين»، ذلك الشيخ الطيِّب صاحب البصيرة والحظوة، اشتقتُ لمجالسته والحديث معه، إلى جدالاتنا وسجالاتنا، إلى أسَفِه وإلى صَبْرِه الذي طالما غمَرَنِي به ولقَّنَنِي إيَّاه.. نعم، فليَكُنِ المسجدُ قِبْلَتِي والشيخُ «ياسين» صُحْبَتِي..

تجَمَّلْتُ وتَزَيَّنْتُ - لا أدرِي لِمَنْ- ولكنَّ بيتَ الله أحَقُّ أنْ نتزَيَّنَ له عمَّا هو دونه، واستودَعْتُ ربِّيَ العوامِرَ وتوجَّهتُ شَطْرَ المسجد الصغير الذي لَمْ أكُن لِأُفارقه قطُّ مِن قبل أنْ يطرأ علَيَّ ما عَلِمْتُ.. أقبَلْتُ إليه راجيًا مستجيرًا، وخطَوْتُ بيمينِي داعِيًا مُلَبِّيًا، تسِحُّ دموعي على وَجْنَتَيَّ حارَّةً، لها لهيبٌ يشوي الوجوه، وكأنَّه عقابٌ مِن الله لِمَا أغْرَبْتُ ونأيْتُ عنه.. مكَثْتُ في المسجد طويلًا، أصِلُ الصلاةَ بالتي تَلِيها، وأقطع الأوقات بالدعاء وقراءة القرآن، أتصَفَّحُ وجوه المُصَلِّين، أغبِطُهم على ما هم فيه مِن نعيم، أرْثَى لحالي، أبكي على نفسي وما آل إليه عالمي الذي كان إنسِيًّا، أودُّ لو أصرخُ

فيهم «أنا لا أزال هنا.. أنا معكم، لم أهاجر ولم أمُتْ»، لا يفارقُ صوتي قلْبِي، يتردَّدُ في جنبات صدري، وأسمع صداه في عقلي، ولكنَّهم يأبَوْا أنْ يفقهوا عنِّي قَوْلِي..

أينَ الشيخ «ياسين»؟ ما باله لَمْ يأتِ لأيَّام؟! أتُرَاه سافر مجدَّدًا لأهله في قريتِه البعيدة التي نزَحَ عنها أهلُها قسرًا وتركوها لزُمرَةٍ مِن أهل الباطل يسكُنون دُورَها وينعمون بجمالها ومائها وهوائها؟! أمْ تُراه قد هَرِمَ فأقعدَه المرضُ وحَبَسَه في دارِه؟!.. لا بدَّ لي أنْ أعودَه في بيته إذًا، لأنعمَ بصحبتِه قليلًا فيرُدُّ علَيَّ بعض ما تفَرَّقَ مِن جِماع قلبِي وعقلِي.. فالصُّحبة الصالحة رأسُ الثبات على الأمرِ..

غَدَوْتُ إلى داره غير بعيدٍ مِن المسجد، كان الوقتُ ليلًا بعد أنْ صلَّيْتُ العشاء في جماعةٍ، متَخَلِّفًا عن الصفوف الأولى قسرًا، وحيدًا في طائفة المسجدِ مِن ورائهم.. كانتْ دارُه مثلَه، وحيدةً، لا يعلوها شيءٌ، هزيلةً تكادُ تفترش الأرضَ كإيَّاهُ.. كان الظلامُ يُحيطُ بها، حالَ بين دخولِ الضياء إليها أو خروجه منها.. اقتربتُ رُوَيْدًا أتحسَّسُ طريقي، لا أكادُ أرَى، ولا أُرَى، كان باب الدار ذو الخشب المتهالك مفتوحًا، توجَّسْتُ وتعَوَّذْتُ، وألقَيتُ نظرةً على صاحِبَيَّ.. مدَدْتُ يُمنايَ إلى مِقبض الباب فوجدته مكسورًا، لقد فُتِحَ الباب عَنْوَةً.. جالتْ برأسي الخواطر لوهلَةٍ، غير أنَّنِي اعترَضْتُ طريقها

بيُمْنايَ إذْ دخلتُ بها.. أخرجتُ مصباحي مِن طيَّات ملابسي، وأنَرْتُ ليَ الطريقَ.. كانت الفوضي ضاربةً بأرجاء المكان، كان كلُّ شيء مُلْقَى على الأرضِ مُهَشَّمًا، وكأنَّ زلزالًا مُدَمِّرًا قد قَلَبَ هذه الدار رأسًا على عقِب، فقط هذه الدار دون غيرها!!.. بحثتُ عن أيِّ أثر للشيخ «ياسين» فلم أجِد، فقط دارٌ كقَبْرٍ كأنْ لم يسكُنْها أحدٌ مِن قبل..

عُدْتُ أدراجي إلى المسجد وقد أذِنْتُ لخواطري أنْ تجول في رأسي مُجَدَّدًا، وراحَ كثير منها يَنْكُتُ في تلافيف مُخِّي واخِزَةً إيَّاه.. تُرَى ما أصابَ الشيخَ وإلى أينَ كانَتْ وُجهَتُه؟ وما الذي صنع بدارِه ما صَنَع؟! أيكونُ لصًّا؟ وما لِلُّصوص بالشيخ وداره؟! تلك الدار التي عاش فيها كَفافًا، لَم يكنِز فيها أبيضَ ولا أصفر.. أم تُراه مرِضَ أو أصابه مكروهٌ لِكِبَر سِنِّه ما ألجأ الجيران إلى كسر داره وإخراجه منه، وبعد أن نزَحَ إلى غيره أتى اللصوص والمُشَرَّدُون فعاثوا فيها فسادًا؟!!..

علِمْتُ أنَّني لنْ أخلُصَ إلى حقيقة الأمر وهي في طيَّاتِ الغيبِ محجوزة عنِّي، فجَدَدْتُ المسير إلى المسجد قبل أن يغلقَه القائم على أمره، فدخلتُ وشرَعتُ في قيام الليل، فرَكَعْتُ ركعاتٍ لَمْ يَصْفُ لي منها شيءٌ، فقد أبَتْ عليَّ خواطري لحظَةَ سكونٍ واطمئنانٍ في حضرة ربِّي.. فألقيتُ بجسَدِي المُنهَك على أرض المسجد الصلبة فأحسستُ براحةٍ شديدة لمْ أختَبِرْ مثلها

منذ زمَنٍ بعيد، وأشَرْتُ لطائر النوم أنْ هلُمَّ إلَيَّ، فلبَّى النداء سريعًا وقد أيقَنَ أنَّني في شوقٍ إليه، فحطَّ رِحالَه على جِفْنايَ، فأغلقهُما..



رَبِّ ارْجِعُون

كنتُ أَقِفُ في منتصف شارع عريض، يمتدُّ أمامي مدَّ البصر، لا أكاد أرى آخرَه، تبدو في آخره قُبَّةٌ لمسجدٍ أو قصرٍ، لستُ أدري.. لن يمثِّل هذا فارقًا على كلِّ حالٍ؛ فكلاهما في «مملكة العبيد» كانا حاكِمَيْن على الخلقِ، على غير مُراد الله، فلا استبشار لرؤية أحدهما عن الآخر.. كان الشارع ممتلأً بالمارَّةِ، مِن الإنسِ والجنِّ على السواء، يذرَعُونه ذهابًا وإيَّابًا، لكُلِّ امرِيءٍ منهم شأنٌ يَتِيه فيه.. كنتُ أرفَعُ عقيرَتِي بينهم لأُسْمِعُهم، كان فمي يُفْتَح على اتِّساعِه، ويدور في جَوْفِه لسانٌ مُحَقِّقًا مخارج الحُروف ومُدَقِّقًا في كلِّ حرفٍ وكلمةٍ أنطِقُ بها، كانت أحبالي الصوتية تهتزُّ بشِدَّةٍ كأنَّها أوتار قوسٍ جدَّ في دَفْع سهمه إلى حيثُ تغيب الشمسُ.. غير أنَّني لم أكن أسمع صوتي، كان المَدَى مِن حولِي صامتًا كقَبْرٍ لم يسكُنْه أحدٌ بعد، أأُصِبْتُ بالخَرَسِ أمْ أنَّ الإنس والجِنَّ قد أُصِيبوا بالصَّمَم؟! ما بالُهم قد أوْقَرُوا آذانهم دونِي؟ أهم في غِنَىً عنْ نُصْحِي لهم؟ أما والله إنِّي بهم لشفيق، وما أمري لهم بالمعروف ونهيي لهم عن المنكَرِ إلَّا لحُبِّي لهم وإشفاقي على حالِهم التي آلُوا إليها، فما لهم عن التذكِرة مُعْرِضين؟!!..

أمعَنْتُ في إيصال صوتي إليهم بالنصيحة حتَّى بلَغ مِنِّي الجهدُ، وما مِن مُجِيب.. تحسَّسْتُ حَلْقِي لأطمَئِن على صوتي ذاك الذي لَمْ أسمع منه حرفًا

أنا الآخر.. أتَكُون العِلَّة فِيَّ أنا؟ أيكون الخَرَسُ مِنِّي أمْ أنَّ نصائحي لا حاجةَ لها اليوم فيهم؟!!..

أَدَرْتُ وجهِي عن اليمين إلى صاحبِي، أستفهِمه، عسى أنْ يجود علَيَّ بما يُحِيطُ بعِلْمِه دونِي.. لَم يكُن موجودًا عن يميني، تُرَى أيْنَ ذَهَب الشيخ «عياض»؟!! إنَّه لم يترُكْنِي قطُّ، ثمَّ أدَرْتُ وجهي عن اليسار فإذا صاحِبي مفقود كذلك.. تُرَى أينَ ذَهبَا، وإلى مَنْ وَكَلَانِي؟! أيَعُودَان؟ أيَطُولُ غيابُهما؟ أمْ أنَّني الذي لَنْ أعود بعد أنْ طالَ غيابي؟!!..

استَدَرْتُ، تلَفَّتُ حولي، أمعَنْتُ النَّظَرَ وأطَلْتُ البحْثَ، ولا أثَر لهما، كنتُ كالمجنون الذي يبحثُ بعينٍ زائغةٍ عن مفقود لا يدرِي كُنْهَهُ، أوْ كغريقٍ أدْرَكَ أنَّه هالك لا محالةَ فأمسكَ بقَشَّةٍ يعتصرها وهو يدري أنَّها لن تُغْنِيَ عنه مِن الغرقِ شيئًا.. كانت عيناي شاخِصتان ترمُقَان الإنسَ والجنَّ والجمادات مِن حولي في فَزَعٍ، ولم أكُنْ أسمع شيئًا.. شَعَرْتُ بالخوفِ والغُرْبَةِ، وكأنَّنِي أقفُ وحيدًا بين جيش مِن الأعداء، غيرَ أنَّهم لم يكونوا يكترثُون لأمري..

لَم أدْرِ ما عَلَيَّ أنْ أصنع، أأعود أدراجي إلى المنزِل أمْ إلى المسجدِ؟ أيَجِبُ علَيَّ أنْ أهاتف زوجِي وأولادي علِّي لا ألقاهم بعد يومِي هذا؟! أمْ أرجِعُ إلى دار الشيخ «ياسين» عسى أنْ يكون قد عادَ فيملأُ قلبي طمأنينةً بعد

أنْ مُـلِأَ فزعًـا ووحـشَةً؟! أمْ أشُـدُّ الرِّحـالَ إلـى كهـف الـشيخ «عيـاض» لأستَفْهِمَه، علَّهُ يُدْرِكُني، أو أجِد لدَيْه ما أستعِين به على الرجـوع إلـى حالِي الأولى التي فارقتُها مُنذُ زَمَن بعيد؟!!..

ارتَفَع نشيجي، فلَم أسمَعْه، ووجدَت الدموعُ طريقَها إلى خارجِ مُقْلَتَيَّ، وكأنَّها طالمَا حُبِسَتْ خلفَ سدٍّ كسَدِّ مأربَ، فلمَّا خرِبَ فاضَتْ، وسالتْ على الوجْهِ فأخَذَت في طريقِها ما كنْتُ أتمَثَّلُه طويلًا مِن الشجاعة والعزَّةِ والإباء.. دفنتُ وجهي في يَدَيَّ وصِرْتُ أنْتَحِبُ، ولكنَّ صوتَ نحيبي أبَى أنْ يضْرِبَ مسامِعي، وراحَ صدري يعلو ويهبط كَمَاءٍ لَعِبَ به مدٌّ وجَزْرٌ، وقلبي بداخله يصطَكُّ كأسناني، تتلَقَّفُه الضلوع كمُضْغَةٍ مَيْتَةٍ لا يُؤْبَه لها.. رفعتُ رأسي نحو السماء وصرختُ بحقِّ كلِّ حرفٍ نطقَ به لساني في الحياة الدنيا «ربِّ ارجِعون.. ربِّ ارجِعون.. ربِّ ارجِعون»..

أنزلتُ رأسي ودفَنْتُه مُجَدَّدًا في قَبْرِ يَدَيَّ، بكَيْتُ طويلًا، وأصغَيْتُ وقْتًا أطولَ، عسى أنْ تصادفَ أُذُنِي صوتًا هو جوابٌ لدُعائي واستغاثتي.. أحسَستُ بثِقَلٍ على كتِفَيَّ، شيءٌ ما يضغط على كاهِلِي فَيَئِطُّ له، الثِّقَل يزداد، يكاد كتِفَيَّ يُسْحقَان تحتَه، أحاول جاهدًا أنْ أظَلَّ واقفًا، تخونُني ساقَاي.. نظَرْتُ إلى الأعلى فإذا بماردٍ عملاقٍ لَمْ أرَ مثيلَه قبلًا، يقفُ بقدَمَيْنِ سوداوَتَيْن عظيمَتَين على كتِفَيَّ.. حاولْتُ دفعَه بِيَدَيَّ، لكِنَّه لَمْ يَتحرَّك،

استَغَثْتُ بالشَّيخَيْن «عياض»، لكِنَّ أحدًا منهما لَمْ يأْتِ، حاوَلْتُ الرَّكْضَ، لكِنَّ قدمَايَ أَبَتَا عليَّ، وكأنَّهما صارَتَا شجرةً عتيقةً لم تَبْرَحْ مكانها لألفِ عامٍ، ولَمْ يأْتِ يومُ بَراحِها بعدُ.. أقعَدَنِي ثِقَلُ المارِدِ على رُكْبَتَيَّ، زاد ثِقَلُهُ، وزاد خُضُوعي لَه، استلقَيْتُ على وجهي، وتحرَّكَ هو بقدَمَيْه العظيمَتَين من كتِفِي إلى ظهرِي، ووضع قدمَيْه على عَظَمَتَي لوحِ الكَتِفِ مِنِّي.. شَعَرْتُ بصَدْرِي يضِيق، يكَادُ ينسَحِقُ بينه وبين الأرضِ.. كان الهواء يخرجُ مِن صدري طريدًا في زفِيرٍ لا يرجع إلَّا نِصْفُه شهيقًا، أكادُ أختَنِق، وُئِدَتْ أنفاسي في صدري كما وُئِدَ صوتي في حَلْقِي.. أشعرُ برأسي ترتَفِع رُغمًا عنِّي ورقَبَتِي ترجع إلى الوراء كمَنْ أُرْقِدَ للذَّبحِ.. أيكون بردُ السِّكِّين على رقبَتِي هو التالي؟ أيكون هذا هو انتقام الشياطين مِنِّي لما فعلتُه بعالمهم الخَفِيِّ؟! لكنَّ السكِّين لمْ تأتِ.. بدأ فَمِي يُفْتَحَ رُغْمًا عنِّي، رُوَيْدًا رُوَيْدًا، حتَّى فُغِرَ عن آخِرِه، حاوَلْتُ إغلاقه، لكِنِّي لَمْ أستَطِعْ، وكأنَّني فقَدْتُ القدرَةَ على التَّحَكُّم فيه كما استَعْصَتْ علَيَّ أنفَاسِي مِن قبلُ.. سُحِبَ ذِراعَايَ إلى الخلف لِيَستَقِرَّا إلى جانِبِ جسَدِيَ المُمَدَّدِ على الأرض، ثمَّ أخَذَا ورِجْلَايَ في الارتفاع والتقَوُّسِ إلى جِهَةِ ظَهْرِي.. حاوَلْتُ الصُّراخ، لَكِنَّنِي لَمْ أستَطِع، خَذَلَتْنِي جوارحِي، خَذَلَنِي جسدِي.. وها أنا ذا مُمَدَّدٌ على الأرض وقد تقَطَّعَتْ بِيَ الأنفاس، يجثُمُ ماردٌ على ظهري، ويُقَوِّسُ جسدي.. ثَغْرِي

مُنْفَـرِجٌ وكأنَّـه يتَجَهَّـزُ لإخـراج روحـي منـه، سـتخرجُ وأنـا أراهـا.. ولكِـن أتُخْرِجُها الشياطين أم الملائكة؟!..

لمْ أهِمُ لحظَةً أنَّ تلك هي النهاية، وأنَّني موشكٌ على الرحيل.. شيءٌ مَّا يتحرَّكُ إلى يساري، طيفٌ يقتَرِب.. إنَّه مَلَكُ الموتِ إذًا، أو لعلَّه شيطان الموتِ!! لا بأس، فلتكُن الآن، فقد سئِمتُ الحياة على كلِّ حالٍ، لنْ أجِدَ أحدًا أصدقَ رغبةً مِنِّي في تركها، فلأغادر دنيا الإنسِ والجِنِّ على السواء، ولتَرْتَخِيَ قبضاتُهما عنِّي.. سأصِيرُ حرًّا عن قريبٍ...

ازدادَ الطَّيْفُ الضَّيْفُ اقترابًا، جاهدْتُ حتَّى أدَرْتُ طَرَفَ عينِي اليُسْرَى تجاهه، لأراه.. لم يكُن ملكَ الموتِ أو شيطانَه، إنَّه الشَّيخُ «عياض»، هو كهيأتِه دائمًا، بثيابه وقَلَنسُوتِه البيضاء، ولِحْيَته الكثَّة وعينه السوداء التي لا بياض فيها.. جاء المددُ إذًا، لعلَّ ساعتي لم تَحِنْ بعدُ.. توقَّفَ الشيخُ «عياض»، لم يُلْقِ بالًا بهذا المارد الجاثِم على ظهرِي، ولَمْ يدفَعْهُ عنِّي، تُرَى ما بِهِ؟!.. انحنى الشيخ «عياض» ينظر إليَّ وعلى وجهه نظرات الاستنكار والعَجَبِ، وكأنَّه يتساءل ما جاء بي هنا وما أصنع وما الذي ألجأنِي إلى هذه الحال التي لا أُحْسَد عليها؟!.. أخذ يتَفَحَّص وجهي عن قُرْبٍ بعينيه السوداوتَيْنِ، لم يكُنْ هو أحدَ الشيخَين «عياض» اللذَيْن اعتَدْتُ صُحبتَهما ونزَلْتُ في جِوَارِهما، شيءٌ ما تغَيَّر بشأنه، أصَبِأَ أم خارَت قُواه؟! أمْ أنَّه منذُ

البداية لَمْ يكُنْ؟!!..

لَبِثَ برهَةً يُحَدِّقُ بي، وأنا أصرخ به أنْ هلُمَّ افعَلْ شيئًا، خلِّصنِي من ذلك المارد، ولننصرف عن هذا المكان اللعين.. لمْ تعْدُ صرخاتي عقلي، لم تصل إلى لساني ولمْ تُصِبْ مسامِعهُ، فظلَّ على حاله.. وإذْ به فجأةً يسقطُ إلى جِواري، كجُلمود عظْمٍ، سقطَ فسمِعتُ صوت صكِّ فكَّيْه وهما يصطدمان بالأرض.. كان وجهُه قبالةَ وجهي، وعيناه لا تزال تُحدِّقُ بي، هدأتْ حركتُه دُفعةً واحدةً كأنَّ جسدَه المُسَجَّى لمْ تسكُنْهُ روحٌ قطُّ.. ظلَّ على حالِه تلك غير بعيد حتَّى بدأتْ دماءٌ سوداء تسيلُ من طَرْف عينيه.. أخذَت الدماء تقطر مِن عينيه شيئًا فشيئًا حتَّى بدأ لون عينَيْه يصفو، إلى أنْ رجَعتْ عيناه إلى عهدِهما الأولُّ، على النحو الذي رأيتُه عليه أوَّل أمري عندما دخلتُ عليه الكهفَ صُحْبَةَ الشَّيخ «ياسين»..

أصواتٌ تختلط موجاتها مِن حولي، الآن أنا أسمع، الأصوات غير واضحة وغير مفهومة، ولكِنَّني الآن أسمع، لا أمَيِّزُ منها شيءٌ، ولكِنْ لا بأس، فأنا أسمع، وهذا خيرٌ.. بدأت الأصوات تتَّضِحُ روَيْدًا رُوَيْدًا، وكأنَّنِي أفيقُ مِن إغمائةٍ، فأنصَتُّ إليها علِّي أَمِيزُ منها شيئًا.. الأصواتُ تبدو مألوفةً، المألوف خير، الآن أعرِفُها، أصوات نُباحٍ وفحيح ونعير، أصوات حشرجاتٍ وألفاظ غير مفهومة، تنطقها آلاف الألسنة في آنٍ بألف لغةٍ..

نظرتُ حولي فإذا الشياطين تزحفُ حوْلِي مِن كلِّ صوبٍ، تزحف على أربع، والدمُ يسيل مِن أشداقها، لا تبدو عليها الرهبَةُ ولا الرغبة في التراجع.. بل كان العزم في وجوهها جلِيًّا على إنهاء ما بدأتُه أنا..



الجُدْران لها آذان

فتَحْتُ عينَيَّ، كنتُ مستلقيًا على ظهرِي في جانبٍ مِن جوانب المسجد، وكان رأسي ملتويًا بشدَّة إلى الوراء، وكان فمي مفتوحًا عن آخرِه، لمْ أكُنْ أستطيع الحركةَ ولا أنْ أغلِقَه أو أُصْلِح مِن وَضعِ رأسي.. اختَفَتْ أصوات الشياطين وغاب مرآها عن ناظِرَيَّ، ولامسَ أذُنِي صوتٌ آخر، عذبٌ، تطمئنُّ له الروح وتستقر به النفْسُ.. كان المُؤَذِّن قد شَرَع في أذان الفَجر، وما أنْ قال «حيَّ على الصَّلاة» حتَّى انحلَّتْ إحدَى تلك العُقَد التي عقدها الشيطان عليَّ، فعاد رأسي إلى مكانه الأوَّل شيئًا قليلًا، ولم ينتهِ المُؤَذِّن مِن دعَائِه الناسَ إلى الصلاة إلَّا وقد حلَّت جميع العُقَد التي عقَدَها الشيطان على قَفايَ، فاستقامَ عُنُقِي وأُغْلِقَ فَمي، فاعتَدَلْتُ في جِلْسَتي واسْتَعَذْتُ الله من الشيطان وتَفَلْتُ عن شِمالي ثلاثًا، وأعدَدْتُ نفسي للصلاةِ..

كان مِن أوَّل ما لحَظْتُه حال اعتدالي هو غياب حَارِسَيَّ، الشيخين «عياض»، وليس ثمَّ أثرٌ على وجودهما، لستُ أدري إلى أينَ توَجَّهَا ولِمَ تركَانِي وهل يعودان؟!!.. حينها قفزت تساؤلاتٌ أُخَرُ إلى عقلي، وكاد أنْ ينطق بها لساني، هل لازلتُ غيرَ مرئِيٍّ؟ وهل لا أزال أحظى بجِوَار الشيخَيْنِ «عياض» وحمايتِهما أو مَن يقوم مقامَهُما؟ هل تستطيع الشياطين إيذائي؟ وهل تستطيع الوصول إلَيَّ إذا ما غادرتُ عالمها ورَجَعْتُ إلى عالم الإنسِ

مِن حيثُ لا أراهم ويرانِيَ الإنسُ؟!!..

وكأنَّ الزمان قد عاد بي إلى أوَّل عهدِي بالانتقال مِن عالم الإنس إلى عالم الجنِّ، حيثُ رُحْتُ أدركُ حدود عالمي الجديد بالتجربة والتَّعَرُّضِ للإنسِ والجنِّ على السواء، وها أنا ذا لا أدرك إلى ما آلَ الحالُ بِي، وأحتاج إلى إعادة إدراك عالمي الذي أسكنُه مِن جديد، وسأدركُ ذلك في الصلاة..

اصطفَّ المصَلُّون في الصَّفِّ الأوَّل خلف الإمام، ونادرًا ما يحتاجون فيه إلى صفٍّ ثانٍ، إحدى البلايا التي بُلِيَت بها الأمَّة.. توجَّهتُ إلى طرفِ الصَفِّ مِن جهة اليسار ووقَفْتُ إلى جانبِ أحدِهم.. لمْ أكَدْ أشرَعُ في تكبيرة الإحرام حتَّى شعرتُ بجسَدٍ يصطدِم بي مِن جِهة ظَهْري، فالتَفَتُّ فإذا بأحد المُصَلِّين يريد أنْ يستقيم في الصَّف، وقد فجأهُ طيفِي فأجفل قليلًا، وقد ظنَّ أنَّ ما حدثَ إنَّما هو مِن أثَر النَّومِ، ثمَّ عاوَد الكرَّةَ وكُنْتُ قد أفرَغْتُ له مكانِي مِن جَسَدي الذي لا يزال يسكُنُ عالمَ الجنِّ.. تلك هي الأُولى، فلا يزال الإنس لا يرَوْنَنِي، ولا أزال خافيًا عن أنظارِهم..

عدْتُ إلى آخر المسجد لأصلي باطمئنانٍ، وأنا أسمع مِن خلف جدران المسجد وسوسات «خَنزَب» اللعين، يحاول أنْ يَحُول بين المُصَلِّين وبين إدراكِهِم لتلاوتِهم ودعائِهم.. قُضِيَت الصَّلاةُ، وانْفَضَّ الجَمْعُ إلى بيوتهم،

ولـم يبقَ سِوَى عـددٍ يسير مِن الشيوخ، وقـد تحَلَّقُوا يقرؤون القرآن كما اعتادُوا كلَّ يومٍ، من بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس..

أغلَقْتُ عينَيَّ ورُحْتُ أُنْصِتُ لقراءَتِهم، وغفوْتُ مرَّتَيْن أو ثلاث، وهم على حالهم.. كانت الآلام قد غَزَتْ جسدي المُنْهَك، وكان صدرِي ضيِّقًا حرَجًا، لا يسعَدُ بشَهِيقٍ ولا يأنسُ لزَفِيرٍ.. ولا أدري أذاك أَثَرٌ عن الكابوس الذي عاجَلَنِي ليلَةَ أمس، أم أنَّ جَهْلِي بما أنا مُقْدِمٌ عليه قد أنزَلَ ثِقَلًا على روحي وأسكَنَه في قلبي، فاستجَابتْ له الجوارحُ ورَثِيَتْ لحاله؟!!..

أَفَقْتُ مِن إحدَى غَفَوَاتي، وكان المُصَلُّون لا يزالون على حالهم، فلم يلبَثُوا أن انتَهَوا مِن تلاوة وِرْدِهم اليومِيّ، وأخذُوا يتجاذبون أطراف الحديث، مستأنِسِين به.. كانوا ينتهون مِن حديث ليشْرَعُوا في آخر، وكانت أكثر أحاديثهم تلك لا تعنيني، ولمْ أكُن أُلْقِي لها بالًا، وكنتُ على وَشْكِ إغفائةٍ جديدة حين طَرَق سمْعي اسم الشيخ «ياسين»، فقُمْتُ فَزِعًا، واقتَرَبْتُ مِن مجلِسِهم واستَرَقْتُ السَّمع، فإذا بهم يقصُّون منْ أحواله ما كنتُ أجهَلُ.. قال أحدُهم «مسكين الشيخ ياسين.. رحمةُ الله عليه»، فأجابَهُ ثانٍ في أسَفٍ «كان رجُلًا طيِّبًا، ذا بصيرة، صاحب بركات وكرامات»، وأضاف ثالثٌ «ليس بأوَّل ولا بآخر مَن راح ضحِيَّة تلك الأحداث العجيبة التي أَلَمَّتْ بالبلاد في هَاتَيْن السنتَين»..

شَعَرْتُ بغُصَّةٍ في حَلْقِي تَشُدُّ على قلبِي الذي هجَرَ صدرِي إلى الحَنْجَرَة، فأرَدْتُ أنْ أستَزِيدَهم وأحُثَّهم على إتمام الحديث، أراد عقلِي أنْ يعرِف، وأبى قلبي ذلك، عقلي غذاؤُه العِلمُ فسألَ، وقلبي زادُه الطمأنينة والسكينة فأبَى أنْ يُنْصِتَ.. لكِنَّ أُذُنِي خذَلَتْه وأطاعتْ العقلَ، فسَمِعَتْ.. قال أحدُهم «لم يرحَمُوا شيبَتَه ووَهنَه، أرأيتُم كيف اقتادُوه مِن دارِه بعد أن هشَّمُوها وقلَبوا ما فيها - على قِلَّتِه- رأسًا على عَقِب؟!»، «لولا أنَّ عينِي لم تخُونَنِي لقُلْتُ أنَّ شُرُطة المَلِك كانوا يقتادون شاةً لذَبْحِها، لا شيخًا عجوزًا قد شارَف على الهلاك ولم يبقَ له الكثير من الدنيا»، «بل إنَّهم - لعنة الله عليهم- لم يكتَفُوا بذلك، بل ضربوه وأهانوه أمام الرجال والنساء والكبير والصغير في الحيِّ، حتَّى لم يبقَ أحدٌ إلَّا أشفَقَ عليه، حتَّى مِن غير المؤمِنين»، «جَعَله الله في موازين أعماله، هكذا هم أولياء الله، مُبْتَلُون في الدنيا، ولهم أجْرُهم عند ربِّهم»، «هو ذا قد أفضَى إلى ربِّه صابرًا محتَسِبًا في محبِسِه، الدَّور والباقِي علينا نحن، مَن لم تحِن ساعتُنا بعدُ»، «صَه أيُّها الحَمْقى، أخفِضُوا أصواتكم، لعلَّكُم في شَوْقٍ إلى مصيرٍ كمصيرِه.. الجُدْران لها آذانٌ»!!..

***

مكَثْتُ مِن بعدها في المسجدِ شهرًا، لم أخرُج فيها غير مرَّتَيْن، أجْلِب

فيهما طعامًا مِن المنزل يكفيني لأسبوعَيْن.. كنتُ أخرجُ أتحَسَّسُ وأستَخْفَى مِن الخلقِ، إنْسِهم وجِنِّهم، أخَاف أنْ تُصِيبني ضرَّاء مِن أحدِهما.. كان حِدَادِي قد طالَ على الشيخ «ياسين»، فقد قتَلَه المجرمون غدرًا وصَبْرًا، لم يكُن له ثمَّ يَدٌ فيما يحدُث، كنت أشعُر أنَّ ما حدث له لَمْ يكُن إلَّا بِسَبَبٍ مِنِّي، فقد أخَذُوه بجَرِيرَتِي.. ويا لَيْتَهم أعمَلُوا عقُولَهم، فأخَذُوا مِن الفِتيان والشباب الأشِدَّاء بُغْيَتَهم، لكِنَّهم لمْ يُمِيِّزُوا شيخًا عن فَتًى، ولا امْرَأةً عن رَجُلٍ، بل راحوا كالكلاب المسعورة يقتادون الجميع إلى محَابِسِهم ومصارِعِهم، وكأنَّهم ينتقمون مِن أهل «مملكة العبيد» لا لِشَيءٍ إلَّا لِكَسْرِ شوكتِهم - إنْ كانت لهم شوكة- وتشَفِّيًا فيهم وإثباتًا لسُلطة المَلِكِ الغاشمة وكيف أنَّه لا يزال مُحْكِمًا قبضتَه الحديدية حول رقاب الجميع..

لم يكُن للجِهات الأمنيَّة والإعلاميَّة منطقٌ سليم في التعامل مع الأحداث، بل أخذُوا يتَخَبَّطُون ويخبِطُون خبْطَ عشواءٍ، لا يعرفون لغةً إلَّا البطْش والقَمْع والإرهاب، لا يُحْسِنون مِن لحنِ القول إلَّا أكذَبه وأغلظه.. ولم يَكُن لأفعالِهم تلك لأنْ تُنْسَى أو أنْ يُتَجَاوَز عنها، بل لا بُدَّ مِنْ أنْ يُرَدَّ إليهم الصَّاعُ صَاعَيْن، وأنْ يُلْجَؤوا إلى جحورهم التي لم يدخلُوها مُذْ خرجوا منها أوَّلَ مرَّة..

اليومَ أُدْرِك أنَّني كنتُ مُقْتَصِدًا في التنكيل بهم، وأنَّ ما مضى لا يكفي،

وأنَّ القادمَ لا بُدَّ أنْ يكون أدْهَى وأمَرَّ، قد مضى وقتُ الدَّعَةِ وأتى وقتُ الإثخان وإعلاء راية الحق، فإنْ أدْرَكُوا الحقَّ ورَجَعُوا عن بغْيِهم وثَابوا إلى رشدِهم، وإلَّا فلأُبْرِد الصَّمْصَامةَ مِن فَرْط وقعها على الرؤوس وحزِها للأعناق.. لكِنَّ تلك المرَّة لنْ أبدأ من ذيل النظام، بل سابدأ مِن رأسه، فإذا قُطِعَ الرأس بات قطع سائر الأوصال يسيرًا، وقد يتكفَّلُ بعضُها ببعضٍ.. الآن حان وقت زيارة المَلِك.. مَلِكِ «مملكة العبيد»..



«الجَرْبُوع».. ذُو الألْيَتَيْن

كـان «الجَرْبـوع» مِلِكًـا مُتَوَّجًـا علـى أرض العبيـد وأهلِهـا، ولـم يكُـن «الجربوع» لِيَحُوزَ ذلك المُلْكِ لشَرَفٍ نَالَه أو لمكانةٍ حازَها، بل إنَّه كـان مِن الـسِّفْلَة الأراذِل، كـان دنيئًـا، حقيـر الحَسَب، مجهـول النَّسَب، اختَلَـف فيـه النَّسَّابُون، وتناظَرُوا فيما بينهم، غيـر أنَّ أحـدًا منهم لـم ينسِبْه لـذِي شَـرَفٍ، فمنهم من نَسَبَهُ إلى الرافِضَة، ونَسَبَه البعضُ إلى بَنِي إسرائيل، وهو إلـى كـلِّ قريب..

كان يومًا مِن صغار الجُنْدِ، وضِيع السِّيرة والسَّريرة، لم يَحْظَ يومًا بتقـدِير أحدِهم، وكان يمشي بينهم بالنميمـة والوَقِيعـة، فقَرَّبَـه قـادة الجيش لدناءتِـه وسوء طوِيَّتِه؛ فقد كان سِلْعةً معروضة لمَن يدفعُ مِن الدَّراهم أكثر مِن سِواه، ولـم يكُـن هـذا لِيُعِيقَـه عـن أنْ يبيـع الأخبـار والمعلومـات للجميـع، فقَرَّبَتْـه الأضداد واستَمَالَتْه الأقطاب.. ولم يزَل على حاله تلك حتَّى أوقَع ببعضهم ووَشَـى بـآخرين، وأظهَـرَ الإخـلاص والتفـاني، ورَسَـم علـى مُحَيَّاه أمـارات التَّوَرُّع والزُّهدِ، حتَّى أغرى أمرُه مَلِكَ البلاد «السائب بن قالون» مِن بَنِي وُدٍّ، فقرَّبَـه إلَيـه ومكَّنَـه مِـن أمـور الجيـش، حتَّـى أتـى اليـوم الـذي كَـشَف فيـه «الجربوع» عن وجهه القبيح، فدَخَلَ على المَلِكِ وقتَلَهُ وحَزَّ رأسَـهُ، وخَـرَج بها على رؤوس الخلائق يرفعُها بيمينه، مُعْلِنًـا نهايـة حُكْـمِ «الـسائب» وبدايـة

حُكْم الجرابِيع..

كان «الجربوع» كاسْمِه، جربوعًا.. والجربوع فأرةٌ صغيرة فُوَيْسِقَةٌ مُفْسِدةٌ لا تَبقى على حالٍ، بل تتقافز مِن مكان لمكان تنشرُ الشرَّ والأذى بين الخلائق.. لم يكُن اسمه «الجربوع»، بل جربوع هو اسم جدِّه لأُمِّه، فلِما عُرِفَ مِن دناءَتِه ووَضَاعة أصْلِه غلَب عليه اسم «الجربوع» لدى العامَّة والخاصَّة، حتَّى أصبح يُعْرَف به في المحافِل الرَّسْمِيَّة والدُّوَلِيَّة.. ومِن العجائب أنَّ الفأرة في اللغة العبرانية اسمها «جربوع»، ممَّا رجَّحَ لدى بعض النَّسابَة أنَّه يهوديّ الأصل وأنَّه مِن بقيَّة بني إسرائيل الذين نَزَحُوا عن تلك البلاد إلى غيرها منذ أزمنة طويلة.. وكانت أعماله وسياساته في بلاده وخارجها ممَّا يؤَيِّد تلك النسبة، فقد كان يهوديَّ الهَوَى، يوالي اليهود ومن هم على شاكِلَتِهم ولاءً تَعَجَّبُوا مِنْه أكثَرَ ممَّا تَعَجَّب منه بنُو جلدَتِه!!..

أمَّا «ذو الألْيَتَين» ذاك أنَّه قد ابْتُلِيَ بمَظْهرٍ مثير للضحك، فقد كان عجيب الخِلْقَة، وكأنَّ اعوِجاج عقله وسوء طَوِيَّتِه قد رُسِمَا على وجهه، وأُبْدِيا في لحنِ قولِه، فلا يقدر على التَّنكُّر لهما، ولا تزوير قَوْلٍ يخالفهما.. كانت رأسُه كالكُرَة، تامَّة الاستدارة، كألْيَتِه، قد انحَسَر شعرُ رأسه عن مُقَدَّمِها، فبَدَتْ رأسُه كَكُرَةٍ مِن اللحم، وكان أبيض اللَّونِ، ناعم البَشَرَة كأنَّه قُدَّ مِن زجاج، أو كأنَّه قد طُلِيَ بالزُّبْدَةِ في وَجْهِه، وكان غَزِير العَرَقِ، يتَصَبَّبُ العَرَقُ

مِنْه على كُلِّ حالٍ، إذا تَكَلَّم وإذا فَكَّرَ، حالُه في الصَّيف كإِيَّاها في الشِتاء، يسيل العَرَقُ مِن أعلى رأسِه أنهارًا مِن عَرَقٍ آسِنٍ، فيزيد هذا مِن لَمَعَانِ وجهِهِ في مظهرٍ تشمَئِزُّ مِنه النُّفُوس وتقشعر مِن لِزُوجتِه الأبدان.. فكانت رأسُه المُتَعَرِّقَة تلك أشبه ما تكون بأَلْيَةٍ مُتَعَرِّقة، ولا أدري أين يمكن للمرء أنْ يرَى أَلْيَةً قد تَجَمَّعَتْ عليها قطرات العَرَقِ، أو أنْ يعرِف شكلها، ولكن هكذا رآه عامَّة أهل البلاد.. أَلْيَةً مُتَعَرِّقَةً!!..

ولمَّا كانت له أَلْيَةٌ أخرى، التي هي في أسفل ظهره، كتلك التي خلقَ الله الناس بها، فقد أطلق الناقمون عليه مِن أهل «مملكة العبيد» لَقَبَ «ذي الأَلْيَتَيْن»، واحدةٌ مكان رأسه، والأخرى أسفل ظهره!!.. ولم يكُن عَجَبًا أنْ تكون الأفكار التي حَوَتْها رأسُه - التي هي أَلْيَتُه العلْيَا- ونطق بها لسانه كتلك التي تُخْرِجُها أَلْيَتُهُ السُّفْلى، محضُ هُرَاء وخَرَاء، لا مَحِلَّ لهما على السَّواء إلَّا الخلاء..

وكم تَعَجَّب ذَوُوا البصيرة مِن أهل «مملكة العبيد»، وكيف أنَّهم أذِنوا لمثل هذا العبد الآبِق أنْ يرتَقِيَ فوقهم ويملك أكتافهم ويُطَوِّق أعناقهم في غفلةٍ مِنهم، بل وبمباركَة بعضِهم!!.. فهذا الذي لا يرتضي الأسوياء أن يجعلوه نعلًا يُلْبِسُونَه أقدامَهم، كيف انتهى به الحال إلى أنْ جُعِلَ مَلِكًا فوق رؤُوسِهم، تلك الرؤوس التي لم تَرْتَفِع يومًا مُذْ جلس على كرسِيِّ العرشِ،

ومَن حدَّثَتْه نفسُه يومًا برَفْع رأسه، فقَدَهُما معًا.. ولكِن لا عَجَب، فتلك هي حال العبيد، ما أن لَوَّحَ لهم بالسوْط وألْهَب به ظُهُورَ بعضهم حتى دانُوا له وأطاعوه وألْبَسُوه ثياب القِدِّيسِين وأنْزَلُوه مَنْزِلة الأنبياء.. وقد عَلِمَ مِن حالهم ما بدا مِنْهم، فسَارَ بينهم بذَات السيرة وفرَّقَ جُمُوعَهُم وأعملَ فيهم القَتْل والسِّجن والتعذيب، وعمَدَ إلى إفقار العِباد وإذلالِهم وتَجْهِيلِهم ونشْر بذُور الفتنة بينهم، وتشويه عقائدهم وشعائرهم، حتَّى أثمَرَتْ فيهم جهودُه وكانوا له كما أراد لهم، عبيدًا أذِلَّاء، يدينون له بالولاء والطاعة، ومَن حَسِب أنَّه قادر على غير ذلك أو ظنَّ بنفسه قوَّةً فلا يلُومَنَّ إلَّا نفسَه..

هذا.. المَلِك.. «الجربوع ذو الألْيَتَيْن».. هو مَن يجب أن أبدأ به.. سيكون التالي على قائمتِي.. إنْ شاء الله..



مَن سَلَكَ تلك الطريق هَلَك لا محالَةَ

لمْ يطُلْ مُكْثِي بعد ذلك طويلًا، فالطَّرْق على الحديد وهو ساخن أنْجَعُ، وهو مظَنَّةُ الفلاح.. لجأتُ إلى دارِي سبعةَ أيَّامٍ، اعتكَفْتُ فيها، أتضَرَّعُ وأتَزَوَّدُ لمثل هذا اليوم؛ فالمعركَةُ التالية قد لا تكون كسابِقَاتِها، فأمرُها جلَلٌ، وقد تكون القاصِمةَ، لي أو لنظامِ المَلِكِ..

ولمْ تكُن العوامرُ أيضًا على حالها الذي اعتَدْتُ رُؤْيَتَها عليه، فقد كانتْ مُسْتَنْفَرَةً، كثيرة الحَرَكَة والتَّنَقُّلِ بينَ أركانِ المنزل، قَلِقَةً، لا يهدأ لها بالٌ، كثيرٌ تفَقُّدُها للجانِّ الصِّغارِ، لمْ يكونوا يسمحون لهم باللعب في الفضاء السُّفْلِيّ من الشَّقَّةِ كما كان في الماضي، بل صاروا يُحِيطُونَهم بأجنحتهم ويُلْجِؤُونهم إلى الأركان المُظْلِمة السوداء، وكأنَّهم يُخَبِّؤُونهم مِنِّي.. لا أدْرِي لمَ كان هذا، فأنا لستُ بخَطَرٍ عليهم، وبخاصَّةٍ وقد فقَدْتُ حارِسَيَّ دُفْعَةً واحِدَةً، ولا أدرِي ما يُفْعَل بِي مِن بعدِهِم في هذا العالَم الذي لا أنتمِي إليه.. أوْ لَعَلَّهم يُشْفِقُون علّيَّ مِمَّا أنا صائِرٌ إليه، فتلك الطريق لا يقدِرُ عليها كلُّ أحَدٍ، فليس كلُّ مَن خالَفَ الطُّغاةَ واجَهَهُم، وليسَ كلُّ مَن واجَهَهُم ثَبَتَ على ذلك، ولولَا أنَّنِي الآن لا أُرَى مِن قِبَلِهِم لَمَا ثَبَتَ لِي جَنَانٌ ولا استَقَرَّ لِيَ قَلْبٌ، ولَطَاشَ عقْلِي مِنْ قَدِيم.. إنَّ مُقَارعةَ أهل الباطل في ساحةٍ مكشوفة في معركةٍ غير متكافِئَةٍ مِن جميع الوُجُوه، أمْرٌ مُزَلْزِلٌ، تنخَلِع مِن هَوْلِه القلُوبُ،

وتبلُـغُ الحنـاجِرَ، وتغـادِر الـصُّدُور.. تلـك مُقَارَعـةٌ تنـتَفِضُ لهـا الأجـسادُ وترتَعِشُ منها الأقدام، وتَفِرُّ منها حاملةً أجسادَ وعقولَ وقلوبَ أصحابها إلى حيـثُ الأمْـنِ والنَّجـاةِ.. **إنَّ مُقَارَعـةَ سُـلطان الباطِـل يتَطَلَّـبُ عقيـدَةً راسِـخَةً وإخلاصًا خالِصًا وتَضْحِيَةً مُطْلَقَةً غيرَ مشرُوطَةٍ بنجاةٍ أوْ بِنَصْرٍ**.. لمِثْل هـذا فإنَّ أهل النِّضَال الصَّادِقِين قِلَّةٌ، بينمَا العبيد كَثِير، فالنـاس كالإبِـل المائِـة، لا تكادُ تَجِدُ فيها راحِلَةً..

وها أنا ذا، أحاوِلُ اللحاقَ بهذا الرَّكْبِ الشَّرِيف، نعم، قد سلَكْتُ الطَّرِيـقَ مِن عالَم الجِنِّ، ولكِنْ حسْبي أنْ أستقِيمَ على الـصِّرَاطِ، علِّي أصِـلُ يوْمًـا.. أعـدَدْتُ العُـدَّةَ ورَبَطْـتُ على قلبِي وألقَيْـتُ نظـرَةً أخيـرةً على عـوامِرِ بيتِـيَ المُتَلَفِّعِينَ بأجنِحَتِهِم، المُتَقَوْقِعِين على أنفُسِهم في أركـانِ وسقُوف المنـزِل، ينظرون إلَيَّ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ، في رِيبَةٍ ورَهْبَةٍ، وكأنَّهم يَخْشَوْنَ أنْ يرِثُـوا بَيْتِـي مِن بعدِي!!..

***

أقِـفُ الآنَ في وَسَـط شـارعٍ عـريضٍ، مئـاتُ المـارَّة مِـن حـولِي، رائحُـون وغـادُون، يقطعـون الأرضَ طـولًا عرْضًـا، لا يـأبهُون لِـي.. أنظُـرُ إلـى آخِـر الشارع الطويل، لا أكاد أرى نهايَتَهُ، ولكِنَّنِي أكاد أرى نهايتي، أعرِف أنَّهـا قـد

أوشَكَتْ.. في آخر الشارع، وعلى بُعْدِ عِدَّةِ كيلومِتراتٍ أمَيِّزُ قُبَّةً كبيرةً، تبدو مِن مَوْقِعِي صغيرَةً، قُبَّة القصر الذي يسكُنُه المَلِكُ، «الجربوع.. ذو الأَلْيَتَيْن»، قُبَّةٌ تبدو وكأنَّها لمسْجِدٍ لا تُطِيقُ بناءَهُ إلَّا الجِنُّ، لكِنَّهُ مسجِدُ ضِرَارٍ..

كانَت أوصالِي تثْعَبُ دَمًا، كانت جروحي تئِنُّ، بينَما أسناني تكادُ تتكسَّرُ مِن فَرْط جَزِّي عليها؛ في محاولة مِنِّي لتحَمُّلِ الألَمِ.. خَفَضْتُ رأسِي وألْقَيْتُ نظرةً على يدي اليُمْنَى، كانتْ قد فَقَدَتْ ثلاثة أصابع منها بالفِعْلِ، بينما فقَدَت اليُسْرَى أُصبُعان.. كان الدَّمُ يقْطُرُ مِن أطراف كلِّ أُصبُعٍ منها، وقد كان يسيلُ قبلًا، حتَّى إذا ما فُقِدَت دماءٌ كثيرة وبدأت البقيَّةُ الباقية مِن دماء أوعيتِي في التَّجَلُّطِ، صار يَقْطُرُ في بُطْءٍ ثخينًا لزِجًا..

حَوَّلْتُ نَظَرِي عنْ يَدَيَّ إلى قدَمَيَّ ثمَّ فَخِذَيَّ ثمَّ بطنِي، فصَدْرِي.. كانت الجُرُوح تملأ كلَّ جزءٍ مِن جسدي، وكانت ملابِسي، أو ما بَقِيَ مِنها سليمًا، يصطَبِغُ بدَمِي.. لَمْ أكُنْ أرَى ظَهْرِي، لكِنَّنِي كنتُ أشعُرُ به هو الآخر، وأسمَعُ أنِينَهُ.. كان أنينُ جسدِي يصُمُّ أُذُنِي، التي كانَتْ تئِنُّ هي الأُخرَى؛ لَمْ تكُن الطريق إلى هنا ميسورةً على الإطلاق، الآن أرى عالم الجِنِّ على حقيقَتِه، أراه كما لَم أفْعَل مِن قبل..

كانت الشياطين التي تسكنُ كلَّ مكان تترَصَّدُني منذُ خَرَجْتُ مِن باب شَقَّتِي، كانت تنظُرُ إلَيَّ كعادتها الغَضُوب، كان الحقد يتبَدَّى في نظراتها، وإرادة الشَّرِّ تنطِقُ بها حركاتُها وسكَنَاتُها.. لكِنَّ هذه المرَّة كانَتْ نظراتُها السوداء والحمراء تحمِلُ معنًى آخَرَ لَمْ يَبِنْ لي مِن قبلُ، كانت الشماتة بادِيَةً في نظراتهم، نظرةِ صيَّادٍ طالَ طِرَادُه لفرِيسَةٍ ماكِرَةٍ أوْغَرَتْ قلْبَهُ، فأدْرَكَها آخِرًا، وألْجَأها إلى رُكْنٍ غيرِ شَدِيدٍ، فيُمَتِّع ناظِرَيْهِ بمرآها ترتَعِدُ بين يَدَيه، قبلَ أنْ يرْكُزَ فيها رُمْحَهُ لِيُمَزِّقَ أحشاءها ويُشاهِد روحها تَرْقَى مبتعِدَةً مِن جوْفِها..

سِرْتُ في الطرُقات غيرَ بعيدٍ، وحينما نظَرْتُ خلْفِي وجدتُ جُموعًا مِن الشياطين تعْقُبُنِي، حيَّاتٌ وعقارب وكلابٌ سوداء، وأصحاب رؤوس الخِرَاف والجِدْيَان.. آخرون كانُوا يتقافَزون على أسطُح المباني مِن حولِي، يُسَدِّدُون إلَيَّ نظرَاتِهم وهم يتَنَقَّلُون مِن سطْحٍ إلَى آخر، يتبعُونَنِي حيثما ولَّيْتُ وَجْهِي.. كنتُ أستعيذُ الله، فيُصْعَقُ بعضُهم أو أكثَرُهم، وحينما أكُفُّ يعودون لما دأبُوا عليه مِن تَعَقُّبِي.. لمْ ألْبَثْ طويلًا حتَّى صارُوا يُحِيطُونَنِي مِن كلِّ مكانٍ، مِن أمامي ومِن خلفِي وعن يميني وعن شِمالي.. أذكُرُ الله فيخْنَسُون، ويأتي غيرُهم، فأذكُرُ الله فيخنَسُ مِن أتى ويعودُ مَن سَبَقَ إدبارُهُ قبْلًا، وهكذَا..

ظَلَّتْ الحالُ على جديد عهدِي بهم إلى أنْ أدركُوا أنَّ اللَّذَيْن كانا قد وُكِّلَا بحمايتي غائبَان، وقد يظَلَّا كذلك، وأنَّهم إنْ أرادُوا النَّيْلَ مِنِّي فلَيْسَ ثمَّ وقتٌ أكثرَ مُناسَبَةً مِن تلك اللحظات.. نعم، إنَّهم يخْنَسون عند ذِكْرِ الله، ولكِن لا بأسَ بمحاولَةِ اقتناص الفُرَصِ، فقد تسنَحُ إحْداها، وقد تُؤْتِي ثمارَها مرَّةً بعد أُخْرَى..

ظلُّوا على حالهم تلك، مِن دراسة المَوْقِف وتقييمِه لبُرْهةٍ، وظلَلْتُ على حالي مِن الذِّكْرِ والاسْتِعاذَةِ، حتَّى قرَّرَ أحَدُهُم الانتقالَ إلى المرحَلَةِ التاليَة، المواجهة، فرأيتُ أحدَ الذين كانوا يتقافَزون على الأسطُح يهوي إلَيَّ وفي يمِينِه شُعْلَة نارٍ، كاد أنْ يُصِيبَ بها وجهي، غير أنَّ ذِكْرًا تَلَوْتُه أخْنَسَهُ وأعادَه مِن حيثُ أتَى، له صُرَاخٌ وعويلٌ يصُمُّ الآذان.. وكأنَّ هجمتَه تلك لمْ تكُن سِوى البداية فحسب، فقد توالَتْ مِن بعدِها الهجمات، وتَعاقَب المُهاجِمُون، مِنْ كلِّ حدَبٍ ينسِلُون.. خمسُ جِهاتٍ تلَقَّيْتُ منها الهجمات، لمْ تصِلْ إلَيَّ أيُّها، في باديء الأمر، حتَّى صارت الهجمات أكثر مِن قدرتِي على مُوالاةِ الذِّكْرِ، فتَلَقَّيْتُ الأولَى في ظهرِي، أحسَسْتُ بمخالبَ كالخناجر تنغَرِزُ في لَحْم ظهرِي، فتصنع فيه أخادِيد شعرتُ بلهيبها يكادُ يأتِي على كامل جسدِي بالحرِيق.. كان الألَمُ شديدًا، لا أكادُ أحتَمِلُهُ، وشعَرْتُ أنَّ قدَمَيَّ تحاول الرُّكُونَ إلى الأرضِ، صرختُ، ويا لَيْتَنِي لم أفعَل، فقد كانت

صرختي تلك بديلًا عن الذِّكْرِ، واللحظةُ التي لا أذكُر الله فيها لا بُدَّ وأنْ أتَلَقَّى فيها ضربةً أخرى؛ فتلك هي اللحظات التي كانُوا يقتنصونها.. كانت الثانية حينَ صرَخْتُ فهبَّت أحد كلاب الجِنِّ وقفزتْ إلَيَّ عن اليسار فقضَمَتْ يدي بأسنان أطول مِن أسنان المِئْشار، فسحبتُ يدِي مِنْ داخِل فَمِ كلْبِ الجِنِّ، كان ذلك حين فقَدْتُ أوَّلَ أُصْبُع.. حين أدْرَكْتُ أنَّ صُرَاخِي هو المُؤْذِنُ بالمزيد مِن الهجماتِ كنتُ قد فقَدْتُ ثلاثة أصابع ومُزِّقَ لحمُ ظهرِي وفخذِي الأيمَن بضربتَيْن مِن مخالب المَرَدَةِ والغِيلان..

***

لمْ تزَل الطريق إلى القصر طويلة، وقد صِرْتُ الآن أكثر وهَنًا، وصارت الضَّرَبات أسرَع وأقوى مِمَّا مَضَى، ما كنتُ أحتمِلُه شيئًا مَّا فيما مضى لم أعُد أقوى على احتماله الآن، ولمْ يمُرَّ وقتٌ طويل منذُ تَلَقَّيْتُ الضَّرْبةَ الأولى.. كنتُ أسير في الشارع الطويل في المنطقة المأذون فيها بسير العامَّةِ، قبل أنْ تبدأ الحواجز الأمنية في قطع طريق النَّاسِ كي لا يقتربون مِن قصر المَلِكِ أكثَر.. كنت أمشي مُتَثَاقِلًا، أجُرُّ قَدَمَيَّ جرًّا، ساعِداي مُنسَدِلَان إلى جانِبِي، لا أستطيع أنْ أرفعَهما، ولو قليلًا، كانت الجِراحُ تملؤنِي، جسدي وقلبي وروحي، الآن أدرِكُ كلام الشيخ «عِياض بن مالك»، الذي سمِعتُه منه أوَّل مرَّة، مَن سَلَكَ تلك الطَّريقَ هلَكَ لا محالةَ، وها أنا ذا في طريقي إلى

هَلَكَتِي، أقطَعُ الأرضَ رُوَيْدًا، بينما تُقَطِّع المخالبُ مِن جسدي وتبتر الأسنانُ مِن أطرافي وتلدغني أنيابُ الأفاعي وأذناب العقارب، جسدي يزرَقُّ ويحمَرُّ، تأتي عليه ألوان الطيف قاطبةً، حالَّةٌ لا ترتَحِل.. لساني يَزِنُ طُنًّا أو يزِيد، لا أقوى على تحرِيكه، لِذِكْرٍ أو صُرَاخٍ، قد مضَى زمانُ نُطْقِهِ، اختَنَقَ الذِّكْرُ في القلبِ وماتَ على اللِّسَانِ، وصار الأنِينُ صُرَاخِي..

كان بعضُهم يقِفون قُبالَتِي غير بعيد، تنْحَنِي قاماتُهم كعدَّاءٍ على وَشَكِ الرَّكْضِ في مضمار السِّباق، ثمَّ ينطلقون تجاهي، فيصطدمون بِي، ويَنْفُذُون من صدْرِي إلى ظهري، ويخرجون مِنِّي مِن الجهة الأخرى، أشعُر حينها أنَّي خَرَرْتُ مِن السماء إلى الأرض، أو قد هَوَتْ بِيَ الريح في مكانٍ سحيق، وكأنَّ جسدي كلَّه قد رُضَّ، فما مِن موضع أصبعٍ فيه إلَّا وفيه كدمة ورضَّة، مِن الداخل والخارج.. كانَت عروقي يستَحِيلُ لونُها إلى الأسود مع دخول الشياطين لجسدي والخروج منه، فكنتُ أنظر إلى ما ظهرَ مِن جسدي، بعد ما قُطِّعَت ثيابي في غير مَوْضِعٍ، فأرى أنهارًا سوداء تجري في أوصالي، كنت أنظر في زجاج السَّيَّارات مِن حَوْلِي وفي واجهات المحالِّ والحوانيت فأرى وجهي وقد ملأتْه الأنهار السوداء، تقطَعُهُ مِن أقصاه إلى أدناه، والدماء تملؤه، تقطرُ مِن العينَيْنِ والأنف، وأجِدُ طعمَها في فَمِي..

كانت المارَّة مِن الإنس في كلِّ مكانٍ يجوبون الأرض ويذْرَعُونها، لم

يكُن مِن بينِهم مِن أحدٍ يدرِي ما يحِلُّ بي.. وأنا أيضًا لمْ أكُن أراهم، فقط أمْسَيْتُ أرى الجِنَّ، وكأنَّنِي صِرْتُ إلى عالَم الجِنِّ الخالص، عالمٌ لا إنْسَ فيه، عالمٌ ليسَ لي ولستُ له.. هذا العالَم الذي اختَرْتُ أنْ أخوض معركَتِي مَعَ الطُّغاةِ والمجرمين فيه.. طُغاةُ الإنْسِ وجبابرتُهم لا تُخاض معهم المعارك إلَّا في عالم الإنس.. هكذا علِمْتُ، عَلِمْتُ مُتَأخِّرًا، فقد خَسِرْتُ المعركةَ ودَفَعْتُ ثمَنَها، مِنْ دَمِي ورُوحِي وأهلِي.. نعم، هكذا هي ساحات الصراع، ثمَّةُ ساحاتٌ لا يصِحُّ أنْ يقتَحِمَها المرءُ ولا أنْ يركُزَ فيها حَرْبَتَه، كنتُ قبلًا أواجه الطُّغاةَ في ساحة الأحلام والأمانِيِّ الخادعة، ساحة العقل فسيحة، ينجو فيها المرءُ حيثُ شاءَ، وله أنْ يحيَى بعد أن يموت، لا ألَمَ فيها ولا ثمَن يُدْفَع، ولكِن لا نَصْرَ فيها أيضًا.. وعلى النَّقِيض منها، ساحة الجِنِّ والشياطين، ساحةٌ أفسَحُ، فيها مِن الألم ما لا يُحْتَمَل، ومِن الثمَن ما لا يُسْتَطَاع ولا يُؤَدَّى، غير أنَّه لا نصرَ فيها أيضًا، وقد أخْفَقْتُ في كِلَيْهِما..

لا تزالُ الطريق إلى القصر طويلة، ينعَمُ فيه المَلِكُ وكِبار زبانِيَتِه بالأمْنِ، وقدمايَ تُعْلِنُ الاستسلام، ليست قدماي فحسب، لا أريد أن أكون متحامِلًا عليها، فقد رفعَتْ خلايا جسدي جميعها رايةً بيضاء، لم يُؤْبَه لها، فقط مُضْغَةٌ صغيرة في صدري، رفَضَت التَّسْلِيم لغير الله، أُمِرَتْ بالنُّكُوصِ فأبَتْ، عُوجِلَتْ بالجِراح فبَذَلَتْ، هُدِّدَتْ بالخَوْفِ فقَسَتْ، عُرِضَتْ على المَوْت

فأَقْبَلَتْ..

توَقَّفَتْ قدمايَ عنِ المَسِير، فذاكَ آخِرُ عهدِها به، هَوَيْتُ إلى الأرض، على رُكْبَتَيْن مُحَطَّمَتَيْنِ، ارتَجَّ جَسَدِي.. أرى طائر النَّوْم آتٍ، كم أشتاقُ إليه، لم يَكُنْ يُشْبِه طائر النَّوم الذي اعْتَدْتُ أنْ يأتِيَنِي كلَّ ليلَةٍ، كانَ كبيرًا، أبيض اللون، هل يحُطُّ رِحالَه على جِفْنَيَّ كسابِقِهِ، فأغوص في أعماق أحلامي، عَلِّي أجِدُ هناك نصْرًا جديدًا يُنْسِينِي ما مُنِيتُ به مِن هزيمةٍ في غَير عالَمِي؟!، أم تهدأُ به روحي وقلبي وعقلي وجسدي، فيبرأُ كلُّ مِن جراحاته، لأصحُو مُجَدَّدًا فأخوض معركةً أخرى مِن معاركِي ضدَّ أهل الظُّلْم والبَغْيِ، برُوحٍ جديدةٍ وقلبٍ جديدٍ وجسدٍ جديد؟!!..

لمْ يحُطَّ طائر النَّومِ على جِفْنَيَّ، بل حطَّ على صدري، شعَرْتُ وكأنَّه يُرَبِّتُ على صدري بقَدَمَيْهِ، ذهب الألَم، وبَرِأَتْ الجُرُوح وهَدَأَتْ الخواطر، وغَمَرَ العقلَ صفاءٌ لَمْ أعْهَدْهُ مِن قبل.. كنتُ آمِنًا مُطْمَئِنًّا، راضِيًا، مُنْتَصِرًا، أحسَسْتُ بالتَّرْحَابِ والقَبُول، والرِّضَا.. لم يكُن ما حطَّ رِحَالَه على صدري طائر النَّوْمِ.. بل كان طائرَ المَوْتِ..



مضى أكثر من شهر، ولم تَتَلَقَّ زوجي أيَّ مهاتفات مِنِّي، وحاولَت هي مِن جانبها مدَّ الوصالِ الذي طال انقطاعُه، فواصَلَتْ الليل بالنهار في محاولات الاتصال بهاتف المنزل والهاتف الخَلَوِيّ، ولكن ما مِن مُجِيب.. دقَّتْ طُبول العصيان في قلبها، وأسْدَلَتْ على عقلها ساترًا، حَجَبَ عنها ما سبَقَ وأخبرتُها به مِن قبل.. نعم إنَّها لَمْ ترَنِي منذُ عامَيْن، ولكنها كانت تعلم أنَّنِي لا أزالُ هنا، كنت أقوم على شؤونها وشؤون أولادي مِن حيثُ لا يَرَوْنَنِي، لقد كنتُ دومًا هنا، كما كنتُ دومًا هناك..

أمَّا اليومَ، ولِشَهْرٍ مضى فقد بَدَت الساحةُ خاليةً مِنِّي، فلا أنا أصِلُهم، ولا هم يستطِيعون وِصَالِي، والأمرُ لا يُنْذِر بخَيْر.. عَقَدَتْ قلبَها على الانتقال إلى الخُطَّة البديلة، تلك الخُطَّة التي لَمْ نَضَعْها قطُّ، كم أنفَقْنا مِن أعمارنا في خُطَطٍ ليس لها بدائل!! فإذا ما فشِلْنَا فيما مضَيْنا إليه، انهَدَم كلُّ شيءٍ، وذهبَتْ جهودُنا أدراج الرياح.. خرجَتْ مِن بَيْت أمِّها عازمةً على قطْع خَلْوَتِي في منزلنا، ذلك المنزل الذي لَمْ يَكُنْ خالصًا لنا في يومْ مِن الأيام، بل لَعَلَّ العوامر كانت تسكُنه مِن قبل أنْ ننتقِلَ إليه.. قرَّرَتْ أنْ تعود إلى المنزل الذي أخبرتُها ألَّا تطِأَه قطُّ حتَّى آذَنَ لها بذلك.. وأنا أزعُمُ أنَّني أعلم ما يدور برأسها، فأكثر النساء في ذلك على مِثالٍ واحدٍ، لا بُدَّ وأنَّه قد دارَ بخَلَدِها أنَّني

قد تزوَّجْتُ بأخرى، وأنَّ قصَّة طلب العون مِن الجِنِّ والمشاركة في إيجادِ حلُول لتلك المُعْضِلَات التي تُواجهها الأمَّةُ إنَّما هي مَحْضُ هُرَاء، ذريعةٌ قد اتَّخَذْتُها مِن أجل أنْ أجِدَ فُسْحَةً مِن الزَّوَاج بغَيْرِها.. هكذا هم النِّسَاء دائمًا، لو أنَّهُنَّ عَلِمْنَ أنَّ الساعةَ تقوم الآن وفي وقتِهنَّ سعَةٌ لتَتَشَكَّكْنَ بأمْرِ أزواجِهِنَّ لَفَعَلْنَ، مِن غير إرْجاءٍ.. ولعَلَّ كثيرًا مِن الأزواج يستأهلون ذلك، حقًّا.. لكِنَّنِي لم أكُنْ مِن ذلك الصِّنْف، أو هكَذَا أزعُمُ..

قطَعَتْ الطَّريق مِن منزل أمِّها إلى منزلِنا، وفي عقلها مئاتُ الفُرُوضِ والاحتمالات والخُطَطِ، ويدور في رأسِها عشراتُ المشاحنات والتَّصَوُرَات لِما يُمْكِن أنْ يحدُث حينَ وصولها، وكان قلبُها يخفِقُ بشِدَّةٍ، ويقْطَع جسدَها صعُودًا إلى الحنجرة وهبوطًا إلى قَدَمِها، كانت كمنْ ثار بُركانٌ في داخلها، فلا هي أطفأتْه ولا أذِنَتْ له بالانفجار خارجها..

أطالَتْ الوقُوف أمام باب الشقَّة، تردَّدَتْ، ثمَّ أحكَمَتْ أمرها وعَزَمَتْ على المُضِيِّ قُدُمًا فيما أتَتْ مِن أجلِه.. دسَّت المفتاح في الباب وأدارته، ففُتِحَ لها وكأنَّهُ يُرَحِّبُ بعودتها بعد غيابٍ طالَ، ولجَتْ بيُمْنَاها مبَسْمِلَةً داعِيَةً مستَعِيذَةً.. كانت تَتَقَدَّمُ ببطيءٍ داخل الشَّقَّة، فهي لا تدري ما كُنْهَ الممارسات التي شَهِدَها المكان مِن بعد أنْ غادَرَتْهُ بأطفالها.. لَمْ يكُنْ وجهُها يتقلَّبُ في كلِّ زاويَةٍ وفي كلِّ رُكْنٍ، كَمَنْ يبحثُ عن مفقودٍ، فقط

عيناها كانتا ترقصان في مِحْجَرَيْهِما، وكأنَّها تقِي نفْسَها شَرَّ الفُجْأَةِ بتَسْدِيدِها نظراتٍ ناعِسَةٍ عن اليمين والشِّمال.. كانَ الوقتُ نهارًا، ولا شَيْءَ يدعو للخَوْف، فالعفاريتُ لا تخرُجُ نهارًا، أو هكَذَا حسِبَتْ، غيرَ أنَّها لَم تَرَ تلك العيون الحمراء والسوداء التي كانَتْ تُحَدِّقُ بها وتتابعها في كلِّ حركةٍ وسَكَنَةٍ مُنْذُ وطَأَتْ قدماها المنزل..

دارَتْ في المنزِل مرَّاتٍ ومرَّاتٍ، فلَمْ تجِدْ سِوَى منزِلٍ يستَحِقُّ أنْ يكون لِرَجُلٍ عَزَبٍ، به الكثير مِن الفوضى والإهمال، لكِن لا شيء يدعو للريبة، فهكذا يكون مظهر البيت مِن الداخل بعد يومَيْن فحسب مِن إقامتِي فيه وحْدِي، فلا بأس مِن أنْ تكون هذه هي حالُه بعد عامَيْنِ!..

لَمْ يُثِرْ شيءٌ اهتمامَها في المنزل، دخلت غرفة النَّوْم فلَمْ تَرَ فيها ما يُرِيبُ، والأَهَمُّ مِنْ الجِنِّ والعفارِيت، لا أثَرَ لامرأةٍ أخرَى، فلَوْ قُدِّرَ لها أنْ تجِد آثَار امرأةٍ سواها في المنزل لألجأت العوامرَ إلى الهجرة عنه لما ستُحْدِثُه فيه مِن أهوال يشيبُ منها الوِلْدَان، ولْدَان الجِنِّ والإنس على السواء..

فقط شيءٌ واحد أثار دهشتَها وأيقَظَ في عقلها الذي كاد أنْ يغِيبَ عنها، تساؤلاتٍ لَمْ تَدْرِ لها جوابًا.. ما بالُ تلك الكامِيرا الرقمية مركوزة قبالة المَضْجَع؟! تُرَى أأجِدُ لتساؤلاتي جوابًا؟ أيكون فيها ما أبحثُ عنه لشهورٍ

مَضَتْ؟ أتُرْجِعُ ذاكِرَتُها لي ما فُقِدَ مِن ذاكِرَتي؟!!.. أوصَلَتْ الكامِيرا بالكهرباء، بعد أنْ نفَدَ ما بها مِن طاقةٍ مخزونةٍ، وقامَتْ بتشغيلها واستعراض آخر ما سجَّلَتْهُ ذاكرتُها..

كان الوقتُ ليلًا، فلا مجال للضوء في المشهَدِ، تبدو الموجودات والكيانات باللونين الأسود والأخضر المَشُوب ببَياضٍ نتَجَ عن خاصِّيَّة التصوير بالرؤية الليلِيَّة.. جسدٌ ما يتحرَّكُ مبتعدًا عن الكامِيرا بعد أنْ ركزها قُبالَةَ المَضْجَع، نعم، هذا هو «نضال»، هذا زَوْجِي، كان يرتدي منامَةً قاتمَةً أو ثيابًا سوداء اللون.. اتَّخَذَ «نضال» مكانه على الطَّرْفِ الأيمَن مِن المِضْجَع، واضطَّجَعَ على ظهره، وعَقَدَ ساعِدَيْه أمام صدره.. لم يكُنْ شيئًا مريبًا أكثر مِن أن يقوم رجلٌ بتصوير نفسه أثناء نَومِه!!..

اضطَرَبَتْ الرؤية قليلًا في المشهَدِ الصامِت ذاك، وعَلَتْ الشاشةَ خطوطٌ سوداء كثيفة بعَرْضِها، وكأنَّ عُطْبًا ما قد ألَمَّ بها.. كانتْ الصورة تختفي وتظهر تِبَاعًا مِن غير أنْ يطْرَأ جديد على هذا الجَسَدِ المُسَجَّى على المِضْجَعِ، يغُطُّ في نَوْمِه كما يظهَرُ.. أظلَمَتْ شاشة الكامِيرا واستَحَالَتْ سوداءَ، وفجأة رجعَتْ إلى عهدها بالتَّصوير بالروية الليليَّة، ولكِن كان المشهَدُ على غير ما كانَ عليه قبل إظلام الشَّاشة.. شهَقَتْ المرأةُ وكادَتْ أنْ تُسْقِط الكامِيرا مِن يدِها، وهي تُحَدِّقُ بعَيْنَيْن فَزِعَتَيْن تكادُ تُغادِر وجْهَهَا مِنْ

فَرْط ما غَزَاهُما مِن رُعْبٍ.. كانَ «نضال» لا يزالُ مستلقِيًا على ظهره، ولكنْ هذه المرَّة كان جسدُه مُقَوَّسًا بشِدَّةٍ، وكانت رأسه ورقبَته ملتويتان إلى الخلف بعُنْفٍ، وكان ساعِداه مشدودَيْن إلى جانِبه المرتَفِع عن سطحِ المَضْجع، وكانتْ كفَّاه يابستَيْن جامدتَيْن إلى جهة الخارج، كمن يعاني مِن نوبة صرعٍ عنيفةٍ.. كانت عيناه مفتوحتَيْن، تلتمعان في ظلام الغرفة بضوء أبيضَ يخرج منهما، وكان فمُه مفتوحًا على اتِّساعه..

ظلَّتْ تُحَدِّقُ في المشهد، مشدوهةً، وهي لا تكادُ تُصَدِّق أو تعِي ما يحدُثُ.. أهذا حقيقيٌّ أمْ أنَّ هذا مُجَرَّد مشهد تمثيليٍّ؟! أهذا حقًّا زوجي «نضال»؟!.. ولكِن مهلًا ما هذا السَّواد الذي ظهر عن جانِبَيْه بعد أنْ عادَ المشهد إلى الظهور بعد انقضاء العُطْبِ؟!!.. خيالاتٌ سوداء تسكُن المشهد عن يمين وشمال زوجي هذا الذي يعاني مِن نوبة صرعٍ لَمْ يختَبِرْها مِن قبل قطُّ.. أتَتَحَرَّكُ تلك الخيالات أم أنَّ ما أرى قد أثار خيالي وفزعِي ولَعِبَ برأسي كما تلعب الخمرُ برأس شارِبها؟!!.. نعم إنها تتحرَّك، لا شكَّ في ذلك، تلك الظلال السوداء عن اليمين والشمال غير ساكنة، بل تهتز وتتمايل إلى اليمين واليَسَار في رتابة، كأنَّها رقَّاصُ ساعة عتيقة..

عادتْ الخطوط السوداء تعترض الشاشة مجدَّدًا، وقد عاد العُطْبُ إليها، وظلَّتْ هكذا ترتعشُ حتَّى أظلَمَتْ.. لمْ يلبَث المشهدُ أنْ عادَ إلى ما كان

عليه مِن الوضوح النِّسْبِيّ في ظلِّ الرؤية الليليَّة.. شيءٌ واحد فقط تغيَّرَ فيه، أو اختَفَى مِنه، بل ثلاثة أشياء.. كان المَضْجَع خاليًا، مِن «نضال»، ومِن الخيالَيْنِ اللذَيْن أحاطا به.. وانتهَى كلُّ شيء..



الجِنُّ لا يدفنون موتاهم إلَّا ليْلًا

كانت الطرُقات مزدَحِمةً، ملأى عن آخِرِها، ليس ثمَّ موطِئٌ لقدمٍ قطٌّ، لم تكُن ملأى بالنَّاسِ، بل كانت الجُموع مِن الجِنِّ.. أفواجٌ متعاقبةٌ، يتبَعُ بعضُها بعضًا، تتوَجَّهُ صَوْبَ أطراف المدِينة، وكان الوقتُ ليلًا، حيث الظَّلام قاهرٌ فوق كلِّ المخلوقات.. كانت الجموع مؤمِنَةً، تسير في بطيءٍ، بسكينةٍ، الصمتُ يلُفُّهم بهالَتِهِ، على الرُّغْمِ مِن أعدادهم التي جاوَزَتْ مائة ألفٍ، ويزيدون.. كانت الوجُوه حزينةً، مُطْرِقَةً، قد سدَّدَ كُلُّ صاحب عينَيْن ناظِرَيْه إلى الأرضِ، وإلى عَقِبِ مَن يسير أمامَه، وجهَتُهُم واحدة، وقلُوبهم وَجِلَةٌ، على قلب عِفريتٍ واحد..

مضى بضعةُ آلاف في الطرقات، يمُدُّهُم آخرون مِن الطُّرُقات والشوارع الصغيرة عن جانِبَيّ الطريق الرئيسيَّة المُوَصِّلَةِ إلى خارج المدينة.. ثمَّ أتى مَوْكِبٌ، يبدو أنَّه هو ما اجتَمَعَتْ لأجله تلك الجموع.. عشرةٌ من العفاريت الأشِدَّاء، يتراصُّون في صفَّيْن، يحملون على أكتافِهم مَحَفَّةً خشبيَّة مُزَيَّنَةً، وكأنَّها لمَلِكٍ أوْ فِرْعَونَ قد مَلَك الدُنيا يومًا، مُسَجًّى عليها جسدٌ ليس كأجساد الجنِّ الخفيفة، بل كان جسدًا كثيفًا، قد فارَقَتْهُ الرُّوح.. مِن فوق المَحَفَّة تطير بعضُ العفاريت بأجنحتها السوداء، وكأنَّها إنَّما تُظَلِّلُ على صاحب هذا الجَسَدِ، فتَقِيه قسوةَ الظَّلَامِ وشَرِّهِ.. يتقدَّم هؤلاء العَشَرة

شيخان، يحسَبُ الناظرُ إليهما أنَّهما شخص واحد قُدَّ في جسدَيْن، كانا قويَّيْن على الرُّغْمِ مِن عُمُرِهِما الذي جاوَزَ الثمانِين، يرتديان جلبابَيْن بيضَاوَيْن، وقَلَنسُوَتَين بيضاوتَيْن، ولهما لحيةٌ بيضاء، كثَّةٌ تملأ ما بيْن جنبَيْهِما، عيونهما سوداء لا بياض فيها، أقربُ في خِلْقَتِهما إلى الإنس، لم يكونَا كمَنْ يحوطُهما مِن الجنِّ والعفاريت، ينْسَابُون في مشْيِهما كما ينسابُ الماءُ مِن غير بأسٍ، وكأنَّهما لا يسيران على قدَمَيْن..

ومِن بعيد، على أطراف المدينة، بدتْ شواهدُ قبورٍ متناثرة، ليست قبورَ الإنس الساكنين في المدينة، كانتْ مقابرَ للجنِّ، يعمُرُونَها بعد عِمارَتِهم لِدُور الإنْسِ في الدُّنْيَا.. توجَّهَتِ الجُموعُ الأسِيفة صَوْبَ أحدِ القبور الذي بَدَا وكأنَّه يفتَحُ ذِرَاعَيْه مُسْتَقْبِلًا غائبٍ قد طالَ انتِظَارُهُ.. تقدَّم الشَّيخان في تؤُدَةٍ، وتآزَرَا في حَمْل ذِي الجَسد الكثِيف، ولمْ يلْبَثَا حتَّى أودَعاه القبْرَ، وأهالَا عليه التُّرَاب.. هكذا أسْلَمَاه إلى ظلام تحت الأرض، بينما ظلامٌ يُغَلِّفُ الأجواءَ فوقها، ولم يكُن الأمر لينتَهِيَ إلَّا على هذا النَّحْو؛ فالجِنُّ لا يدفنون موتاهم إلَّا ليْلًا.. وانصَرَفَتْ مِن بعد ذلك الجموع، وبقيَ الشيخان على حالِهما، فجلَسَا عن يمين القبر وشِماله، وكأنَّهُما يحرُسَانِه في أوَّل ليلةٍ مِن لياليه في مَنازِل الآخِرَةِ..

إذَا مَـا هَـانَ عَلَـى قَـوْمٍ خِيَـارُهُمْ * تَـسَلَّطَ عَلَـى الرِّقَـابِ شِـرَارُهَا

***

وَلَـيْسَ أَشَـقُّ عَلَـى المَـرْءِ مِـنْ * وَطَـنٍ لَـيْسَ لَنَـا وَطَـنُ

مَـا بِـهِ عَـدْلٌ وَلَا رَقِيـبُ * ضَـارِبٌ فِـي جَنبَاتِـهِ العَطَـنُ

***

وَحَـالُ الـدَّعِيِّ مِـنْهُمْ عَجِيبَـةٌ * وَقَـدْ رَامَ غَيْـرَ ذَاتِ الـشَّوْكَةِ

***

قَـوْمٌ لَـمْ يَغْـضَبُوا لِـدِينٍ وَعِـرْضٍ * وَقَـامُوا غِـضَابًا لِعَـيْشٍ وَفَـمِ

فَـلَا وَاللهِ لَا يُنْـصَرُونَ وَإنْ * رَوَتْ عُـرُوقُهُمْ الأَرْضَ بِالـدَّمِ

د. محمد عبد اللطيف

الجُمُعة، ٥ مِن ذي القِعدة ١٤٤١هـ

٢٦ مِن حزيران ٢٠٢٠م

إِنَّـــهُ يَرَاكُـــم

مملكة العبيد ١

كلَّ يومٍ هو في ذات الشأن ٧

كيف السبيل إلى الخلاص؟ ١١

إنَّ المســاجد لله ١٤

مَدَدٌ استثنــائيّ ٢١

يعُوذون برِجال مِن الجِنِّ ٢٥

دَعْ عنك أمر العامَّة.. فإنَّ من ورائكم أيَّام الصبر ٣٤

أصحاب الكهف ٣٨

ليس كذاك الذي خرج ٥٠

الذُّلُّ يُوَرَّث كما تُوَرَّثُ العِزَّة ٥٤

على شَفا جُرْفِ عالَمِ الأطْياف ٦١

عُدْ يا مجنون.. ستُورِدُنا المهالك ٦٤

ظلاماتٌ.. ليست بساكِنةٍ ٦٩

لَيْتَ لِي قلبًا خائنًا ٧٣

إنَّنـا الحَفَظَةُ ٧٧

العَوَامِــر ٨١

الخُبُثُ والخَبَائِث ٨٦

معركة.. «دورة المياه» ٩٨

لا تَكُنْ لهم جابيًا.................................. ١٠٨
... ولا شُرُطيًّا ١٢٠
شيءٌ مًّا تركوه بالدَّاخل.................................. ١٣٣
... ولا خازِنًا.................................. ١٥١
أسباب مِن الأرض.. وسببٌ مِن السماء.................................. ١٦٥
في قلبِي ضجيجٌ يَصُمُّ أُذُني.................................. ١٧١
ما بَالُ هذا الأَسِيف؟! ١٧٧
لا يدخلِ الجنَّةَ صاحبُ مَكْسٍ ١٨٠
كُلُّهُ بالقانون ١٩٤
لَيْلُ الغِوايَةِ.. مُظْلِمٌ ٢٠٨
إنَّ للعِلْم عواقِبُه ٢٢٥
رَبِّ ارْجِعُون ٢٣٢
الجُدْران لها آذان ٢٣٩
«الجَرْبُوع».. ذُو الأَلْيَتَيْن.................................. ٢٤٥
مَن سَلَكَ تلك الطريق هَلَك لا محالَةَ ٢٤٩
الطريق إلى أولَى منازل الآخِرَة.................................. ٢٥٨
الجِنُّ لا يدفنون موتاهم إلَّا ليْلًا ٢٦٤

